سلسلة الأدب

الأنثى كنوع

أسرار مشوقة

قصص

جويس كارول أوتس

ترجمة وتقديم

دكتورة أمنية عامر

دكتور محمد عبد السلام حسن

http://arabicivilization2.blogspot.com

Amly

الأنثى كنوع

أسرار مشوقة

قصص

جويس كارول أوتس

ترجمة وتقديم

دكتورة أمنية عامر

دكتور محمد عبد السلام حسن

القراءة للجميع
مكتبة الأسرة
٢٠٠٨

الأنثى كنوع

لوحة الغلاف من أعمال الفنانة : منى فؤاد

كإضافة جديدة لمكتبة الأسرة قدمنا على غلاف كل كتاب لوحة تشكيلية لفنان مصرى معاصر من مختلف المدارس والأجيال وهذه اللوحات لا تعبر بالضرورة عن موضوع الكتاب.

وتتقدم مكتبة الأسرة بالشكر لقطاع الفنون التشكيلية بوزارة الثقافة ومتحف الفن المصرى الحديث على هذا التعاون.

المشرف العام :

د . ناصر الأنصارى

تصميم الغلاف :

د . إيناس حسنى

التنفيذ :

الهيئة المصرية العامة للكتاب

اوتس ، جويس كارول .

الأنثى كنوع : اسرار مشوقة: قصص / جويس كارول اوتس، ترجمة وتقديم: امنية عامر، محمد عبدالسلام .ـ القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨.

٤٢٤ ص ؛ ٢٢سم. (أسرة ٢٠٠٨ - أدب).

تدمك : ٤ - ٦٧٧ - ٤٢٠ - ٩٧٧ - ٩٧٨.

١ . القصص الإنجليزية.

٢ - القصص العلمية .

أ - عامر أمنية (مترجم ومقدم).

ب - حسن محمد عبدالسلام (مترجم ومقدم مشارك).

جـ - العنوان . د - السلسلة .

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٤٦٠٢ / ٢٠٠٨

I.S.B.N 978-977-420-677- 4

ديوى ٨٢٣

تقديم

«جويس كارول أوتس» كاتبة أمريكية شهيرة بتنوع إنتاجها الأدبى بين القصة والرواية والمسرح، ويتميز بالغزارة؛ فمنذ عام ١٩٦٤ ومع صدور روايتها الأولى «سقوط يبعث على الرجفة لم تتوقف عن الكتابة.

ولقد اتسمت أعمالها ببناء يختلط فيه الغموض المرتبط بالقوى الخارقة بملاحظات اجتماعية ثاقبة، مستعرضة فى هذه الأعمال الغوص فى قوى العقل الباطن، وتجسيد موضوعات الإغراء والعنف والاغتصاب من جانب، ورصد الكثير من المجتمع الأمريكى من جانب آخر

ومجموعة الأنثى كنوع تتناول بعض الحكايات المشوقة فى حياة مجموعة من النساء، فى محاولة سبر أغوار الأنثى وتقصى الدوافع المتباينة لارتكاب المرأة الجرائم البشعة، لتصل فى نهاية المطاف إلى إثبات أن المرأة رغم ضعفها قد تكون اشد عنفًا من الرجل فى كثير من الأحيان، إذ أن تلك الدوافع تتنوع تنوعًا كبيرًا، تنبع من العاطفة فى بعض الأحيان أو من الإحباط أو التشدد أو حتى السفه.

وتشتمل هذه المجموعة القصصية على تسع قصص «الأشباح - الناعقة - فليساعدنى الرب - مهرجة فى شارع مايسون - قولى إنك صفحتى

http://arabicivilization2.blogspot.com Amly

مقدمة

فى مبدأ الحديث ، نود أن نتقدم بالشكر للقائمين على هذه السلسلة المتميزة التى تصدرها الهيئة العامة للكتاب: أولاً: لأنها أتاحت لنا فرصة ذهبية لترجمة هذه المجموعة القصصية الثرية بتنوعاتها الدرامية لكاتبة بدأت مشروعها الإبداعى منذ ستينيات القرن العشرين، وثانيًا: لأن الهيئة أخذت وتأخذ على عاتقها نشر الأعمال الإبداعية والعلمية على أوسع نطاق ممكن، إيمانًا منها أن العلم والأدب مطرقة وسندان لتقدم الأمم وازدهار الشعوب.

«الأنثى كنوع» (٢٠٠٦) للأديبة الأمريكية «جويس كارول أوتس» هو عنوان هذه المجموعة القصصية التى حصلت بها الكاتبة على عدة جوائز عن بعض القصص، ومنها «جائزة أفضل قصص الغموض الأمريكية» عن: «دول» عام ٢٠٠٤، و«فليساعدنى

الرب» عام ٢٠٠٦؛ كما حصلت أيضًا على «جائزة كتاب الماموث» عن : «الأشباح» عام ٢٠٠٤ .

إنتاجها الأدبى

أسهمت «أوتس» فى كتابة القصص القصيرة لعدد من المجلات، وقد نشرت مجموعتها القصصية الأولى عام ١٩٦٣ بعنوان «البوابة الشمالية» وأخرى بعنوان «الفيضان المكتسح». وقد نشر لها العديد من الروايات، من بينها ثلاثية تضمّ : «هم» التى صدرت عام ١٩٦٩ و «جنة المتعة الأرضية» التى كتبتها عام ١٩٦٧، و «أناس لايقدرون بثمن» وكتبتها عام ١٩٦٨، وقد نالت عن هذه الثلاثية جائزة الكتاب الوطنى عام ١٩٧٠ . ومن أعمالها الأخرى : «بلاد العجائب» ١٩٧١ و «مدينة تشايلدوولد» عام ١٩٧٦، و «سيبيل» عام ١٩٧٩، و «زهرة جميلة» عام ١٩٨٠ ، و «بعيدًا عن المدار» عام ١٩٨٥، «لا بد أن تتذكر» عام ١٩٨٨، و«لأنه مرير ولأنه قلبى» عام ١٩٩٠، و «ما عشت لأجله» عام ١٩٩٤، و «شقراء» عام ٢٠٠٠ . وهو عمل روائى مبنى على قصة حياة «مارلين مونرو»، و«سوف أخذك إلى هناك» عام ٢٠٠٢ . وقد جمع كثير من قصصها القصيرة فى مجموعات منها : «عجلة الحب» عام ١٩٧٠، و «تعليم عاطفى» عام١٩٨١، و «تأجج» عام ١٩٩٠، و«هل ستحبنى دائمًا؟» عام ١٩٩٦، و«خائنة» عام ٢٠٠١، والمجموعة القصصية التى بين

أيدينا الأنثى كنوع» عام ٢٠٠٥ . هذا وقد نشرت «أوتس» أيضا أعمالاً شعرية ومسرحيات وقصصًا للأطفال ومقالات ودراسات فى النقد الأدبى، وأيضا كتابًا عن الملاكمة (عام ١٩٨٨) ؛ ومن ضمن أعمالها أيضًا روايتان ومجموعة قصص قصيرة وقصة للأطفال صدرت عام ٢٠٠٦ . ويجدر بالذكر أن «أوتس» كتبت بعض الروايات بأسماء مستعارة هما : «روزاموند سميث» و «لورين كيلى».

الجوائز التى حصلت عليها

تتميز «جويس كارول أوتس» بغزارة إنتاجها وتنوعه، فهى تكتب منذ أكثر من أربعين عامًا، وتعدّى إنتاجها أكثر من ٨٠ مؤلفًا فى الأنواع الأدبية المختلفة، وقد امتدح النقاد كتاباتها وقيل إنها رشحت لجائزة نوبل فى الآداب عدة مرات ، ولكن المؤكد أنها حصلت على عدد لا يحصى من الجوائز المحلية والدولية، ونذكر منها هنا على سبيل المثال الذى لا يقترب من الحصر:

١٩٥٩ : جائزة «كلية مدموازيل للقصة» Mademoiselle college fiction award، عن: «فى العالم القديم» In the Old World

١٩٦٨ : جائزة «روزنتال» من المعهد الوطنى للفنون والآداب Rosenthal Award, National Institute of Arts and Letters، عن «جنة المتعة الأرضية» A Garden of Earthly Delights

١٩٧٠ : جـائزة الـكتـاب الـوطنى National Book Award، عن : «هم» Them

١٩٧٨ : جـائزة «أو هنرى» للقصـة The O Henry Awards، عن : «الوشم» The Tattoo

١٩٨٨ : جائزة سـانت لويس للأدب St. Louis Literary Award

١٩٩٠ : جـائزة بـالمـشـاركـة فى جـائزة «هـايدمـان لمسـرحيـات الفـصل الواحـد» Heidemann Award for one-act plays ، عن : «مجموعة الألحان» Tone Clusters.

١٩٩٦ : جـائزة «برام ستـوكـر» للإسـهـام الأدبى المـتـفـوق Bram Stoker Award for Superior Achievement in a novel عن روايـة «زومـبـى» Zombie.

٢٠٠١ : جـائزة الكتـاب الوطنى National Book Award : عن رواية «شقراء» Blonde

٢٠٠٦ : جـائزة شـيكاغـو تريبيون للأدب Chicago Tribune Literary Prize لمجموع إسهامها الأدبى فى الأنواع الأدبية المختلفة .

جـدير بالـذكـر أن «أوتس» رشـحت ثلاث مـرات لجـائزة «بولتزر» Pulitzer Prize فى أعـوام : ١٩٩٣ ، ١٩٩٥ ، ٢٠٠١ .

رؤية عامة لأسلوبها الأدبى

لقد مهدت المجموعة الأولى من القصص القصيرة التى كتبتها «أوتس» الطريق أمام إسهاماتها فى المجال القصصى خاصة وفى عالم الأدب عامة؛ ومنذ ذلك الحين سعت إلى التجريب فى العديد من المجالات المختلفة وباستخدام أساليب متنوعة، فهى تكتب عن الحياة الأمريكية المعاصرة التى ترى أنها تتسم بالعنف، وتولى العلاقة بين العنف والحب اهتمامًا خاصًا، كما أن أبطال رواياتها أشخاص يظهرون على أنهم عاديّون ولكنهم لا يفصحون عن مشاعرهم بسهولة ويبدون غير مبالين بمواقف ذات دلالة قد يواجهونها فى حياتهم. ورغم أن عددًا من رواياتها يتسم بالغموض وقوى خارقة ضمن الأحداث إلا أن العنف فيها قد لا يكون مبررًا دراميًا، لأنه عنف مفسّر نراه فى الحياة اليومية الأمريكية .

ومنذ روايتها الأولى عام ١٩٦٤ وحتى عام ١٩٨٧ راكمت «أوتس» بناء أدبيًا يختلط فيه الغموض المرتبط بالقوى الخارقة بملاحظات اجتماعية ثاقبة ، وتزخر أعمالها بعناصر تتطابق مع هذا النوع من القصّ : كالقوى غير المرئية والإغواء وزنا المحارم والعنف والاغتصاب... إلخ، وتصل بها أحيانًا إلى الإفراط فى الحسيّة، وكل ذلك فى تباينات من الأنواع والأزمنة والأماكن. ولكن مجمل أعمالها ليس مجرد عرض محض لتجارب غير معتادة حدثت بعيدًا سواء

فى المكان أو الزمان ، فرواياتها مثل : «خفايا ويندرثورن» و«مشاعر حميمة» مثلا، تتضمن أصداء قوية من الحركة النسائية واستخدام لأداة الغموض للكشف عن التباس النوع والجذور الجنسية للخيال.

إن «أوتس» شاهدة ترصد المشهد الأمريكى عن قرب، وقد شملت رواياتها وقصصها القصيرة قطاعًا عريضًا من ممثلى الخبرة الأمريكية المعاشة، متخطية فى ذلك حدود الطبقة واللون للكشف عن آليات الصدام بين الحلم الأمريكى والأناشيد الوطنية، وبين الصراعات اليومية التى لا تخلو من العنف أحيانًا. ومن المعروف عن «أوتس» أنها تقدم وصفًا مذهلا للدوافع الخفية فى الطبيعة البشرية: ثنائية الجنس - العنف، وشهوة القوة المستبطنة فيهما ؛ وعلى وجه العموم، فإن كوامن القسوة والعنف فى حياة الطبقة العاملة الأمريكية قاسم مشترك فى أعمالها الأدبية .

وفى سؤال لها أثناء مقابلة صحفية عن الجزء الأكثر تشويقًا حين تكتب قصص الأسرار والغموض، وأجابت «أوتس» : إن القصّ فى حد ذاته تجربة ثرية، فأنا أبدأ بموقف وأتخيل الشخصيات كأنها «حقيقية»، وأرى كيف يتفاعلون فيما بينهم ويشكلون أقدارهم بمعنى ما؛ «الشخصية هى القدر» .

نظرة على الأنثى كنوع

نسجت «أوتس» فى هذه المجموعة القصصية مجموعة متماسكة من حكاياتها عن التشويق والعنف،

وتصور القصص التسعة نساء يرتكبن أبشع الجرائم بدافع من العاطفة أوالإحباط أوالتشدد أو حتى السفه ؛ فهى تستبصر بمكر الطبيعة الأنثوية، وتقيم الدليل أن المرأة بطبيعتها قد تكون أشد عنفًا من الرجل، سواء كانت طفلة فى السادسة من عمرها، أو زوجة مخلصة فيما يبدو، أو أمًا مسئولة .

وتدور القصة الأولى فى المجموعة «فليساعدنى الرب» حول امرأة شابة تقع فريسة لمكالمات هاتفية مجهولة، وتتساءل: هل الصوت الغريب الذى يغازلها على الجانب الآخر من الهاتف هو صوت زوجها الغيور وقد غيّر من صوته وهو يهاتفها ويخطط لإيقاعها فى الشرك؟ أم أنه صوت رجل غريب يعرف أكثر مما ينبغى عن حياتها، الخاصة؟ وتضطر فى النهاية لقتل زوجها رجل الشرطة نتيجة الخوف الذى يعتريها بالإضافة إلى إحساسها الدفين أنه دمّر حياتها ولم يمنحها أى فرصة حقيقية لإثبات ذاتها وكينونتها كامرأة وكأنثى .

ويتسنى لنا فى القصة التالية، «الناعقة»، معرفة أن الأنثى كنوع قد تكون أكثر فتكًا من التجليات الذكورية دونما قصد حقيقى، حيث تتملك الطفلة البريئة فى السادسة من عمرها رغبة لجذب انتباه أبويها اللاهيين عنها، فتحمل أخاها الرضيع وتصعد به أعلى وأخطر نقطة فى المنزل لتلفت انتباه أبيها الذى تتوقع حضوره، وكذلك أمها التى تنشغل عنها بالحفلة .

ومن القصص التى يقشعر لها البدن قصة «دول: رومانسية المسيسبى» (أو الدمية فى معناها باللغة العربية)، وتحكى عن فتاة فى الحادية عشرة من عمرها ، طفلة عاهرة وماكرة وعرضة «لحالات مزاجية منحرفة». وكما تقول «أوتس» فى السطور الافتتاحية للقصة : «ما حدث بين «آيرا إيرلى» وابنة زوجته (ابنته) «دول» سر بينهما منذ وقت طويل، ولكن ما حدث لعدد من الرجال نتيجة لهذا السر معروف وأكثر شيوعًا». وقد غاصت «أوتس» فى نفسية كل من «دول» ووالدها «آيرا إيرلى» لتكشف عن العلاقة التى تتسم بالجنون والسوداوية بينهما وعناصر ما يقربهما وما يباعدهما؛ واللافت للنظر فى هذه القصة اختيارها للأسماء كأنها رمز لعبثية ما يفعله الأب وابنته.

وفى قصة «مهرجة شارع ماديسون»، تصوّر «أوتس» امرأة تعيسة انصبّ هوسها على الموضة، وتكتشف ذات يوم بابًا سريًا فى أحد بيوت الأزياء المفضلة، وأصرت على أن يسمح لها بالدخول، ولكن خيالها المحموم لم يستطع أن يتوقع ما أخفوه عنها من رعب وفزع حقيقيين .

وتركز قصة «الأشباح» على الهلاوس المفزعة لطفلة قيل إن أمها أحرقت أباها حيًا، وتتخيل أرانب حبيسة فى أقفاص تتوسل إليها لتنقذها؛ ويختلط الأمر على القارئ فلا يعرف من الذى يحتاج للإنقاذ

حقا، إذ من الواضح أن الأرانب تجلٍّ لهلاوس داخلية لدى الطفلة، تتداخل فيها علاقتها بأفراد أسرتها: أبوها المقتول حرقًا وأمها التى لم تتهم بشىء، وأخوها الذى يؤذيها ولكنها تلتمس له الأعذار دائمًا

ويبدو فى قصة «جوع» أن العنف أقل مما سعت إليه «أوتس»، فهى تحكى قصة امرأة تعانى من جوع عاطفى، حيث تقضى «كريستين» إجازة على شاطئ الأطلنطى وتصحب معها ابنتها الصغيرة، وتلتقى هناك بشاب غريب على الشاطئ يدعى «جان كلود» وتعتقد أنه يجسّد أحلامها التى كانت تظن أنها موءودة، ويبدأ بالظهور فى الحفلات واللقاءات الاجتماعية التى تكون هى فيها باعتبار أنه «صديق» لكثيرين من سكان ورواد الشاطئ، ويسعى وراء «كريستين» فى محاولة لامتلاكها؛ ولكن سياق العلاقة كان له أصداء غير متوقعة لها، وحتى تصل إلى اللحظة الفاصلة ، يقول لسان حالها: «فليساعدنى الرب لأضع الأمور فى نصابها الصحيح».

أما قصة «قولى إنك قد صفحت عنى» مجموع علاقات متشابكة تدور فى فلك علاقة أم بابنتها، أم تشكل وجدانها فى ظل أب يبدو مستهترًا وأم صارمة، وتأثير هذه النشأة المضطربة على حياتها بأكملها منذ بلوغها وزواجها وحتى وفاتها المنتظرة، إضافة إلى ما انطبع فى نفس ابنتها هى شخصيًا عنها .

أما «ملاك الحنق» فهو رجل، وربما كانت هذه هى القصة الوحيدة فى المجموعة كلها التى يكون فيها الفاعل الرئيسى رجل، ولكننا نكتشف مع تتابع الأحداث أن هناك فاعلا رئيسيًا آخر موازيًا له، وهو امرأة بالطبع، تتسلل إلى حياة ذلك الرجل وإلينا بالتبعية ، لتشكّل أحداث القصة بأكملها وليس حياة الرجل وحسب، والتى نكتشف فى النهاية أن هناك قهرًا وظلمًا قد وقع عليها، وتجلّى الشر الكامن فى الأنثى للاستفادة من المعطيات الموجودة فى محيطها لتنتقم، وتقتل .

وتعد قصة «ملاك الرحمة» أكثر قصص هذه المجموعة سوداوية، حيث تلقى حياة ممرضة مضطربة ماتت منذ زمن بعيد بظلالها على حياة ممرضة أخرى تعمل فى نفس القسم، الذى كانت فيه فى ذلك الدور من المستشفى الذى أطلقوا عليه اسم «مدينة الهلاك»، وتجرى أحداثها على نحو يوحى بأن فى الأمر مناقشة داخلية لفكرة الموت الرحيم، وهل يعدّ قتل إنسان ليس له من الحياة إلا الوظائف العضوية جريمة أم أنها مواجهة مع الإله (الذى أشارت إليه هى بـ G-D) .

وهكذا سنرى أن فى هذه القصص من التنوع ما يجعل القارئ حريصًا على إتمامها، وبينما تبدو شخصيات «أوتس» دائمًا غير قادرة على ارتكاب أعمال وحشية، فما تخلقه من تشويق فى مجرى الأحداث يوصلنا من الأسباب إلى النتائج، وتحمل

أغلب القـصص لحظة من الكشف يعـرف عندها القارئ، والشخصية على حد سواء، إلى أين ستسير بقية الأحداث، ولكن من حيث لا يتوقع أىّ منهما! وسيجد القارئ أن قراءة هذه القصص شبيه بقيادة سيارة لا مكابح فيها ولا تعرف ما الذى يمكن أن يوقفك .

ويجدر بالذكر هنا أن قصص التشويق عمومًا تشبه المخدر شديد التأثير: فأنت تقرأ صفحة واحدة منها ويتولد لديك بعدها ذلك الشعور الجارف الذى يمنعك عن التوقف حتى تصل إلى نهاية القصة، على الأقل فى هذه المجموعة، خاصة عندما تنظر إلى شخصيات هذه المجموعة الثرية بتقلباتها النفسية ودوافعها المتباينة فى كيفية التصرف حيال المواقف التى تفاجئها؛ وفى الوقت ذاته تشعر بأن هذه القصص قد أخذتك رهينة ، ومن الصعب أن تترك واحدة من بطلات هذه القصص دون الرغبة فى أن تتابع لتكتشف النهاية المفزعة التى تنتظرها أو التى ستسببها لآخرين حولها .

ختام

مجمل القول إننا فى هذه المجموعة القصصية نجد تجليات للأنثى تخلقها الظروف المحيطة لشخصيات نسائية عادية، ولسنا - بالطبع - بصدد إجراء دراسة نقدية لهذه المجموعة فالأمر فيها متروك للمتخصصين فى دراسات النقد الأدبى، لكننا

إذا أردنا أن نرصد الخيط، الذى يجمع هذه القصص التسع فسنرى أنه يتلخص فى كلمة «المغامرة»، أو بمعنى أصح الانسياق وراء مغامرة قد تكون غير محسوبة، وفى أحيان أخرى مغامرة محسوبة بدقة متناهية، ذلك الانسياق الذى يتضح ما وراءه من عذابات ومواقف مرّت فى حياة الفاعل الرئيسى، الذى تدور حوله أحداث القصة : مغامرة المكالمات المجهولة، ومغامرة الأماكن التى لا يرتادها إلا الكبار، ومغامرة القتل بطريقة مبتكرة وشريرة، ومغامرة الانخراط فى علاقة عاطفية مثيرة، إلى آخر خيط المغامرات، التى حفلت بها مجموعة القصص .

جدير بالذكر أيضًا أن هذه المجموعة القصصية تزخر بالحوارات الداخلية لأبطال القصص، وأحيانًا ما كانت تلك الحوارات تتداخل مع سياق القصة بحيث قد يتشتت القارئ ولا يعلم من المتحدث، ولكن الكاتبة (وهذا ما حافظنا عليه كمترجمين) كانت تكتبها بخط مائل بحيث يتمكن القارئ من متابعة السياق.

ونحن إذ بذلنا من الوقت والجهد ما يليق بهذه السلسلة المتميزة، نرجو أن يلاقى هذا الجهد رضا القارئ الكريم، وأن تكون هذه المجموعة جديرة بأن

تكون إضافة للأعمال الإبداعية المترجمة عن اللغات الأجنبية .

وبالله التوفيق

المترجمان

أمنية عامر

محمد عبد السلام حسن

الأشباح

لا شىء هناك! أنت لا تسمعين شيئًا، وما تسمعين هو صوت الرياح. إنك تحلمين، وأنت تعرفين كيف تكون أحلامك. عودى إلى النوم حتى أحبك. توقفى من البكاء. اتركينى. أستحلفك بالرب يسوع أن تدعينى أنام. لست أمك فقط ولكنى إنسان أيضًا. لا تجعلينى أكرهك.

جئنا إلى هذا المكان الجديد حيث لا يعرفنا أحد كما تقول أمى فى الليل، يوقظنا صراخ الأرانب فى هذا المكان الجديد، وأجد سريرى يرتطم فى حائط أسمع من خلاله صراخ الأرانب وهى حبيسة أقفاصها فى القبو وتتوسل أن تتحرر من ذلك الحبس؛ وفى الليل نسمع صوت الرياح. يقع هذا المكان الجديد على حافة نهر تقول أمى إن اسمه هندى: كايا -

هوجا(*). وفى الليل، نسمع صوت أمى هامسا وضاحكا، كأنها تتحدث فى الهاتف، كأنها تتحدث وتضحك مع نفسها، أو أنها تغنى.

يقول «كالفن» إنه قد لا يكون صوت أمى، وأنه قد يكون صوت شبح يسكن المنزل الذى انتقلنا إليه، «فأمى الآن أرملة!».

أسأل «كالفن» : «هل هو أبى يريد أن يعود إلينا؟».

وينظر إلى «كالفن» كأنه على وشك أن يلطمنى، لأنى أقول قولا غبيًا بعيد عن الواقع كما أفعل دائمًا، ثم يضحك بعدها «لن يعود أبى أيتها الغبية، أبى ميت».

أبى ميت، أبى ميت، أبى ميت

أبى مات، مات أبى

إذا كررتها عدة مرات وقلتها بسرعة فسأبدأ بالقهقهة، قام «كالفن» بذلك .

قالت لنا أمى إننا جئنا إلى هذا المكان الجديد الذى يبعد ألف ميل عن المكان القديم لنبدأ حياة جديدة، والتحقت فعليًا بوظيفة فى مجال المبيعات كما تقول، ليست وظيفة مرموقة لكنها مؤقتة، وكان عليها أن تعمل ليلا أحيانًا معتمدة على «كالفن» ليرعانى، فهو فى العاشرة من عمره، وعاقل بما

(*) Cuyahoga نهر يقع شمال شرق ولاية «أوهايو»، ويبلغ طوله حوالى ١٦٠ كيلو مترًا (المترجمان)

يكفى لرعاية أخته الصغيرة بعد أن مات أبى، وهذا ما قالته أمى .

لا نتحدث أنا و «كالفن» عن أبى أبدًا بعد أن مات، ولا نذكره البتة إذا كان هناك احتمال أن تسمعنا أمى.

فى البدء كنت قلقة وأتساءل: «كيف سيعرف أبى مكاننا إذا أراد أن يعود إلينا؟».

يحرك «كالفن» قبضته فى حركة تشبه حركة طاحونة الهواء كأنه يهمّ أن يضربنى: «لقد قلت لك مرارًا وتكرارًا أن - أبى - مات» .

وقالت أمى إن «راندى مالفرن» اختار المكان، الذى ذهب إليه بمحض إرادته، وأنه ذهب ليقيم مع أقاربه الأشرار، وسألتها عن ذلك المكان، وأجابتنى بسخرية: «ذهب إلى الجحيم ليكون مع أقاربه الأشرار» .

فيما عدا الأرانب التى فى القبو، فلا أحد يعرفنى هنا .

تلك الأرانب حبيسة فى أقفاصها القديمة الصدئة والقبيحة، وقد أمرتنا أمى ألا نذهب إليه لأنه لاشىء فيه، وأن نبتعد عن ذلك المكان القذر. ولكن عندما يحل الليل أسمع صراخ الأرانب من خلال الحائط، حيث يبدأ الأنين والنشيج فى القبو كصوت هديل الحمام واضطرابه، ويظل ذلك الصوت يعلو، وحتى إذا وضعت وسادتى فوق رأسى، يظل الصوت واضحا فى

أذنى . هناك سبب ما لسماعى تلك الأصوات، وقلبى يخفق بقوة ويؤلم صدرى . تناشدنى الأرانب وهى حبيسة فى أقفاصها : «ساعدينا! أخرجينا من هنا! لا نريد أن نموت» .

تمشط لى أمى شعرى فى الصباح قبل أن أذهب إلى المدرسة وتضحك وتقبل أرنبة أنفى. وفى الصباح توجد أمى التى تحبنى، ولكنى عندما أسألها عن الأرانب التى فى القبو أرى وجهها يتغيّر .

تقول أمى إنها قالت لى إن القبو ليس فيه شىء ولا أرانب فيه، «ألم يحدث أنى أريتك إياه؟» .

حاولت أن أخبر أمى أن الأرانب حقيقية، وأنى أسمعهم من خلال الحائط فى الليل، ولكن أمى كانت تستشيط غضبًا وهى تمشط شعرى؛ غالبًا ما كانت توجد تشابكات فى شعرى المموج وخاصة خلف عنقى، وتضطر أمى أن تستخدم المشط المعدنى الذى يجعلنى أصرخ من الألم ، وتقول : «لا. يا» مارى بث «إنه مجرد حلم سخيف ، وأنا أحذر كليكما : لا مزيد من الأحلام» .

الآن وقد رحل أبى ، ما زلنا نتعلم أن نحذر من غضب أمى .

كان أبى هو من نبحث عنه دائمًا، كان يعود إلى البيت فى شاحنته ويطفئ محركها، ويدخل إلى المنزل ويغلق بابه بعنف، وبعد دخوله قد يرفع كلينا إلى مستوى قريب من السقف بذراعيه القويتين، ولم

يكن ذلك أمرًا غير عادى؛ لأن أبى كان يضحك ويدغدغنا بشاربه ويحضر لنا الهدايا ويأخذنا فى شاحنته ويقودها بسرعة جنونية على سبيل المرح، وهو يدير موسيقى صاخبة تخترقنا ونتحرك معها كأننا أسمال بالية؛ ولكنه كان يرحل فى أوقات أخرى لعدة أيام، وعندما يعود كانت أمى تحاول منعه من رؤيتنا، وكان يمسك بشعرها قائلا: «ماذا؟ تبًا لك، لم تنظرين إلىَّ هكذا؟ هؤلاء الأطفال أولادى وملكى»، ويضرب المقعد بقدمه ويركله وهو يسب ويلعن، ولو تحركت أمى لتعيد المقعد إلى مكانه كان يدفعها بعنف، وإن سمع رنين الهاتف فإنه يجذب السلك بقوة من المقبس. كانت عيون أبى فى تلك الأوقات بلا تعبير، وفى بياضها عروق دموية كشبكة العنكبوت، وكانت أصابعه تجتمع فى قبضته، وكانت قبضة يديه تلكم الهواء كأنه لا يستطيع التحكم فيها، كان حظ «كالفن» عاثرًا، فما أن كان أبى يراه يتراجع بعيدًا أو يحاول الاختباء، فقد كان يصرخ فى وجهه قائلا: «أيها المزعج الصغير! ماذا تظن نفسك فاعلا أيها اللعين؟ هل تريد أن تخدع أباك؟» وتسارع أمى لحمايتنا ثم تخفينا عنه .

أما الآن بعد رحيل أبى، فإن أمى عندما تغضب ترى عينيها كعيون القطط عندما تتأهب للهجوم، وتلتوى أصابعها كأنها قبضة مستعدة للّكم .

«تعرفين أنى أريد أن أحبك يا صغيرتى الحبيبة، انت وأخيك، لكنك تجعلين الأمر صعبًا ...».

قـالت أمى إن منزلنا «بسـيط»، ويقع فى نهـاية مجموعة من المنازل البسيطة، يراها الناظر إليـها كـأنها من الطوب ولكنك عندما تدقق النظر ترى أن جوانبها مطلية بالقار، الذى يبدو من بعيد كأنه مبنى من طوب ، طوب أحمر سخيف معرّق بخطوط طولية كأنها دموع .

أمى تقول إننا نعيش الآن فى مدينة كبيرة تبعد كثيرًا عن المدينة التى كنا نعيش فيها، ولن يتبعنا أحد إلى هنا، ولن يعرفنا أحد هنا .

تقول أمى :

«لا تتحدثوا مع الجيران أبدا».

«لا تتحدثوا مع أحد فى المدرسة ، ولا تقولوا أكثر مما ينبغى عليكم قوله».

تقول لنا أمى ما تقول وهى تبتسم لنا ابتسامة عريضة .

وتلمع عيونها، مما يعنى أنها سعيدة جدًا .

لم يثبت شىء على الإطلاق يدين أمى .

تقول أمى : «أتعرفون لماذا ؟ لأنه لا يوجد شىء ليتم إثباته».

عندما قاد أبى شاحنته للمرة الأخيرة ، رأينا من نافذة المنزل الأمامية ضوء إشارة السيارة الخلفية الحمراء تختفى فى الظلام، كان من المفترض أننا نائمان ولكن لم نكن نستطيع النوم من تلك الأصوات

التى نسمعها عبر أرضية الغرفة الخشبية وتبقينا متيقظين .

وبعدها بفترة، أسرعت أمى لتركب سيارة كانت تنتظرها فى الخارج، وكان من الواضح أن من كان فى تلك السيارة كان قد أتى ليأخذها معه؛ لم نعرف من كان وما من سبيل لأن نعرف. وقاد الرجل السيارة بعيدًا ومعه أمى ، وفيما بعد كان علىّ أن أعتقد أننى كنت أحلم لأن أمى قالت إنها لم تغادر المنزل ولا حتى لخمس دقائق، وأقسمت إنها لم تفعل . وحين سألونى هززت رأسى وأغلقت عينى إشارة إلى أننى لا أعرف، وأخبرهم «كالفن» أن أمى كانت معنا طوال الليل، وقال إنها كانت نائمة معنا وهى تحتضننا .

كنت فى الخامسة من عمرى حينذاك وبكيت كثيرًا، وأنا الآن فى السادسة والتحقت بالصف الأول و«كالفن» فى الصف الرابع، وقد تأخر لمدة عام بسبب حالة عجز القدرة عن التعلم. أمى تقول إن هذا هراء لأن «كالفن» هو الأذكى فينا جميعًا وأنه يتظاهر بهذه الحالة، ثم تضحك وتداعب «كالفن» فهو المفضل عندها، و «كالفن» لا يشعر بالضيق لأنه تأخر عامًا عن الدراسة، وهو فى المدرسة الجديدة أكبر من أقرانه، ومن الأفضل ألا يتحرش به أحد.

كان «كالفن» يجيب بنفس الردّ، وهو أن أمى كانت تحتضننا طوال تلك الليلة، وذلك لأى شخص يأتى ليستجوبنا أنا وهو، سواء كانت أخصائية الخدمة

الاجتماعية التى كانت تحضر لنا معها «بسكويت الشوفان» الذى أعدّته بنفسها، أو ذلك الرجل من مكتب المأمور الذى كان ينادينا «كالفن» و «مارى بث» كخدعة لنعتقد أنه يعرفنا .

ممنوع علينا أنا و «كالفن» الاقتراب من القبو.

تقول أمى إنه خالٍ ليس به شىء، ولا أرانب: «أستحلفكما بالرب أن يتوقف كلاكما عن هذا ، لا يوجد أرانب فى القبو».

ورغم ذلك، فلا تزال الأقفاص فى القبو، وبعضها ملقى فى فناء المنزل الخلفى تخفيه الأعشاب جزئيًا، لكن القبو به كثير من أقفاص الأرانب كما يطلق عليها «كالفن». وقامت أمى بعدد من المكالمات الهاتفية بشأن الأقفاص الموجودة فى القبو والرائحة التى تنبعث منه وحوائطه التى تقطر رواسب عضوية لزجة عندما تمطر وسقفه، الذى تعفّن وتتسرّب منه المياه، وتبدأ أمى بالصراخ فى الهاتف، لكن الرجل لم يأت بعد لعمل ما يلزم .

ليتنى لم أفكر فى القبو كثيرًا ، فحين تصرخ الأرانب فى الليل طلبًا للمساعدة للتحرر من الأقفاص، فذلك لأنهم وقعوا فى شرك الأقفاص وكأنهم يعرفون أننى أسمعهم، وأننى الوحيدة التى تسمعهم: «ساعدينا! ساعدينا ، لا نريد أن نموت!».

لم يكن هناك قبو فى منزلنا القديم المقام على قاعدة من البلاط المسلح، ثم انتقل أبى إلى بيت

متنقّل كما كان يسمّيه، وكان قائمًا على عجلات فقط، أما فى منزلنا الحال، فالقبو يشبه مربعًا كبيرًا محفورًا فى الأرض. فى المرة الأولى التى خرجت فيها أمى من المنزل، كنت أنا وأخى وحدنا، ونزلنا إلى القبو ونحن نضحك ضحكات مكبوتة وكنا فى حالة من الخوف الشديد، وأضاء «كالفن» مصباح السقف الذى كان مصدر الضوء الوحيد، وكانت درجات السلم خشبية وغير محكمة التثبيت، وكان فى القبو أيضًا مواسير وفرن ورائحة زيت، وفى ركن من القبو رأينا أقفاص الأرانب، وكانت أقفاصًا حديدية صدئة قبيحة الشكل مكوّمة على بعضها وتكاد تصل إلى السقف، واستطعنا أن نعدّ ثمانية منها، كانت رائحة القبو كريهة خاصة رائحة الأقفاص، وكان هناك قطع من الفرو الرمادى الناعم ملتصقة بالأسلاك واضحة للعيان، وتناثرت على الأرضية الخرسانية حبات سوداء جافة قال لى «كالفن» إنها فضلات الأرانب، كما كان هناك بقع داكنة لزجة وبضع لطخات كان «كالفن» يغيظنى ويقول إنها آثار دماء .

كانت الرائحة هنا لأشياء قديمة بالية، وآثار رواسب المواد العضوية تنسال من خلال الحوائط بعد هطول شديد للأمطار. قال لى «كالفن» إن أمى قد تقتلنا لو عرفت أننا نزلنا إلى القبو، ووبخنى حين حاولت أن أدخل يدى إلى أحد الأقفاص حيث كان بابه مفتوحًا، وقال : «ماذا تفعلين؟! لو جرحت نفسك

هنا وأصبت بالتيتانوس ، فستجعلنى أمى أعيش فى جحيم» .

وسألت «كالفن» عن معنى هذا التيتانوس .

وبصوت ساخر، كأنه صبى عبقرى لأنه فى الصف الرابع وأنا فى الصف الأول ، قال «كالفن» : «إنه يعنى الموت» .

كنت خائفة أن يرى «كالفن» الخدش، الذى أصاب ذراعى من باب القفص، لكنه لم يكن جرحًا غائرًا بل أقرب إلى خدش القطة، وكان ينزف نزفًا خفيفًا . سأقول لأمى إن هذا الخدش من الباب الحاجز .

يا لك من أخ يا «كالفن»! .

ورأيت شيئًا ما يتحرك فى أحد الأقفاص البعيدة فى الركن، واستطعت أن أرى شكل كائن صغير له فرو، ورأيت عينيه اللامعتين، وقبضت على ذراع «كالفن» ولكنه دفع بذراعى بعيدًا .

صدر عن «كالفن» صوت قبيح التقطه من أبى عندما كان يقول «هراء» التى كان يقولها وهو فاغر فاه كأنه يتثاءب .

أخبرت «كالفن» أنه يمكن رؤية أرنب هناك، اعتقدت أنه أرنب، وأن هناك أرانب أخرى فى أقفاصها، «انظر!» .

لكن «كالفن» لم ينظر، وقال إننى فتاة بلهاء مغفلة، وجذبنى من يدى لأعود إلى جهة السلم.

إن «كالفن» ينعتنى بأسوأ الصفات فى كثير من الأوقات، صفات بغيضة تتوافق مع سجع اسمى «مارى بث» ليجعلنى أبكى ، وهى كلمات لا أعرف معناها ولكنى أعرف أنها كانت تعنى إهانتى، مثل الكلمات التى كان أبى يطلقها على أمى فى الأيام الأخيرة، التى كان لا يزال فيها معنا .

إنه يقول لى : «إذا اكتشفت أمى أننا نزلنا إلى القبو فسأكسر عظمة عصعصك؛ وإن هى عاقبتنى فسوف يرتد العقاب إليك أيتها الحثالة» .

جعلنى «كالفن» أبكى، ولكنى أعرف أنه لا يقصد أن يبكينى .

إن «كالفن» أخى ويحبنى، ويظل قريبًا منى حين نكون فى المدرسة؛ حيث لا نعرف أحدًا وينظر إلينا الناس هناك نظرات غريبة ؛ إنها مجرد كلمات تتطاير من فمه أحيانًا كالدبابير اللاذعة ، كما كان الأمر مع أبى وقبضته .

إنه لا يقصد الإهانة ، لكنها تحدث وحسب .

الآن وقد ذهب أبى ، تعزف أمى موسيقاه القديمة.

لطالما كرهت أمى الموسيقى التى كانت أبى يحبها! كان أغلب إسطواناته موسيقى «روكا بيلى» و«الهيفى ميتال» كما كان «كالفن» يسمّيها ، وكانت تلك الموسيقى تشبه أحذية مدعمة بالحديد فى مقدّمتها تركل بها بابًا لا يتزحزح، موسيقى رخيصة ومزعجة كالرعد.

الآن وقد ذهب أبى، تحضر أمى إلى المنزل زجاجات كالتى اعتاد أبى أن يأتى بها، وكانت الزجاجات تحمل علامة خنزير برّى ذى أنياب وعيون محدقة، يقول «كالفن» إن هناك خنزيرًا حقيقيًا يعيش فى مستنقع يبعد بضعة أميال عن منزلنا، وأن غذاءه المفضل هو البنات الصغيرات اللائى يأكلهن أحياء وهن يحاولن المقاومة

لم يكن «كالفن» يخيفنى، لكنه كان يغيظنى فقط .

الآن وقد ذهب أبى ولن يعود أبدًا، أخذت أمى جيتاره القديم الذى لم يكن باستطاعة أحد منا لمسه أبدًا، وكانت تحرّك الأوتار وتحاول عزف نغمات كما كان يفعل أبى، إلا أن أصابعها لم تكن قوية مثل أصابعه، لكن أمى كانت سعيدة بما تفعل، إذ تحتسى شرابًا من زجاجة الخنزير البرى وتغنى أغنية : «على ضفاف نهر أوهايو» هناك حيث «تقف ماجى الصغيرة وفى يدها حقيبة»، تقول أمى إن هذا الهراء يتغلغل فى الدماء وأنه جميل. وانقطع أحد أوتار جيتار أبى ولكن أمى لم تعير ذلك اهتمامًا. كنا أنا و«كالفن» مفتونين بسماع أمى، فلها طريقة متميزة فى الغناء، مثل الأصوات التى تسمعها فى المذياع وتجد نفسك مأخوذًا بها؛ وكما تقول أمى: «تتغلغل فى دمك» .

فى بعض الليالى تجلس أمى فى المطبخ وهى تحمل الجيتار فوق رجليها، وتعزف عليه بقوة وسرعة، وتحرك رأسها هنا وهناك فيتحرك معه شعرها الطويل، الذى يصل إلى خصرها (شعرها فى لون البنجر، ويلمع) ؛ إن أمى جميلة! تغنى أغنيات لا تحفظ بعض كلماتها وتكمل هى ما لا تذكره : «هناك تقف «ماجى» الصغيرة، ثمانى وثلاثون فى يدها، ماجى الصغيرة خلقت للحب ، ولتخدع رجلا آخر...».

سألت «كالفن» عن معنى ثمانى وثلاثين وقال لى أنها : «ثمانى وثلاثون ضربة على رأسك ... بوم بوم!».

قالت لى سيدة تقطن فى المنزل البسيط المجاور إن أمى تبدو بصحة جيدة هذه الأيام، وأن هناك تحسنًا ملحوظًا فى وجهها وأن شعرها ازداد طولا كشعر فتاة جميلة، وطلبت منى ألا أخبر أمى بما قالت، حتى لا تعتقد أنها تقحم نفسها فيما لا يعنيها.

لذا لم أخبر أمى، وأنا لا أخبرها بأى شىء قد يسبب لها ضيقًا .

«مارى بث؟ إذا كان لديك أى سرّ تودّين ائتمانى عليه...».

تنغلق عيونى رغمًا عنى فى المدرسة، كأن شعاعًا من الضوء المبهر يخرج من رأسى ثم ينطفئ، ويقع رأسى فوق ذراعى على سطح المكتب وأسمع سيدة تسأل إذا ما كنت أعانى من أى شىء، تكون هى المدرّسة منحنية علىّ لترى ما أصابنى.

لا أتذكر اسم تلك السيدة، أتذكر فقط أن رائحتها تشبه رائحة بقايا طباشير السبورة، وليست مثل رائحة أمى الجميلة النفاذة التى أشمّها الآن حين تستعد للخروج .

« ... يمكنك أن تقولى لى يا عزيزتى إذا كان هناك شىء ما ليس على ما يرام فى المنزل...» .

أغلق عينى وأفركهما كأن دخانًا من خشب محترق يخترق عينىّ ، وأشعر فيهما بحرقان ووخز، أشعر أنى أتجمد كالأرنب المذعور .

« ... ليس على ما يرام فى المنزل ؟ أنت يا «مارى بث فى كل صباح فى الفصل...» .

عندما ذهب أبى وقيل لنا إنه لن يعود أبدًا، رأينا فى عيون الناس كلمات حيرى لا يعرفون بأية طريقة يقولونها، لا يمكنهم استجماع شجاعتهم ليقولوا «توفى أبوكم»، ولم تملك مدرّستى القدرة لتقول إننى أبدو كالشبح كل صباح، لأنه ذلك ليس قولاً مناسبًا يوجّه لطفلة صغيرة ذهب أبوها إلى الجحيم ليستقر مع أقاربه الأشرار .

« ... تبدو عيناك جوفاء يا عزيزتى، ألم تنامى جيدًا أثناء الليل ؟».

وأهز رأسى كما يفعل «كالفن»، وتتساقط الدموع من عينى رغم أننى لا أبكى .

وفيما يسمونه عيادة المدرسة، تخلع ممرضة المدرسة حذائى وجوربى المهترئ وتغطينى ببطانية

حتى أستطيع النوم. أشعر ببرد شديد وأرتجف وتصطك أسنانى، وأحاول باستماتة أن أظل يقظة كأحد الأرانب وهو محبوس فى قفصه يعرف أن عليه أن يبقى يقظًا، ولكن فجأة يصبح كل شىء مظلمًا وساكنًا، مثل القبو عندما ينطفئ المصباح الكهربائى الوحيد فيه، وبعد برهة تأتى سيدة أخرى إلى العيادة، واسمع صوتها وصوت الممرضة كأنهما يتشاجران من خلف الستارة الخفيفة، التى تحيط بالفراش الذى أنام عليه، وتقول إحداهما: «هذا ليس مكانًا ملائمًا لنوم طفلة، ليس فى المدرسة، إنها تفوّت حصصها الدراسية...» .

كان الصوت الآخر هو صوت الممرضة التى قالت بصوت خفيض كأنه سر بينهما : «إنها طفلة «مالفرن»، وأنت تعرفين».

«أهذه هى ! تلك التى ...».

«لا بد أنها هى ، لقد رأيت الاسم».

«مالفرن»؟ يا إلهى . إن الولد «كالفن» فى الفصل الرابع، وهو متململ ومشتت وينام أيضًا».

«أتعتقدين أنهما يعرفان؟ أعنى، أيعرفان كيف مات أبوهما ؟».

«فليساعدنا الرب . أتمنى ألا يكونا على علم بذلك» .

قيل عن أمى أشياء مريعة، مثل أن رجال الشرطة قبضوا عليها، ولم يكن ذلك صحيحًا فلم يحدث أن

اعتقلت أمى. أما «كالفن» فقد كان يضرب ويركل الأولاد الذين قالوا ذلك ساخرين منّا، فما حدث أن أمى كانت مطلوبة للاستجواب وانتهى الأمر ولم يتم احتجازها، لأنه لم يكن هناك أى دليل لإدانتها.

أثناء ذلك الوقت عندما غابت أمى يومًا وجزءًا من نهار، أقمنا مع الخالة «إستل» الأخت الكبرى غير الشقيقة لأمى، وأمى تتحدث عنها بفم معوج ولسان لاذع. لم يكن علينا أن نذهب إلى المدرسة، وأخبرتنا ألا نلعب مع الأطفال الآخرينْ وألا نتجول حول المنزل، وشاهدنا أفلام الفيديو وليس التلفاز، حيث كان يفتح فقط بعد ذهابنا للنوم، ولم يكن الكلام مباحًا عن أبى فى ذلك المنزل، ولم يكن من المسموح ذكر اسم «مالفرن». علمنا بعد فترة أن جنازة قد شيّعت، وعُزلنا أنا و «كالفن» بعيدًا، وكانت الخالة «إستل» تشعل السجائر وتتحدث فى الهاتف كثيرًا، وتقول لنا إن أمى ستعود قريبًا، وأننا سنعود إلى منزلنا قريبًا، وهذا ما حدث فعلا.

احتضنت الخالة «إستل» بشدة عندما غادرنا منزلها، ولكن أمى تشاجرت معها بعد فترة، وعندما غادرت أمى بنا بعيدًا بحوالى ألف ميل بالشاحنة ذات المقطورة لم تودع الخالة «إستل» ونعتتها أنها «ساقطة».

عندما عادت أمى من الاستجواب، حسب ما سمعت، كان وجهها مرهقًا ومتورمًا وعيناها متعبتين،

ولكنهـا فى هذا المكان الجـديد عـادت شـابة مـرة أخرى. لم يحدث ذلك فى ليلة وضحاها، لكنه حدث، فقد تغير لون شعرها وازداد طولا ولمعـانًا ليتدلى متلألئًا فوق كتفيها. كانت لأمى طريقة فى إبعاد شعرها عن عينها بدفع رأسها إلى الخلف بحركة رشيقة، تشبه حركة غريق يندفع إلى سطح الماء فجأة ؛ آه ـ آه ـ آه ، أمى تملأ رئتيها بالهواء .

ترسم أمى بإتقان شفتيها الشاحبتين بقلم خاص له لون الكرز الأحمر ، وترسم على عينيها خطوطا سوداء لم نرها قبلا .

لقد أصبح الجيتار الآن خاصتها بعد أن قامت بإصلاح الوتر المقطوع وكانت تعزف عليه، وكانت تقول: «لقد كان اختياره هو، وحين يذهب أحد من أقاربه ليسكن معهم فسيبتهج أهل الجحيم بهم!» .

تركت أمى وظيفتها فى محل بيع الأحذية المخفضة عندما حلّ موسم عيد الميلاد، وتعمل الآن فى مقهى على النهر، وفى معظم الليالى تعمل نادلة تقدم المشروبات، لكنها فى ليال أخرى تعزف الجيتار وتغنى. وجه أمى الآن مشرق وازداد تألقًا بالماكياج الذى أصبحت تضعه وشعرها لامع، ومن الصعب ملاحظة التجاعيد الموجودة على جلدها، ولا يمكن أن تراها فى أضواء المقهى الخافتة، وأصبحت أصابعها أكثر تمرسًا فى العزف، وأظافرها قصيرة ومطلية، وصوتها منخفضًا ورخيمًا وبه بحّة تبعث فيك

الرجفة. وفى المقهى يدفع لها الرجال المال، الذى تقبله أحيانًا وتقول بهدوء «شكرًا، سأقبل هذا المال كهدية عن عزفى، ومن أجل أولادى الأيتام، فأنا أم أرملة وأعول طفلين صغيرين، لكنى لن أقبل هذا المال إن كنت تتوقع منى أكثر من عزف الموسيقى وامتنانى».

وفى مقهى «ريفرز إيدج» أطلقت أمى على نفسها «ماجى الصغيرة»، ومع الوقت أصبحت «ماجى الصغيرة» معروفة ولها معجبون، وكانت تحكى لنا عن التصفيق بفرحة فتاة صغيرة. تأخذ «ماجى الصغيرة» جيتارها، الذى أصبح لامعًا كثمرة الكستناء بعد كسر قشرتها الخارجية، وتداعب الأوتار بأصابعها وتترك شعرها الأحمر الطويل بلون البنجر ينسدل على كتفيها، وعندما تبدأ الغناء يسود الصمت فى المقهى كما تقول أمى.

يزداد صراخ الأرانب فى الشتاء ويصبح أكثر توسلا وإثارة للشفقة، و«كالفن» يسمعهم أيضًا لكنه يتظاهر بغير ذلك. أضغط على الوسادة فوق رأسى لأنى لا أريد أن أسمعها وهى تقول «لا نريد أن نموت، لا نريد أن نموت». وفى ليلة من الليالى، عندما ذهبت أمى إلى المقهى، انسللت من فراشى حافية القدمين ونزلت إلى القبو الذى تنبعث منه رائحة عفنة وكريهة ويملؤه ذلك البؤس الحيوانى، وفى الضوء الخافت للمصباح الوحيد فى سقف القبو، كانت هناك الأرانب!

أرانب فى كل قفص! بعضهم كبر حجمه على نحو مبالغ فيه وضاقت بها الأقفاص، وبرزت أجزاؤها الخلفية من فتحات القفص وانثنت آذانها إلى الوراء ملتصقة برءوسها، ولمعت عيونها بالتوجس والأمل عندما رأتنى ، وانتابنى شعور بالغثيان، فكل قفص به أرنب محبوس فيه، وبدا أن هذا منطقى كما سأكتشف فيما سيأتى من حياتى: فى كل قفص أسير. فلماذا يصنع البالغون الذين يملكون العالم الأقفاص، التى لا تستعمل؟ وسألت الأرانب عمن حبسها فى هذه الأقفاص؟ لكن الأرانب لم تفعل سوى التحديق فىّ، وتومض بعيونها وتهز أنفها، أحدهم كان جميلا ذا لون رمادى شاحب، وكان أرنبًا صغيرًا وليس مريضًا مهزومًا كالآخرين، وقمت بالتربيت على رأسه من خلال السلك، وكان يرتعش إزاء لمسة يدى، وكنت أنا اشعر بدقات قلبه. كانت معظم الأرانب مصابة بالجرب كئيبة المنظر وليس فى فروها الرمادى القاتم لمعة ، وكان هناك أرنب أسود وحيد، ثقيل وكان يبدو مشوه الخلقة وله عينان دامعتان، كانت أبواب الأقفاص محكمة الإغلاق بالمزاليج والأقفال، وكلا الأقفاص والأقفال كان صدئًا. وجدت زوجًا من المجزّات القديمة فى القبو وأمسكت بها بكلتا يدىّ، وحاولت قطع فتحات فى الأسلاك المحيطة بالأقفاص، وجرحت أصابعى وأنا أحاول فتح ثغرة فى الأقفاص تسمح للأرانب بالقفز من خلالها، لكنها

ترددت ولم تثق بى، حتى الأرنب الصغير أخرج رأسه من الفتحة وظل يطرف بعينيه ويشمشم بعصبية لكنه لا يتحرك.

ثم رأيت فى حائط القبو بابًا يؤدى إلى الخارج، باب خشبى ثقيل تغطيه شباك العناكب وبقايا حشرات ميتة . يبدو أن هذا الباب لم يفتح منذ سنين لكنى أستطيع أن أفتحه بضع بوصات فى البداية ثم أستمر فى فتحه شيئًا فشيئًا. وفى الجانب الآخر هناك بضع درجات سلم أسمنتى تقود إلى سطح الأرض. لمست وجهى نسمات من الهواء البارد النقى له رائحة الثلج : «اذهبوا! اخرجوا من هنا! أنتم طلقاء!».

ولم تتحرك الأرانب . كان لا بد أن أصعد بها السلالم ثانية وأن أتركها فى الظلام حتى تأتيها الجرأة للهرب من أقفاصها.

«استيقظى يا مارى بث».

تهزّنى أمى وهى توبّخنى؛ لقد كنت فى سبات عميق .

إنه الصباح، وتوقف صراخ الأرانب. يمر قطار «كاياهوجا وإيرى» بعجلاته الصاخبة بالقرب من الفناء الخلفى لمنزلنا، ولكنى لا أسمع صافرته منذ فترة بعد أن ابتعدت بفراشى إلى جوار الحائط.

عندما نزلت إلى القبو لأتحقق مما رأيته، كانت الأقفاص قد اختفت.

لم يكن هناك أثر للأقفاص! رغم أن آثار أماكنها موجود وواضح، لكن المكان أصبح خاليًا، ولم تعد الأرضية الأسمنتية قذرة كما فى أماكن أخرى من الفناء.

وأغلق الباب المؤدى إلى أعلى بإحكام، مغلق ومغطى بشباك العناكب كما رأيته أول مرة .

أما الأقفاص التى كانت مغطاة بالأعشاب فى الخارج فقد اختفت أيضًا، ويمكن رؤية آثارها على الجليد .

«كالفن» ينظر أيضًا، لكنه لا ينبس ببنت شفة.

قالت أمى: «أخيرًا ، أبعدت هذه الأقفاص العفنة. انقضت خمسة أشهر قبل أن يقوم ذلك الوغد بتحريك إليته»، قالتها وهى تشعل الثقاب وهى تضعه بين أصابعها، بنفس الطريقة التى اعتاد أبى أن يشعله بها، وأشعلت السيجارة التى تتدلى من فمها .

أحرق حيًا، كانت تلك هى الكلمات التى قالها الأغراب، ولم يكن مسموحًا لنا أن نستمع إليهم. احرق حيًا فى فراشه، قيل هذا عن أبينا فى التلفاز وفى كل مكان، ولكن كل هذه الأقاويل حجبت عنّا.

ولكن «كالفن» سمع ما قيل ، وكرره على مسامعى.

أحرق حيًا فى فراشه وكان ثملا، سكب البنزين حول المقطورة وأشعلت فيها النيران، كان «راندى

مالفرن» رجل له أعداء، وتضاعف عدد أعدائه على مدى اثنين وثلاثين عامًا هى عمره، ومع ذلك لم يقترن اسم أىّ منهم بالحريق ولم يتّهم أحدهم بتهمة القتل العمد، رغم أن المأمور استجوبهم جميعًا وأفرج عنهم فى نهاية الأمر. رحل بعضهم واختفى تمامًا.

الآن ذهبت الأقفاص، ولكنى ما زلت أسمع صراخ الأرانب فى الرياح وفى الأمطار المنهمرة وفى صفير القطار الذى ينزلق فى أحلامى؛ أسمعها على بعد أميال من المنزل، وسأظل أسمعها طوال حياتى؛ صرخات المخلوقات الحبيسة التى عانت وماتت وتنتظرنا فى الجحيم ... أقاربنا .

الناعقة

فى جزيرة «هيدج» على خليج «نانتاكيت»(*) Nantucket Sound، التى تبعد عشرين دقيقة بالعبّارة من ميناء «يارموث» بولاية «ماساشوستس»، وعلى صخرة مرتفعة فوق الشاطئ المستوى، يقع نادى «جزيرة هيدج لليخت والرياضة البحرية» وعلى بقعة مماثلة لهذا الموقع، ولكن إلى الشرق يقع بيت يملكه آل «هندركس»، وهو بيت فخم على الطراز الفيكتورى اكتسب لونًا رماديًا بفعل رطوبة الجو ومغطى بألواح خشبية متراكبة ومكوّن من ثلاثة طوابق، وله عديد من النوافذ الطويلة الضيقة، وفوقه برج مرتفع ومنصة علوية وأسطح منحدرة من القرميد، وتحيط بالمنزل

(*) «نانتاكيت» Nantucket Sound جزيرة تقع على بعد ٣٠ ميلا جنوب شبه جزيرة «كيب كود» Cape Cod، وتكون مع بعض الجزر الصغيرة الأخرى مدينة «نانتاكيت ـ ماساشوستس» وتعتبر مقاطعة «نانتاكيت» مصيفًا ومزارًا سياحيًا (المترجمان).

شرفة أرضيتها ذات لون رمادى لامع كأن عليها طبقة من طلاء الأرضيات يعطيها مظهرًا براقًا، وبها أثاث من الخيرزان تغطيه وسائد مغطاة بقماش قطنى ناعم. وتبدو القوارب الشراعية فوق الأمواج المتلاطمة فى الخليج كأنها قطع متناثرة من الورق.

صيحات النوارس تمتزج بالرياح وصوت خفقات أجنحتها مسموع بوضوح! وفى كل مرة أنظر فيها لأعلى أخاف كأنى سأرى طيورًا عملاقة تخفق بأجنحتها استعدادًا للانقضاض علىَّ، لكنى أكتشف أنها مجرد رفرفة العلم أعلى الصارى المعدنى.

إنه علم أبى، ولكنه رحل هذا الصيف.

تجولت بين الضيوف بحثًا عن أمى وأنا أرتدى قميصًا دون أكمام بلون قرنفلى على تنورة من الجينز مطرّز على جيبها الكبير شكل قطة صغيرة وعلامة متجر «جاب كيدز» لملابس الأطفال كثير من الغرباء! أمى لها كثير من الأصدقاء منتشرون فى الشرفة المغطاة بألواح من الحجر وحول حمام السباحة وفى الحديقة الخضراء حيث أقيم البار وحتى فى ملاعب التنس.

المائدة عامرة بالمشروبات الكحولية وكئوس النبيذ الأبيض ذات العنق الطويل وعش الغراب المحشو بلحم السلطعون البحرى والكافيار الروسى الذى يغطى الخبز الأسمر كالجيلى والسمك المدخن وشرائح الخيار فوق رقائق البسكويت السويدى. تدوى

الموسيقى بصخب إلى حد العجز عن سماعها، نساء مثل أمى يرتدين لباس البحر الأملس الفاخر، وفوقه بنطال حريرى فضفاض يظهر سيقانًا رشيقة كأقلام الرصاص، ورجال ذوو بشرة برنزية يرتدون البنطال الأبيض والقمصان الرياضية التى فتحت أزرارها حتى منتصف الصدر. إنهم رجال مثل «جيرار» صديق أمى الجديد ذى الابتسامة العريضة البيضاء التى تتلألأ. ها هى فتاة جميلة! ها هى الأميرة! وجه كالوردة النضرة! هكذا ينبهر بى الغرباء ولكنهم سرعان ما يشعرون بالملل. وأحضرت الفتاة الأيرلندية الطفل لأمى لتقدّمه لأصدقائها، وأثار الطفل اهتماما لفترة قصيرة ، لكن الأطفال الصغار أكثر مللا من الأطفال الذين يبلغون السادسة من العمر ، وعلى الفور عادت الفتاة الأيرلندية إلى البيت بالطفل لتقوم بواجباتها نحوه كتغيير حفاضه وإعداد زجاجة لبن له وتجهيزه للنوم القيلولة.

ها هى أمى، ذلك الشلال من الشعر بلون القش الذى ينسدل فوق أكتاف برنزية عارية، وصوت ضحكتها يشبه تهشم الزجاج .

«ماما ؟» قلتها وأنا أحاول أن أمسك بيديها وهو ما لا تحبه خاصة فى مثل هذه الأوقات، فهى مع «جيرار» بنظارته السوداء وشعره الناعم الذى تغيّر لونه جرّاء التعرض للشمس، يرتدى ملابس بحّار ناصعة البياض، وكانت أمى ترتدى ثوبًا «فاضحًا» هو

فى الواقع مجرد وشاح حريرى أسود يلتف حول صدرها الصغير ، وتنورة حريرية ضيقة بلون الفراولة الفاقع تظهر منها ساقاها ، وتلبس حذاء له كعب عال يجعلها تتمايل؛ كانت أظافرها مطلية بنفس اللون الفاقع ، وكان لامعًا براقًا متقنًا. أمى تدفعنى كأنها تبعد حشرة مزعجة، ابتعدى! اذهبى للبيت! أليس مفترضا أن تهتم بك تلك الفتاة الأيرلندية؟! كانت تقول ذلك حتى بينما كانت تضحك على مزحة قالها «جيرار».

عندما كنت طفلة صغيرة ، كانت أمى تلف يديها حولى لننعم بالقيلولة معًا أحيانًا، ولم يكن ذلك منذ وقت بعيد فى جزيرة «هيدج» فى أوقات الصيف، وكنا ننام معًا فى الفراش الحديدى الكبير فى غرفة أمى وأبى على مخدات من ريش الأوز. كنا ننام متعانقتين فى منتصف الظهيرة، الذى كان وقتًا مميزًا، إذ كنا نتهامس ونضحك وفجأة ننام ونحن متوجهتان للنافذة حيث يمكننا رؤية السماء (من خلال رموش العين) وجزءٍ من الخليج، كأننا نبحر فى السماء على سحب خفيفة طافية . لم أعد صغيرة الآن وبلغت السادسة من عمرى وسألتحق بالمدرسة فى المدينة، كما أن أمى أنجبت طفلا جديدًا. أليس وجود طفل واحد فقط يكفى، لقد اعتقدت دائمًا أننى الطفلة، لكن طفلا آخر أتى الآن فلن أستطيع أن أكون طفلة بعد الآن، ومع ذلك فعندما ذهبت أمى مع «جيرار» للإبحار رفضًا اصطحابى لأنى ما أزال صغيرة جدًا.

صغيرة جدًا !و «من الخطر أن تذهب معنا» . كان الطريق الذى سيبحر فيه «جيرار» شرقًا بين جزيرتى «مونوموى»(*) Monomoy و «نانتاكيت» ثم إلى المحيط الأطلنطى ثم يعود من نفس المسار ويتجه غربًا ويدور حول جزيرة «هيدج» كلها ليعود ظافرًا إلى مرسى «هندركس» .

وأعود جريًا إلى المنزل وأنا أحاول أن أبعد الأرجل والسيقان التى تعترض طريقى، كم أكره أصدقاء أمى، وأكره «جيرار» الذى يبتسم لى متظاهرًا أن لى مكانة خاصة!.

كرهت أبى لأنه يسافر بعيدًا ، ولأنه غادر جزيرة «هيدج» بعد أن كان يعتبرها «المكان الآمن» وهذا ما اعتاد أبى قوله! على أية حال لم يكن ذلك حقيقيًا، فالعواصف الصيفية الشديدة تهب أحيانًا، وفى أحيان أخرى تضربها الأعاصير والرياح العاتية، وقد تلف المرسى من الجليد (فى الشتاء) وكان لا بد من إصلاحه. يسكن أبى الآن فى مدينة مختلفة، كنت أبحث عنه بين ضيوف الحفل ، والذى كان نوعًا من الحفلات يرتاده الجميع : الجيران والضيوف من المصطافين وزائرو جزيرة «هيدج» وأعضاء نادى اليخت والرياضة البحرية، لذا فمن الممكن أن يكون

(*) تمتد جزيرة «مونوموى» Monomoy بطول ١٣ كيلو مترًا جنوب غرب «كيب كود»، وقد أنشئ فيها محمية طبيعية Natiional Wildife Refuge عام ١٩٤٤ (المترجمان).

أبى بينهم . لقد غيّر أبى هيئته، ففى المرة الأخيرة التى رأيته فيها كان له سوالف سوداء وخط رأسى بين حاجبيه كنت أفركه بأصابعى أريد أن أمسحه. آه يا أبى!

لم يكن أبى والدًا للطفل (كان هذا غريبًا لى ولكن هذا ما قالته أمى)، لكن أبى سيظل أبًا لى (هذا ما قالته أمى أيضًا) لذلك توقعت أن يكون فى الحفل، ولكن كيف سيمكننى أن أجده وأن يجدنى فى مثل هذا الزحام؟

ولكن إذا ...؟! ماذا لو وقفت فى الشرفة؟! فوق الأريكة المصنوعة من الخيزران! ماذا لو وقفت فى ثيابى الصيفية الجديدة من محلات «جاب كيدز» للأطفال ، ألن يرانى أبى ؟! لكن الشرفة تعج بالناس أيضًا.

كانت الحوائط داخل المنزل مطلية باللون الأبيض اللامع ، وفوق الأريكة علقت مرآة عكست الضوء بكثافة قد تؤذى العين ففركت عينى. لا لم أكن أبكى! كنت ألهث ككلب صغير ركله أحدهم ، لكنى لم أكن أبكى.

كان الطفل فى مهده بالدور السفلى، وكان له مهد آخر فى الدور العلوى وكلاهما لونه أبيض .

كان الطفل ولدًا صغيرًا، كما كنت أنا بنتًا صغيرة وقالت أمى إنها تحب كلينا! وقالت إنها لم تتمنّ أن يكون لها طفل واحد فقط ، لا سيما إذا كان بنتا صغيرة .

قـالت لـى أمى إننى عندمـا أصبح أمّا سـأصيـر رهينة للهـواجس وأظل أفكر : مـاذا لو...؟ مـاذا لو حدث شىء ما لـ...؟ إن هذا التفكيـر المتسـائل القلق يعد من أسوأ الأفكار، وتتتابك الهواجس على أكثر من طفل واحد كأنه تأكيد لحدوث كارثة؛ ربما كان هذا مجرد غـريزة بدائيـة ، لكننا بدائيـون فـعـلا، ألسنا كذلك؟

كانت الفتـاة الأيرلندية تضحك مع شـاب شـديد السمرة ـ بفعل التعـرض للشمس ـ هو ابن إحدى صديقات أمى ويرتدى قبعة حمراء، ويسكن على بعد بضعة منازل على الشاطئ، وأحضر معه «سيجارة خاصة» للفتاة الأيرلندية وله ليدخناها معًا، كانا يضحكان معًا بينما الطفل فى مهده بجوار الأبواب التى تفتح على الشرفة وتأتى بنسيم مشبّع بملح البحر. رجفت رموش الطفل عندما مر خيالى على وجهه .

«طفلى؟»

كنت أتقن تقليد صوت أمى، ورفعت الطفل بين ذراعىّ، أخى الصغير! هذه هى علاقته بى، كنت منبهرة بعيون الطفل الزرقاء الصغيرة التى كانت لامعة وندية وتتحرك باستمرار فى محاولة للتركيز على وجهى. أحب أن أتحسس جلده، الذى يشبه ملمس الدمية المطاطية ، وذلك الفم الصغير المتقن، ولكن للطفل حالاته ، فالأصوات التى يصدرها ذلك الفم

الصغير لا تحتمل ولا يمكن تصورها ، ففى الليل كان لابد للفتاة الأيرلندية أن تهرع إلى الطفل إن استيقظ ولن تتمكن من النوم ثانية إن بدأ فى إطلاق ضوضائه الصاخبة . فى بعض الأحيان تكون أمى خارج المنزل، وتكون أحيانا مع «جيرار» فى غرفة النوم الرئيسية، وفى تلك الأوقات لا تطيق أن يوقظها صوت صرخات الناعقة.

ما الناعقة يا أمى؟ يبدو أن أمى لم تكن تعرف وغضبت منى لأنى سألتها، وبدا أن «جيرار» يعرف معنى الكلمة، حيث قال إن الناعقة هى فصيل من قبائل الهنود الحمر فى الجنوب الغربى كقبيلة «الأباتشى»(*). إلا أن الفتاة الأيرلندية التى احتفظت لنفسها بالكثير - ونادرًا ما تحدثت إلى أمى بغير «نعم يا سيدتى» أو «لا يا سيدتى» أو «شكرًا يا سيدتى» - نطقت الآن بصوت مرتجف «نعم يا سيدتى ، الناعقة روح برية صوتها كالريح ، تصرخ ليلا فى البيت، الذى سيموت أحد أفراده فى وقت قريب» .

وضحكت أمى بصوت يشبه صوت تهشم الزجاج وهذا يعنى أنها انزعجت، فاحمر وجه الفتاة الأيرلندية الشاحب الممتلئ بالنمش، وقالت: «آسفة يا سيدتى» .

(*) «الأباتشى» Apache مسمى يندرج تحته عدة قبائل من السكان الأصليين الذين استوطنوا أمريكا الشمالية ممن تجمعهم أواصر ثقافية ولغوية (المترجمان).

أحـيانًا فى ليل ذلك الصيف فـى جزيرة «هيـدج» ، كنت أتسلل خلسـة من فـراشـى فى الـغـرفـة المـجـاورة لغرفـة الطفل وأتحـرك عـلى أطراف أصـابعـى عـارية القدمين بهدوء وأنا أحبس أنفاسـى وأذهب إلى المهد الأبيض، الذى يرقـد فـيـه، كـان ذلك المـهـد شـديد البـيـاض لدرجـة أنه كـان يبـدو طـافـيًا على الظلال كقارب صـغـيـر على سطح المـاء خـاصـة فى الليـالى المقـمـرة ، عندمـا يكون القـمـر ذا لون أبيـض سـاطع . وعندمـا كـانت الفـتـاة الأيرلندية تـغـط فـى نومـهـا، كنت أقف كالشبح بجوار مهد الطفل الصغير. سمعت أمى تقـول إن هذا المهـد كان لهـا فى زمن مـا، وكـان أمـرًا محـيـرًا أن أتصـور أن أمـى كـانت فـى زمن مـا «طفـلا»، ولكن هـذا الطفل الآن شـخص آخـر ليس أمى يمكننى أن أراه وهو نائم . كـان نوم الطفل قلقًا إذ كـان جسـده الصـغـيـر يـرتجف من سـخـونة أحـلامـه التـى لا يعـرفـهـا أحـد؛ بم كـان يحلم الطفل يا ترى؟ كـان صـغـيـر الحـجـم ولم يكن يسـتطيع الكلام، وسـتـضـيـع أحـلامـه عندمـا يستيقظ لأنه لن يستطيع أن يحكيها.

كـان شيـئًا مـثـيـرًا أن أحـمل الطفـل بين ذراعىّ! ولم يعرف أحد ليوبخنى.

كنت أحمل الطـفل كما تفـعل الفتاة الأيرلـندية، فهى تريحه على ذراعـهـا اليـسـرى عـندمـا ترضـعـه بالزجـاجـة، وترفـع كـوعـهـا قليـلا لتـعـضـد قـاعـدة عنق الطفل؛ لأنهم يقولون إن عنق الطفل ليس قويًا بعد ليتمكن من إقامة

رأسه. كان الطفل بين اليقظة والنوم، والوقت ملائم له إذ لا يبدو أنه سيصرخ الآن. كم كان الطفل دافئا! ونسيم البحر يعمل على تبريد جوّ جزيرة «هيدج»، لكن الطفل كان دافئًا بعد نومه العميق. أسعدنى أن الطفل كان يحاول أن يبتسم لى وفمه الصغير مبلل باللعاب. يبدو أن الطفل يعرفنى ويثق بى .

لم تكن هناك مشكلة فى حمل الطفل ، فلم يكن أثقل من الدمية السيراميك الأثرية التى أهدتنى إياها جدتى . وعبرت بالطفل الباب المفتوح على الشرفة التى تعج بالضيوف المزعجين، وعبرت الباب المؤدى إلى غرفة المئونة حيث الفتاة الأيرلندية وفتاها ذو القبعة الحمراء واقفان متلاصقان، وصعدت إلى الدور الثانى على السلم الذى يصدر صريرًا، وعبرت الرواق مرورًا بأبواب تفتح على غرف تضيئها الشمس، ثم غرفة الطفل وغرفة أمى وأبى سابقًا وهى حاليًا غرفة أمى و «جيرار»، وهذه غرفتى بفراشها الصغير الأنيق فى ركن الغرفة ، ذى الغطاء المنقوش بصور البط الأبيض وقطط صغيرة على خلفية زرقاء فى لون البحر، وعلى الستائر نقش مماثل لغطاء الفراش، وفوق كرسى هزاز صغير كانت الدمية السيراميك ترتدى مئزرًا طويلا دون أكمام. وحملت الطفل إلى مقعد تحت النافذة لنأخذ قسطًا من الراحة، وجعلته يرى الناس فى الدور الأرضى، وأريته ملاعب التنس والمروج الخضراء والشرفة. لم أتمكن من رؤية أمى وسط هذا الجمع الغفير من

الغرباء ولم أر أبى أيضًا، وكان من الصعب أن أعرف إذا كان الطفل يرى ما كنت أشير إليه . أصدر الطفل أصوات قرقرة وصفيرًا ثم صوتًا كهديل الحمام وبدأ في التململ ، ولمست إحدى يديه الصغيرتين خدى كأنه يؤنبنى قائلا: «لا يمكن أن نقف هنا فلسنا على ارتفاع كافٍ يمكّنهم من رؤيتنا» .

البرج! المنصة العلوية! سنذهب أنا والطفل إلى هناك.

خطر ذلك ببالى بسرعة مذهلة كفتح التلفاز بجهاز التحكم عن بعد.

لكن السلالم التى تؤدى إلى الدور الثالث كانت أكثر ضيقًا من التى سبقتها، وكان البساط الممدود عليها قديمًا ومهترئًا، واضطررت للتوقف أكثر من مرة لأميل بالطفل على سياج السلم. وفجأة أصبح الطفل أثقل وزنًا وأكثر دفئًا وخرجت من حفاضه رائحة كريهة. كنت ألهث مرة أخرى وبدأت يدى اليسرى تؤلمنى، وكان فعلاً أخرق أن أنقل الطفل إلى ثنية ذراعى اليمنى فلم يكن الطفل مرتاحًا بالطبع، فلم يحدث أبدًا أن حملته أنا أو الفتاة الأيرلندية بهذه الطريقة، ولا أذكر أنى رأيت أمى تحمله هكذا .

ولكن لا بأس، فقد فاجأنى الطفل بأنه يضحك!

صعدت أمى معى إلى البرج مرة وحيدة هذا الصيف لكن الطفل لم يكن معنا، وقالت لى أمى إننا كلما ارتفعنا أصبح المنظر أكثر وضوحًا، وإذا

استطعنا أن نصعد إلى القمر لننظر إلى الأرض فسنرى أنفسنا بشكل أفضل. كنا نضحك على ما كنا نطلق عليه رواياتنا المأساوية. ومن المنصة العلوية أمكننا أن نرى الكثبان والسياج الرملى تنتشر فوقه الزهور البرية، وأن نرى خليج «نانتاكيت» بأمواجه المتلاطمة وخليط ألوانه من الأزرق الداكن والأزرق الرمادى والأزرق المائل إلى الاخضرار حسب ما تكون عليه السماء. قالت أمى «النوارس منطلقة، أترينها!» قالتها أمى وهى تحجب عينيها عن الشمس، ثم قالت إن طيور النورس مخلوقات يحركها الجوع، وأن دافعها فى كل دقيقة من حياتها هو الجوع. لا أدرى لم قالت أمى ذلك، فلم أعرف ما إذا كانت أمى تريد منى أن أشعر بالأسى من أجل طيور النورس أو أن أعتقد أن تلك الطيور حمقاء، لم أستطع أن أفهم .

كان من الصعب علىَّ أن أتذكر الصيف الماضى حين أخذنى أبى إلى البرج، حاولت بصعوبة شديدة أن أتذكر صعود أبى معى على سلالم الدور الثالث ممسكًا يدى، والنشوة العارمة عندما خطونا من الباب إلى السطح؛ حيث توجد منصة يحميها سياج من الحديد، وكانت هذه هى المنصة العلوية. كنت خائفة فى بادئ الأمر لكن أبى أمسك بيدى مؤكدًا أن المكان آمن تمامًا رغم أننا كنا على ارتفاع شاهق ولا يوجد أى سقف فوقنا ، لكننا لم نخش أى خطر للسقوط. كنت أطرف بعينى مرات عديدة فزعة من الهواء الشديد، الذى يحجب النور عن البصر ، وكان أشد هنا عما كان عليه فى الأسفل.

وكانت المنصة العلوية للمنزل ممتعة! وكأنك تحلق في طائرة شراعية إلى جزيرة «هيدج» من مطار «بوسطن»، أكثر تشويقا من مجرد ركوب العبّارة من ميناء «يارموث» لأنك تبقى داخل سيارتك ويصعب عليك رؤية المياه، إنها مملة!

اضطررت أن أستند إلى الحائط والطفل على ذراعى، وكنت أتعثر وأنا أفتح الباب وألهث بشدة واقشعر جلدى من إحساسى بالحرارة. كان صعبا علىّ أن أصدّق أن الطفل ثقيل جدًا، وبدا مضطربًا كأنما ضاق بى ذرعًا ويريد أن ينطلق فى الهواء الطلق ، وبدأ يركل الهواء برجليه الصغيرتين كقطة تمسك بها عنوة لتحتضنها لكنها تقاوم وتتلوى محاولة التملص منك .

لا تفعل ذلك أيها الطفل

انظر أين نحن!

كنا الآن فى الهواء الطلق ولم يكن فوقنا إلا السماء. كان الهواء الشديد، الذى يحجب النور يجلد شعرى وملابسى، ويجعل العلم، الذى كان قريبا أعلى بقليل عن سطح المنزل يرفرف كأنه كائن حى لا يطيق صبرًا لأن يتخلص من عمود الصارى، وأن يطير فى السماء. كم هو جميل أيها الطفل، انظر!

عندما وقفت على أطراف أصابعى واتكأت على السياج أمكننى رؤية بعض الناس فى الأسفل تحت، لكن يا لخيبة الأمل! لم أستطع أن أراهم بوضوح ولم يستطيعوا هم رؤيتى. كان السياج مرتفعًا إلى مستوى

خصر البالغين وكنت أنا أصغر من ذلك بكثير، فلم أتمكن من رؤية أى شىء مثير سوى السماء؛ حيث كانت طائرة مروحية صغيرة تحلق فوقنا صوت محركها كطنين النحل. لم يستطع أحد رؤية الطفل أيضًا، فلا أحد فى الأسفل كان يلقى بالا إلى هذا الأمر!

ويبدو أننى سأضطر أن أزحف من خلال قضبان السياج الحديدى إلى السطح وآخذ الطفل معى، وكنت أظن أن ذلك فى مقدورى. فى الصيف الماضى قامت مجموعة من الرجال ذوى بشرة داكنة باقتلاع ألواح القرميد القديمة واستبدلوا بها أخرى جديدة وثبتوها بالمسامير، خمسة أو ستة رجال كانوا فوق السطح يحملون المطارق ويتمشون فوق السطح وينحنون فوقه وأحيانا، يجلسون القرفصاء عليه وينزلقون ويزحفون ثم يمشون باستقامة على أجزاء مختلفة منه، حيث كانت بعض أجزاء السطح أشد انحدارًا من غيرها ، لكن الجزء وراء المنصة لم يكن من الأجزاء شديدة الانحدار.

وضعت الطفل على أرض المنصة العلوية ودفعت برأسى بين القضبان الحديدية وحشرت المتبقّى من جسمى للخروج كما تفعل القطة، ونجحت. أنا على السطح الآن! رجل واحدة على كل جانب حتى أتوازن، وكنت فى ذلك أكثر جرأة من القطة. كنت هنا كما القردة!. كان يمكننى أن أستدير قائلة بصوت عالٍ «لا

تنظرى لأسفل!»، هذا ما قالته أمى عندما كانت الطائرة المتهالكة الصغيرة تدور استعدادًا للهبوط فى مطار جزيرة «هيدج» على المدرج المترب الذى يبدو أنه سيتوارى إلى أن يصبح حقلا من الكثبان الرملية التى تنتشر فوقها الزهور البرية. لا تنظرى لأسفل! قلتها لنفسى بصرامة، لا تنظر أيها الطفل! قلتها له وانا أحاول أن أصل إليه من خلال القضبان، وكان هو غافلاً عما أمرته به وراقدًا على ظهره تاركا ذراعيه وساقيه تتحرك بحرية كخنفسة ساذجة، وظهر على وجهه احمرار واتخذ سمت الأطفال حين يستاءون بما يجعلك منساقًا إلى الضحك أحيانا، وفى أحيان أخرى قد تأتيك الرغبة فى أن تهزّ الطفل بسرعة لتمنع صرخة الناعقة. لا تفعل أيها الطفل!

كان من الصعب سحب الطفل عبر القضبان؛ لأنه كان يركل بقدميه، والفتحات كانت واسعة لمروره لكنه لم يكن متعاونًا. آه، لقد ضقت ذرعًا بهذا الطفل! فماذا إذا كان أبى هنا ينتظر أن يرانا؟ وماذا إذا كان أبى مع هؤلاء الناس نافد الصبر من تلك الحفلة الصاخبة؟ وماذا إذا كان على وشك النظر إلى أعلى؟ لن يرانا لأننا لسنا فى مرمى البصر. وماذا لو شعر أبى بالضجر وذهب؟ وأمى أيضًا، ألن ترانا؟

ربما كنت أشعر بالغيرة حين ولد الطفل حديثًا وكان صغير الجسم ، وقالت لى الفتاة الأيرلندية إنه ليس علىّ أن أشعر بالغيرة لأننى الأجمل وأننى سأظل

دائمًا الأميرة ، وعرفت أن ما أشعر به هو الغيرة، فقد كنت منطوية على نفسى وعنيدة وأبكى بسهولة وألعب بعنف مع الدمية الأثرية وأكره أمى، وناشدت أمى أن تعيد الطفل إلى حيث أتت به (لم كان هذا طلبًا أحمق؟ أمى كانت تتسوق كثيرًا! وكانت تأتى بصناديق كبيرة مربوطة بأشرطة من القماش وحقائب ورقية بأيد بلاستيكية، وكانت تعيد ما اشترته من المتاجر أحيانًا، فلماذا لا تستطيع رد الصغير أيضًا؟). لكن الطفل ظل موجودًا وأبدى الجميع حبًا جارفًا له. وبعد فترة لم أعد أعير الطفل اهتمامًا كبيرًا ولم أمانع حين قيل لى إنه أخى الأصغر، لقد كنت أريد جروًا وبدلا من ذلك أهدتنى أمى أخًا أصغر. فى كل مرة اختلست النظر إليه وجدت عيون الطفل الزرقاء اللامعة محدقة فى وجهى ، ولم أكن أملك إلا أن أضحك عليه! لكنى كنت أرتبك فى بعض الأحيان وتؤلم الأفكار رأسى ، كنت أنا الطفل، والطفل كان أنا؟ أكان هذا هو المفترض أن يكون، أم أن الطفل جاء ليأخذ مكانى؟

حاولت أن أسأل أبى عن ذلك، فإذا كان الطفل هو أنا وأخذ هو مكانى، فأين كنت أنا؟

ضحك أبى وتصوّر أننى أريد أن أضحكه، وقبلنى وضمنى إلى صدره، لكن شعر صدغيه كان يخدشنى.

كنت على السطح والطفل معى، وحين سيرانى أبى سينبهر وقد يغيظنى قائلا : «قردتى الصغيرة!».

لم يكن هذا الجزء من السطح منحدرًا أو مرتفعًا بشدة ، فقد كان هناك جزء آخر أكثر ارتفاعًا وانحدارًا تخترقه مدخنة من الطوب. لو أستطيع أن أصل إلى ذلك الجزء من السطح! نعم! يمكننى الوصول إليه بأن أنزلق ببطء، ولن أفقد توازنى ما دمت أضع رجلا على كل من جهتى السطح، وما دمت لن انظر إلى أسفل. كنت أبذل مجهودًا للتقدم عبر السطح وأنا أحمل الطفل وهو يرتجّ فى يدى وأنا اتحرك، وبدا منزعجًا من ذلك الارتجاج، وكانت رأسه تميل إلى الخلف، لأنى لم أحمله بشكل يريحه وأنا أعلم ذلك ، لكنى أستطيع تعديل هذا الوضع، كانت الشمس قوية تزيغ الأبصار، والريح تأتى من كل جانب، وعلى بعد أميال فى الطرف البعيد من غرب الجزيرة كانت هناك أكوام من القمامة وطيور نورس فى حالة جنون وطيور جارحة أخرى، وكانت الريح تحمل تلك الرائحة لساكنى الشاطئ الشرقى كما كان يطلق عليه، كانت النوارس هنا أيضًا، تندفع ظلالها بسرعة السهم على السطح، وخطر فى بالى تفكير مفزع بأنهم «سيقتلعون أعيننا»، وكان فى إمكانى حماية عينى من النوارس، ولكنى أيضًا لن أقذف الطفل!

يمكننى الآن أن أسمع أصوات الغرباء فى الأسفل بوضوح، وأسمع الضحك وصوت الموسيقى الصاخبة المكتوم يصل إلىّ كصوت دقات القلب .

اقتربت النوارس وحلقت بالقرب منا كأن الفضول قد أصابها، ولم تكن تفعل أكثر من الصراخ فى وجهى ووجه الطفل ثم تستدير بسرعة مع الريح، وكان الطفل يحدق فيها وهو فاغر فاه ، وفمه الصغير مبتلّ بلعابه مستعدّ للصراخ فى مقابل صراخهم ولكنهم سيكونون قد ذهبوا.

آه، مؤخرتى! أسفل تنورتى الجينز الثقيلة، كنت أرتدى لباسًا تحتيًا قطنيا وردى اللون، وحجر القرميد خشن يخدش جلدى، وبدأت مؤخرتى الرقيقة تؤلمنى.

كنت كأنى تلقيت لطمة مفاجئة من أمى ومن صديقها «جيرار» أيضًا، وكانوا يقولون إن هذا هو ما تستحقه طفلة صغيرة مدللة عابسة دائمًا!

إن ذراعىّ يؤلماننى أيضًا، فقد كان الطفل يتلوى بين ذراعى كقطة مذعورة، واشتدّ ألمى: «اصمت أيها الطفل! اصـ...مت، أيها ... الطفل!».

وبحركة متقاربة كنت أندفع بمؤخرتى بطول قمة السطح، ولم يكن فى الأمر متعة كما كنت أتصور، كان شبيهًا بأعمال لا أحبها كأن أنظف شيئًا سكبته أو أن أزحف تحت فراشى لأستعيد شيئًا قذفته تحته. لم يرنى أحد بعد، وطال الأمر أكثر مما ينبغى! ربما لم أكن فى مرمى البصر بعد وعلىّ أن أتقدم فحسب. كانت الفكرة الملحة علىّ كحشرات ذات جوانح حادة بداخلى تناضل للخروج هى «لا تنظرى لأسفل»، هذا

• ا قلته لنفسى بصوت أمى الصارم، الذى لا بد من إطاعته، ولكنى كنت قد بدأت أرى بزوايا عينى ولم يكن باستطاعتى أن أمنع ذلك. جاء صوت ضحكة صاخبة من أسفل ولاح شىء ضبابى أشقر (قد يكون شعر أمى)، ونظرت وأطلقت صرخة خوف خافتة بأنى على علو شاهق! أنا والطفل على ارتفاع شاهق عن الأرض! وأصبت فجأة بدوار وجفّ حلقى وتسمرت نظراتى على الناس، الذين أراهم فى الأسفل ولما يرونا أنا والطفل بعد. كلا الألم والطفل يدفعاننى ويثيراننى فى وقت حرج، فالطفل ثقيل على ذراعى وضربات قلبى قوية تدوى فى صدرى وأنفاسى تتلاحق كأنى كنت أركض لاهثة، وأعض على شفتى لأمنع نفسى من البكاء. آه، كم من الدقائق سيمضى قبل أن يلحظنا أحد ونحن هنا فتتسع عيونهم من هول المفاجأة؟

فليساعدنى الرب

١ . الهاتف يرن، ابنة عمى «أندريا» ترد.

كان مساء يوم منهمر الأمطار من أيام الأسبوع الأخير من شهر إبريل، والظلام مخيّم رغم أن الساعة كانت لاتزال السابعة مساءً، والسماء حالكة الظلمة كمنتصف الليل .

التقطت «أندريا» سماعة الهاتف دون أن تنظر إلىّ، كأنها فى بيتها الخاص وليست فى بيتى أنا، ونقلت طفلتها إلى فخذها الآخر كأنها امرأة ريفية فى صورة من صور «ووكر إيفانز» التى ترجع إلى ثلاثينيات القرن العشرين(*) .

(*) Walker Evans(١٩٠٣ ـ ١٩٧٥): مصور فوتوغرافى أمريكى اشتهر بتصوير مشاهد حية من الحياة اليومية الأمريكية منذ ثلاثينيات القرن العشرين (المترجمان).

رنين الهاتف! أود لو أختطف سماعة الهاتف من يدها وألقى بها حيث كانت دون أن أتبادل كلمة مع من يتصل.

ولكن «أندريا» ترد بلهفة طالبة فى المرحلة الثانوية، ولم تتروّ لتتحقق من رقم الطالب على جهاز الإظهار لتدرك أن المتحدث هو زوجى، وهو رجل شرطة بالمقاطعة ، يقوم فى هذه الأمسيات بورديات ليلية ويترك زوجته الشابة وحيدة فى المنزل ، ولا يقتحم وحدتى غير زيارة «أندريا» المفاجئة مع طفلتها، و «أندريا» تعطى لنفسها حرية التدخل فى حياتى.

آلو؟ من المتحدث؟

تضحك «أندريا» وتطرف بعينيها وتحدق فىّ، وأيا من كان المتصل فمن الواضح لى أنه يغازلها.

أراجع الرقم الظاهر على جهاز الإظهار، غير أن الرقم «غير مسجل بالخدمة» .

وأحيانًا ما يظهر «لا يوجد بيان» الذى لا يختلف كثيرًا عن «غير مسجل» مع إشارة أنك لا تود أن تردّ على الهاتف، على الأقل أنا لا أريد. فى بلدتنا «أو سابل فوركس»، مركز ومحيط عالمى الخاص، يعرف الناس بعضهم البعض منذ سنوات الدراسة، ويندر أن نسمع عن قادم جديد؛ أستطيع أن أحصى على أصابع يدى من يحتمل أن يتصلوا بى هاتفيًا فى هذه الساعة أو فى أية ساعة من اليوم، لهذا فمن المعتاد أن أترك

جهاز الرد الآلى مفتوحًا ليترك «غير المسجل» رسالة على الآلة، وأحسب أن ما أفعله كان موجهًا لزوجى.

اتصور أحيانا أن أى شخص «غير مسجل» شخص ضخم يقف على عتبة بيتك مرتديا قناع تزلج، أتراك تفتح له الباب؟

وودت لو أحطم عنق "أندريا" للطريقة التى تبتسم بها وأنظر إليها، وهى تهز رأسها قائلة : «أيهم؟ من؟» وهى بذلك تفتح بابًا للحديث على مصراعيه. ليتنى لم أتصل بها هذا المساء ملمحة بإحساسى بالوحدة.

هذا المطر المنهمر! مطر يطرق رأسك كالأفكار غير المرغوب فيها.

تناولنى «أندريا» سماعة الهاتف قائلة بصوت مرتعش خافت: «إنه نفس الشخص المجهول الذى لا يعرّف نفسه، لكننى أعتقد أنه «بِتمان» .

«بِتمان»! زوجى ، اسمه الأول «لوك» إلا أن الجميع يناديه «بِتمان» .

ترتجف «أندريا» وهى تناولنى سماعة الهاتف، شىء ما يرتجف فيها إذا جاء ذكر «بِتمان» يرجع إلى ما قبل زواجى به. وعندما ينتابنى الشك أعتقد أن هذه العلاقة سبقت لقائى به حين كنت فى الرابعة عشرة من عمرى، طالبة متفوقة أقسمت أن تظل عذراء مدى حياتها. وإن كنت لم أواجه أيًّا منهما بهذا الموضوع.

يقول «بتمان» إن أبى قد حقن عمودى الفقرى بكبرياء أسرة «رايبورن»، فلماذا أتحرك وكأن عصا مكنسة ترفع مؤخرتى؟ ولماذا يصعب التعامل معى فى الفراش (هكذا يغيظنى «بتمان»!) .

«نعم؟ من أنت من فضلك؟» عزمت أن أظل هادئة ورابطة الجأش ، لأن ـ بتمان ـ غادر فى الصباح الباكر بعد أن تراشقنا بكلمات حادة كالحصى . زوجى معروف عنه أنه يستشيط غضبًا بسرعة هائلة، ثم يهدأ بعد دقائق معدودة أحيانا متوقعًا منى أن أضحك وأن أسامح وأن أنسى كأن شيئًا لم يحدث. إن «بتمان» رجل يحب النكات منذ وقت طويل، وليست هذه هى المرة الأولى التى يلعب فيها معى ألعاب الهاتف هذه، لذلك كنت متأهبة لسماع صوته الذكورى العميق الأجش الذى كان مألوفا لأذنى وهو يتساءل: «هل أنت السيدة «بتمان»، سيدة المنزل؟» وبسرعة حركة كرة البنج بونج أرد: «من أنت يا سيدى؟ أنا لا أتحدث مع غرباء» .

قد يتراءى لمخيلتك أنه بعد زواج دام أكثر من أربعة أعوام برجل أحببته حبًا جنونيًا قبل الزواج مدة ثلاث سنوات، أنه على الأقل يجب أن تتعرف على صوته فى الهاتف، ولكن فلتصبنى اللعنة إذا لم يكن المتحدث هو «بتمان» مغيّرا صوته بوضع حصى فى فمه أو قطعة قماش على سماعة الهاتف، ويتحدث بتلك اللكنة الممطوطة كأنه رجل كندى! هو أيضًا

يستثير غضبى بحيث لا أستطيع التفكير بتعقل العادة . وبدا المتحدث معنّفا وهو يقول «سيدة بتمان»! من الواضح أنك عنيدة كالمعروف عن عائلة «رايبورن»، اقتنعت الآن أن المتحدث هو «بتمان»، من غيره؟ توهج وجهى وفاضت عيناى بالدموع كما امتدت عندما أواجه موقفًا عاطفيًا شديدًا، وتصبب العرق على جسدى، أكره أن يكون لـ «بتمان» هذا الأثر علىّ وأن تشهد ابنة عمى ذلك. هذا ما فكرت فيه وصوت المتحدث يستفسر : «هل «بتمان» شخص ذو هيئة وله سمعة طيبة؟»... ياله من سؤال غريب، أرد قائلة: «إن «بتمان» رجل شرطة ومعروف عنه أن الشك يملؤه، ومزاجه حاد وأفكر فى إبلاغ السلطات عنه».

لم تكن إغاظتى لـ «بتمان» تلقائية أو سهلة مثل إغاظته لى؛ ويبدو الأمر كأنه مباراة مصارعة معه على الفراش : فأنا نحيلة أزن ٩٧ رطلا أى نصف وزنه. يجيب المتحدث بسرعة كأنه أحس بالخطر : «لحظة يا فتاتى، أى سلطات تعنين؟»؛ فتاتى! لابد أن المتحدث هو «بتمان»: تخرج كلمة «فتاتى» من فمه كأنه يتحسس ما بين فخذىّ فيذوب أى جليد بيننا بسرعة. أتحدث بصوت مرتفع : «إنه يعرف من! ومن الأفضل أن يتوقف عن مثل هذه الألعاب»، ويستمر صوت المتحدث محذرًا بسخرية قد تكون جادة: «أى سلطات؟ وكيل النيابة؟ الشرطة» ، وأردّ «بتمان» ! اللعنة! كفّ عن هذا!»، لكن المتحدث يصر قائلا: «هل

«بتمان» هذا مسلح وخطر طوال الوقت يا فتاتى؟». ثمة شىء يتعلق بهذا السؤال، إنها الطريقة الغريبة التى قيلت بها. غمرنى إحساس بالغثيان فهذا ليس «بتمان»، جفّ حلقى والصوت مستمر فى استثارة أعصابى، قوىّ أجش وأسمع صوت تنفسه فى أذنى: «فليذهب «بتمان» إلى الجحيم يا صغيرتى. ماذا ترتدين الآن؟» وهنا ألقيت سماعة الهاتف.

ضمت «أندريا» يدى فى يديها وأخبرتنى أن يدى فى برودة الثلج.

وقالت: «لوكريتيا»، ألم يكن المتحدث «بتمان»؟ كنت متأكدة أنه هو».

تعتقد «أندريا» أنى سأقص عليها الحوار الذى دار أثناء المكالمة، وأن أقول لها إنه كان «بتمان». سوف أخبره ويمكنه الإبلاغ عن تلك المكالمة، فهو رجل شرطة ويعلم أفضل السبل للتعامل مع هذه الحالات.

لا شك إننا نفعل أشياء حين نكون فى حالة حب جنونى، ننظر إليها بعد ذلك بدهشة أتصور أنها دهشة الكبرياء، ويأتى صوتك الداخلى زاعقا: «لا يمكن أن يكون ذلك الشخص هو أنا، لست أنا ذلك الشخص، لا يمكن...».

عندما تزوجت «بتمان» حطّ أبى من قدرى، واعتقد أن «بتمان» وضعنى تحت تأثير تعويذة ما حيث لم أعد ابنته بعدها، وواقع الأمر أنى لم أكن ابنته من قبلها.

كان أبى رجلا عنيدًا، وأنا كنت عنيدة أيضًا.

كنت أبلغ الثامنة عشرة من عمرى عندما تزوجت «لوكاس بتمان»، أى فى العمر الذى يخولنى للزواج على نحو قانونى بولاية نيويورك، لكنى كنت أصغر من أن احتمل برود أبى الذى أحبه تجاهى وابتعاده عنى. كنت أعتقد أنى أكره أبى وكان الحال كذلك ، لكنى كنت أحبه أيضًا، ولن أسامحه أبدًا!

لم توافق أمى على زواجى من «بتمان» بالطبع ولكنها تصرفت بحكمة ، فلم تحل بينى وبين الزواج منه، فقد رأت كيف تغلغل «بتمان» تحت جلدى وطوقنى بتعويذته، وأدركت ذلك منذ كنت فى الرابعة عشرة من عمرى، أى قبل أن يعرف أبى بوقت طويل. كنت فتاة نحيلة شقراء لها عينان ماكرتان، ولأننى كنت أذكى تلميذات الصف الدراسى الثانى فى مدرسة «أو سابل» الثانوية(*)، وكنت أعطى انطباعا أنى لن أفسد حياتى كأية فتاة أخرى تعيش فى أطراف المدينة .

لم أحمل أبدًا، وهذا ما كان «بتمان» حريصًا عليه.

كان «لوك بيتمان» أصغر نائب لمأمور بقسم شرطة مقاطعة «سانت لورانس»، إذ كان يبلغ الثالثة والعشرين من العمر عندما تقابلنا للمرة الأولى، وكان قد تم تعيينه فى أكاديمية الشرطة فى «بوست دام»

(*) Au Sable High.

وقبلها كان ملتحقًا بالخدمة فى سلاح البحرية . كثير من أشباه «بتمان» منتشرون فى أنحاء المقاطعة وأغلبهم يحظى بـ «سمعة طيبة» ؛ وأن يكون لك "سمعة طيبة" لا يعنى شيئًا ذا قيمة إلا إذا تبين سبب تلك السمعة ، كأن تشتهر بالأمانة أو النزاهة أو الالتزام بأخلاقيات المهنة أو أن تكون ملتزمًا دينيًا. كان «إيفيريت رايبورن» أبى - على سبيل المثال - رجلا ذا «سمعة طيبة» فى مقاطعة «سانت لورانس» وما حولها، ومشهور عنه أنه مقاؤل بناء «نزيه»، وأنه رجل «يمكن الاعتماد عليه» و«يحافظ على كلمته» و«مهذب». كان علية القوم فقط من يقدرون على الأسعار التى يعرضها نظير خدماته، وفى المقابل كان أبى يقوم بتشغيل أفضل العمال فى مهنة النجارة والدهانات وأعمال الكهرباء والسباكة. لم يكن والدى بالطبع مهندسًا معماريًا لكنه قام بتصميم منزلنا الذى كان أكثر المنازل فخامة فى «أو سابل فوركس»، فهو منزل متعدد الطوابق ذو طراز تمتزج فيه الأصالة بالمعاصرة فى «ألجونكين درايف». كم كنت أكره أن يكون قلة من أبناء الأغنياء هم أصدقائى فى المدرسة، وأشعر بالراحة والسعادة أكثر مع البسطاء والفقراء.

كان بعضهم على شاكلة «بتمان» من الفقراء، الذين يقطنون العربات المتنقلة، والبعض الآخر يقطن المساكن الريفية القديمة المتهالكة فى محيط المنطقة. «بتمان» نفسه كان من «ستار ليك» فى

منطقة «أديروندداك»[١]، لكنه ترك منزل والديه حين كان فى الخامسة عشرة من عمره، وأخبرنى أنه مرّ بأوقات عصيبة عندما اضطر إلى السكن مع آخرين فى أماكن متجاورة، وإذا كان زواجنا سيستمر فلا بد أن أضمن له «مساحة حرة» .

وعلى التوّ سألته عما إذا كان سيضمن لى أنا أيضا «مساحة حرة»، وردّ «بيتمان وهو يجذب جديلتى كى تؤلمنى «يتوقف ذلك عليك يا صغيرتى».

«كأن لك قانونًا خاصًا بك يختلف عن القانون المتعلق بى؟»

«أنت محقة تمامًا يا صغيرتى» .

لا يمكن الجدال مع «بِتمان»، فسيبادر بإغلاق فمى بشفتيه وإن حاولت الكلام فإنه يكتم أنفاسى؛ أحاول أن أكون جادة معه وهو يضحك علىّ فى المقابل.

والسؤال الذى سيطرح نفسه: كيف قابلت «بتمان»؟. يا لها من قصة! لم أسردها لأحد سوى «أَندريا» .

كنت عند «أندريا» فى الريف أقود دراجتى فى طريق عودتى إلى البيت، فهى تقطن على بعد ميل ونصف من «أو سابل فوركس»[٢]، فى مكان أقرب إلى

(١) Adirondacks منطقة جبلية تقع شمال شرق ولاية «نيويورك» تشتهر بمناظرها الطبيعية البديعة. (المترجمان).

(٢) Au Sable Forks.

القـرية منه إلى المـدينة. وقـد اعـتـدنا أنـا و «أندريا» و«سـامـرز» ركـوب الدراجـات ذهـابًا وإيـابًا طوال الوقت لنرى بعـضنـا، إنه مـجـرد نشـاط كنـا نفـعله، و «أندريا» كان عليها القيام بكثير من الأعمال المنزلية أكثر مما يجب علىّ ، وكـــانت دراجـــتى أحـــدث وأســـرع من دراجتهـا، كما كنت ملولة وقلقة، لذا عـادة ما أكون على دراجتى حـالمـة أتحـرك ببطء وسـلاسـة، أحيـانًا أسـيـر بها بمحـاذاة الساحل غير عـابئة بالسيارات والمـركبات التى تمـر من حـولى. كنّا فى أواخـر شـهـر أغـسطس الشديد الحرارة، وكنت أرتدى «شورت» أبيض قصيرًا و«تى شيـرت» أخضـر وصندلا مـفتوحًا فى قدمى؛ لم أكن صغيرة مثلما كنت أبدو، كانت خصـلات جديلتى الشـقـــراء تنسـدل إلى منتـصف ظهـرى بشكل ذيل حصان، وكانت أظافر قدمى مطلية بلون أخضر ناصع وبراق يصـرّ أبى أن أغطيـه بارتداء جورب أو حـذاء فى أوقـات الطعـام. كنت أحيـانا أبتسم حين أفكر كم كان أبى يتـضــايق أو يتظاهـر بالضـيق، على الأقل تجـاه «المـخـالفـات» لقواعد المنزل من جـانبى. لم أكن أعيـر سـيارة «بِتـمان» التى تـحمل عـلامة نائب مـأمور «سـانت لويس» اهتـمـامًا حين اقـتربت منى وأنا على الدراجـة، ولم أنتبه إلا حين سـمعت صوتًا ذكوريًا يأتى من حيث لا أدرى: «أنت! هـل تحـملين رخـصـة لقـيـادة هذه الدراجة؟» .

لم أكن أعــرف «بِتـــمـان» آنذاك، وبـالطبع لم أكن أعرف استفزازات «بِتمان». لقد اقترب من دراجتى

حتى كاد أن يهشمها، واستبد بى الخوف؛ لأن رجل شرطة ينظر إلىَّ من شباك سيارته متمعّنا ولا يبتسم، وكانت نظارته الشمسية سوداء داكنة للدرجة التى لم اتمكن معها من رؤية عينيه ولم أتوقع بالطبع أنهما ودودتان. كان شعره أسود فاحمًا حليقًا من الجانبين والخلف وتركه طويلا فى أعلى الرأس كعازف موسيقى روك. كم كان عمره حينئذ؟ الحقيقة أنى لم أستطع التخمين، إذ كنت خائفة وكان من الصعب التركيز فى هذا الأمر.

ظل «بِتمان» يسترجع الموقف متضاحكًا مرارًا وتكرارًا أعوامًا متتالية، وأظن أنه كان موقفًا مضحكًا! فهو يطلب «رخصة دراجتى»، وأنا أتلعثم لأنه لم يكن لدىّ رخصة للدراجة بالطبع، ولم أكن أعرف أنه يتوجب علىّ استخراج رخصة لركوب الدراجة... كنت فى الرابعة عشرة من عمرى مذعورة كطفل صغير، وكنت أنادى «بِتمان» «سيدى» و«حضرة الضابط» وفعل هو كل ما فى وسعه حتى لا ينفجر فى الضحك، وأخبرنى بعد ذلك أنه شاهدنى أكثر من مرة فوق دراجتى فى شارع «هانتر» هائمة كأنى فى عالم الأحلام ، أقود دراجة غالية الثمن متناسية المركبات الأخرى حتى وهى تمر قريبة منى. وقد كان يعتقد أن هذه الأميرة الشقراء الصغيرة تحتاج إلى صدمة لمرة واحدة فى حياتها .

لم أستطع استيعاب الأمر على أنه مزحة، فقد استجوبنى «بِتمان» بطريقة لا توحى بذلك، مستفسرا

عن اسمى واسم والدى وعمله وعنوانى ورقم التليفون، وكان يدوّن هذه المعلومات فى نوتة صغيرة فى يده (كان يفعل ذلك فعلا) ، وكنت أوقف دراجتى على جانب الطريق أحاول ألا أنفجر فى البكاء وأنا أنظر إلى «بتمان» الذى سلب اهتمامى، أحسست ساعتها كأن الأرض قد انشقت وإننى أنزلق وأسقط فى داخلها. لابد أن «بتمان» قد رأى اهتزاز ركبتىّ الناتئتين، إلا أنه استمر فى التحقيق بلا رحمة.

يصرّ أبى على أن ـبتمانـ قد ألقى علىّ تعويذة، وحين يكون أبى سليط اللسان يقول إنها تعويذة جنسية، والحقيقة أنى أسلّم أن هذا صحيح: فقد كان تأثير «بتمان» على الآنسات والسيدات تأثيرًا جنسيًا، والحق أنه لم يكن هذا فقط وأقسم على ذلك، لأن «بتمان» يمتلك روحًا تنعكس فى عيونه حين يكون فى حالة مزاجية خاصة، أو تحسها فى حرارة بشرته، كانت روحًا من الاشتعال الخالص، سعادة وحشية غريبة كالكهرباء تتغلغل فيه، ومجرد لمسها كان خطرًا، لكنك لا تملك ألا تفعل!

لا تملك أن تغض البصر عنه ، إنه وسيم حقًا!

«حسنًا، والآن يا «لوكريتيا رايبورن»، بالنظر إلى أنك صغيرة السن فلن أضطر إلى اقتيادك إلى قسم الشرطة ، ربما تكفى مخالفة» .

عندها هرب الدم من وجهى ولابد أن شفتىّ اصطبغتا بلون أبيض ، كنت أرتعش وأقاوم الدموع

حتى لا تنهمر ، وكنت ممتنة أن «بتمان» قد أشفق علىّ. ولكن قبل أن تسنح لى الفرصة لأشكره تساءل كأن فكرة طرأت على باله فجأة: «منذ متى تملكين هذه الدراجة؟ ومن أين اشتريتها؟ وكم ثمنها؟ تبدو غالية الثمن يا «لوكريتيا»، إنها دراجة مخصوصة لصعود الجبال . هل لديك فاتورة شرائها لإثبات أنها غير مسروقة؟» .

كنت على وشك الانهيار فى تلك اللحظة، وكان يتوجب علىّ أن أقول إن الفاتورة ليست معى وأنها قد تكون مع أبى فى المنزل: «أرجوك، هل يمكننى أن أذهب إلى المنزل؟» وهزّ «بتمان» رأسه بجدية قائلا: إنه لا يملك خيارًا إلا مصادرة الدراجة واقتيادى إلى قسم الشرطة فى النهاية: «فلتعرفى يا آنسة «لوكريتيا رايبورن» أنه لابد من أخذ بصماتك ومضاهاتها فى الحاسب الآلى للتأكد أنها لا تتطابق مع بصمات أىّ من اللصوص المعروفين، فما أعرفه هو أنك قد لا تكونين «لوكريتيا رايبورن» وأنك تنتحلين شخصيتها»، كنت أتلعثم قائلة: «أرجوك يا حضرة الضابط، أرجوك»، لكن «بتمان» خرج من سيارة الشرطة ليلوّح مهددًا وهو متجهّم وتنطق ملامحه بالحدة. كان شابًا قوىّ البنية يرتدى زيًا رسميًا من قماش لونه أزرق فضى ويعلّق عليه شارة ذهبية ويتمنطق بحزام به جراب جلدى يحمل فيه المسدس، شعرت بطنين فى أذنى كأنى سيغمى علىّ، وأخذ «بتمان» يدى - ليس بشدة ولكن بحزم - وقادنى إلى سيارة الشرطة

وأجلسنى على المقعد المجاور للسائق كأنه يضع فتاة صغيرة وليس شابة نحيلة الأرجل تبلغ الرابعة عشرة من العمر لها جديلة على شكل ذيل الحصان تصل إلى منتصف ظهرها . لقد لاحظ طلاء الأظافر الأخضر البراق على أظافر قدمى لكنه امتنع عن التعليق. ثم أخرج من حزامه زوجًا من القيود المعدنية كبيرة المقاس للبالغين، وقال دون أن يبتسم : «لا بد أن أقيدك يا «لوكريتيا»، إنه لأجل حمايتك أيضًا»، حينذاك كنت أشعر بالخزى والعار، ولم أكن أعلم كيف سينتهى ذلك الكابوس، وأخذ «بتمان» بلطف ذراعىَّ اللتين ظهرت عليهما نتوءات قشعريرة خوفى منه، وسحبها نحو ظهرى ووضع القيود حولهما محكمًا إغلاقها رغم أنها كانت ضعف حجم معصمى! لم أتبين قط أنه كان يمزح معى فلم يكن المزاح شيمة من شيم عائلة «رايبورن»، حيث كنت الطفلة الوحيدة التى ولدت بعد زمن طويل من زواج والديها وحظيت بتدليلهما لدرجة أنك ستظن أنى مريضة أو معاقة بشكل ما. أخبرنى «بتمان» بعد ذلك انه كان قد بدأ يشعر بالقلق عندما شعر أنى فتاة مسكينة معاقة ذهنيًا ، فقط أشبه أميرة شقراء تملك عينين تشبه عيون الظبى البنية الجميلة، أجمل عيون رآها فى حياته!

«هل تضايقك القيود المعدنية يا «لوكريتيا»؟ إنك لا تقاومين اعتقالك، أليس كذلك؟».

والمضحك أننى كنت خائفة من رجل الشرطة الذى يلوح بيديه مهددًا على نحو مبالغ فيه، وكنت احاول جاهدة الحفاظ على القيود اللعينة من أن تنزلق من معصمى خلف ظهرى بسبب اتساعها.

أخيرًا، ضحك «بِتمان» عاليًا، وأدركت حينها أنه لم يكن جادا . ولم يكن ضحك «بِتمان» شريرًا مثل الضحك الذى تتوقعه من صبية فى مثل عمرى، لكنه ضحك رجولى رقيق يخترق القلب فجأة وبحميمية. اعتقد أنى أحببت «بِتمان» فى تلك اللحظة، وأصبح نائب مأمور مقاطعة «سانت لورنس» الذى أفزعنى حتى الموت هو منقذى، الذى انتشلنى من غرق محتم، وقال : «إذا كانت هذه القيود لا تناسب معصميك، فكيف لى أن أعتقلك؟ أعتقد أنى سأتركك تذهبين إلى حال سبيلك» .

وللحظة قبعت فى مكانى وأنا أشعر بدوار، لقد كان حلمًا مخيفًا ولم أكن أصدق أنى أصبحت حرة.

رائحة الرجل (زيت شعره ، دخان سجائره، اللبان برائحة النعناع الذى يمضغه) قريبة ومتغلغلة فى أنفى، وذلك الشعور به المستحوذ على كيانى (غريب يلمس ذراعى العاريتين!) سيستمر لوقت طويل... طويل جدًا .

آخر ما أخبرنى به «بِتمان» دون أن يرتسم على وجهه أى تعبير أنه لم يحرر لى محضرًا، وقال: «الأفضل أن يبقى ما حدث بيننا سرًا يا «لوكريتيا»».

استقل «بتمان» سيارة الشرطة وانطلق، غير أنى أعرف أنه كان يراقبنى فى مرآة السيارة بينما كنت أعود إلى دراجتى لأركبها وأقودها خلفه وأنا أرتجف ، وشعرت أن الـ «تى شيرت» الذى أرتديه مبلل بالعرق وأن عضلات ساقىّ مجهدة وأنا أقود الدراجة وأن دقات قلبى متسارعة.

لقد حدث لى شىء ما! أصبحت فتاته.

وبعد حادث تقييدى بالأغلال الحديدية بثلاثة أعوام وشهرين وأحد عشر يومًا، تزوجت «بتمان».

تبرأ منى أبى، تخلص منى واستراح! وتبرأت أنا منه أيضًا.

أصبحت زوجة تخلص لزوجها وتهجر كل شىء آخر لأجله، هكذا اعتقدت .

كانت أمى مستاءة مكسورة القلب وغاضبة، لكنها لم تستطع الغياب عن زفاف ابنتها الوحيدة، (سرًا) كانت تكنّ إعجابًا خاصًا بنائب المأمور «لوكاس بتمان».

من الصعب مقاومة «بتمان» عندما يريد هو أن تعجب به، رجل مثله يذعن لأمى ويناديها «السيدة رايبورن» وكأنها أرقى سيدة قابلها فى حياته (ربما كانت أمى كذلك حقًا)، ويناديها «سيدتى» بقدر من اللياقة والاحترام كأنه ابنها، ومثل هذه التصرفات من شأنها أن تنسى أمى اعتراضاتها التى كانت تريد التعبير عنها.

وأخيرًا فى يوم من الأيام احتضنتنى أمى وقالت لى: «زوجك يعشقك بالتأكيد يا «لوكريتيا»، وهذا كل ما يهمنى».

«هذا ما يهمنى أيضًا يا أمى» .

تحدثت ببعض الاقتضاب، فإخلاص الزوجة يجعلها تقف فى صف زوجها وتتحفظ مع أمها، وما عدا ذلك يعدّ خيانة.

عشنا فى المنزل الذى قضينا فيه شهر العسل، وهو منزل شتوى من طابق واحد بالإيجار يقع خارج المدينة. كان «بتمان» يصفّر وهو يدهن المنزل من الخارج بلون أزرق مخضر، وأصبح هذا اللون أكثر سطوعًا وحدة بعد جفافه أكثر مما أظهرت عينة الدهان، وفى الداخل دهنت أنا الغرف بشكل عشوائى: لون أصفر شاحب ولون عاجى، وبالكاد اتسعت حجرة النوم لتضم الفراش النحاسى الذى يقرقع وكنا قد اشتريناه من مزاد بمزرعة ، وكان يكفى بالكاد أن يستلقى عليه شخص أكبر من الحجم الطبيعى وفتاة أقل من الحجم الطبيعى. أحسست بالزهو وأنا أفرشه بأجمل الملاءات والمخدات من ريش الأوز وغطيته بمفرش سرير قديم جميل يجمع بين اللونين الأرجوانى والبنفسجى، وكان هذا الفراش مكانًا للقائنا أنا و «بتمان» أكثر من مرة أثناء النهار، وليس لمجرد النوم ليلًا.

كانت مجرد صدفة أن يكون منزل زواجنا قريبًا من شارع «هانتر» حيث التلال التى تقع شرق «أو سابل

فـوركس»، ويـمكن رؤية جـبل «هـامـر» على بعـد. وتطل غـرفة نومنا على فـرع من نهـر «أو سـابل» الذى تتدفق مـيـاهـه بصـوت كـالرياح المندفـعـة عندمـا يرتفع منسوبها، وعندما ينخفض فى أواخر الصيف يسيل بسلاسة وخفة مصدرًا صوتًا خافتًا مستفزًا. كان منزلنا يبعد عن منزل والدىّ فى المدينة بقدر ٢,٦ ميل بالضبط .

بعد بضعة أشهر من إقامتنا هنا وكل إلى «بتمان» وردية عمل جديدة فى ساعات متأخرة من الليل، وفى مناطق أكثر بعدًا، وكان «بتمان» وزميله فى الوردية يقومان بدورية فى تقاطعات شوارع المدن الجبلية مثل «مالفرن» و «نورث فورك» و«شابروندیل» و«ستونى بوینت» و «ستار ليك»، واستنتجت من الاستياء الذى بدا على «بتمان» أنه لم يكن سعيدًا بهذا العمل، لكنه كان يمزح: «هذا هو المكان الذى يمكن لرجل الشرطة أن يجد مراده فيه، أعالى التلال» .

مما لا شك فيه أنه من غير اللائق أن يمزح رجل شـرطة بهـذه الطريقـة أمـام زوجـتـه، ولكن هـذا هو «بتمان»، وحين يرى الدموع فى عينىّ يعبر عن ندمه ويمسحها بأصابعه الضخمة ويقبلنى بعنف على شفتى، قائلا: «لا عليك يا صغيرتى، لن ينال منى أحد».

هذا هو «بتمان»، لم يكن يخاف، حاد الذكاء ويعرف كيف يحمى ظهره.

كانت تلك الليلة نقطة تحول، أدركت ذلك فيما بعد.

عاد «بتمان» إلى المنزل متأخرا من ورديته الليلية تفوح منه رائحة الجعة، وسقط على الفراش نصف نائم، وعانقنى بشدة حتى شعرت أن ضلوعى تكاد تتهشم . لم يوقظنى من نوم فعلى حيث كنت أتظاهر به، فقد كان يكره انتظارى له وقلقى عليه لذا كنت مضطرة لادعاء النوم، حتى وإن كان المصباح الجانبى مضاء بجوار الفراش والتلفاز مفتوح أيضًا. فى الشهور الأولى من زواجنا كنت ممتنة أن زوجى يعود إلى المنزل سليمًا، وأن أحدهم لم يطلق عليه الرصاص أو أن أحد المجانين ضايقه؛ كنت أصفح عن أى شىء وكل شىء تقريبًا .

أخفى «بتمان» وجهه المتوهج فى عنقى منتفضا كحصان عذّبه الذباب قائلا: «ما يحدث فى «ستار ليك» يا حبيبتى شىء قبيح» .

«ستار ليك» هى البلدة التى نشأ فيها «بتمان»، كان له عائلة فيها وحرص على الابتعاد عنها، كانت جريمة قتل أو انتحار قد وقعت فى غرفة صغيرة فى «ستار ليك»، وقام مخبرون من مكتب المأمور بإجراء التحقيقات، وعرفت من مصادر أخرى أن رجلا من «ستار ليك» خنق زوجته ثم قتل نفسه بسلاح نارى، لم أسمع أن أحدًا من أهل زوجى متورط فى الحادث وتمنيت ذلك بالفعل. كان لـ «بتمان» كثير من الأقارب

يحملون نفس اللقب ولكنى لم أكن أعرفهم، بما فيهم أقاربه الذين يسكنون فى محمية «توسكارورا» [١] للهنود الحمر.

والواقع أنى تعلمت ألا أقحم نفسى فى أشياء تخص عمل «بِتمان» أو حياته الخاصة، وهو وعدنى بدوره أنه سيخبرنى فقط بما يجب أن أعرفه، ولن يزعجنى بأمور يرى أنها تزعجه أو بأمور لا ترغب امرأة أن تعرفها. رجال الشرطة من أمثاله لهم نفس الصفات، فهم لا يجيبون عن الأسئلة لكنهم يسألون فقط، وإن أنت سألتهم عن شىء تصطدم بنظرة حادة تنبعث من عيونهم منذرة بألا تفعل.

تساءل «بتمان» عما إذا كنت أعرف ما هى «العاصبة»[٢] وعلى الفور أجبت أننى لا أعرف ما هى، رغم أنى أعرف فعلا ما هى، إلا أنى أعلم أن «بِتمان» لا يود أن تعرف زوجته التى تبلغ من العمر ثمانية عشر عامًا، والتى تخرجت من المدرسة العليا الثانوية قبل أشهر قليلة، مثل هذه الأشياء. ورفع «بتمان» نفسه فوقى مستندًا على مرفقيه محدقًا فى وجهى. كانت له عينا حصان تبدوان واسعتين مما لا يتناسب مع وجهه، عينان جميلتان فاحمتا السواد محدقتان

---

(١) Tuscarora reservation جماعة «توسكارورا» هم السكان الأصليون المنتمون لقبائل الهنود الحمر الذين كانوا مستوطنين فى شمال «كارولينا»، ويعيش أفرادها حاليًا فى ولاية «نيويورك» و «أونتاريو» (المترجمان).

(٢) Garrot.

اظهر كل منهما حافة من اللون الأبيض فوق قزحية العين، عينان تعبران عن الابتهاج والاندهاش والغضب مجتمعين، ولم تكن عينان تشعرك بالارتياح على أية حال. واستعدت نفسى من تأمل عينيه وسمعته يقول: «العاصبة أداة للخنق أو للشنق وقد تكون أحد شيئين: حبل أو رباط العنق تلفينه حول حلق شخص ما ، وهى ايضًا عصا أو عود معدنى لطىّ الحبل، بحيث لا تضطرين إلى إمساك الرقبة بيديك».

كان «بتمان» يلمس حلقى بيديه أثناء شرحه، ويداه قويتان وضخمتان وأصابعه وإبهاماه تلتف حول رقبتى وتعتصرها، ليس بشدة ولكن بعنف.

ضحكت ودفعته بعيدًا، ولم أكن لأخاف من مزاح «بتمان» .

سألته عما إذا كانت هذه هى الطريقة التى خنقت بها السيدة فى «ستار ليك»، لكن «بتمان» تجاهل سؤالى كأنى لم أسأله ، كان منحنيًا فوقى محدقًا فىّ، تذكرت كيف كان يراقبنى بطرف عينه أثناء حفل زفافنا، وعندما كانت عيناى تلتقيان بعينيه كان يغمز لى. فقط بيننا ـ نحن الاثنين ـ وهج من الانسجام والتفاهم ، أعلم أن «بتمان» كان يفكر فى سرنا الأول عندما قيّدنى ووضعنى فى سيارة الشرطة فى شارع «هانتر» .

كم كان «بتمان» طائشًا! خاطر بكل شىء ليحتال على فتاة فى الرابعة عشرة من عمرها، مسيئًا

استخدام سلطته وهو ما قد يكون من قبيل التحرش الجنسى إذا وضعنا الأمور فى نصابها الصحيح، ولكن كان من المقدّر لنا أن نلتقى كما يعتقد «بتِمان»، نلتقى ويربط الحب بيننا فى ذلك اليوم أو فى يوم آخر، وفى مدينة صغيرة مثل «أو سابل فوركس».

بالطبع لم أخبر أيًا من والدىّ أبدًا ، كان هذا أعظم سر فى حياتى كفتاة كأنه أنهى هذه الفترة من حياتى كصبيّة صغيرة . لم أخبر أحدًا سوى «أندريا» ابنة عمى حين بلغت السابعة عشرة وفى مرحلة متقدمة من المدرسة الثانوية، وأذهلت أبوىّ والمدرسين بقرارى بألا ألتحق بالجامعة كما كنت أخطط وكما توقع منى الجميع .

كنت حينها قد ارتبطت بـ «بتِمان» (سرًا)، وكنت أمارس معه الحب كلما أتيحت لى الفرصة (سرًا).

عاد يقول وهو يتلعثم: «العاصبة تستغرق وقتًا وتخطيطًا، أى فرد يخنق ضحيته يكون متعمدًا ويكمن وراء الفكرة حالة مرضية يا «لوكريتيا»، قد لا تعرفين هذا الأمر» .

أنت محق تمامًا يا «بتِمان»، بالطبع قد لا أعرف! كنت أحاول ألا أصاب بالذعر وأنا أدفع يدى «بتِمان» عنى وأبعدهما عن رقبتى، وقبضت على إبهاميه الضخمين بكلتا يدىّ كما يفعل الأطفال، لم تكن هذه هى المرة الأولى التى يضع فيها «بتِمان» يديه علىّ بطريقة تخيفنى، لكنها كانت المرة الأولى التى يفعلها

ونحن لا نمــارس الحب، والمــرة الأولى التى لم تكن مصادفة .

قال «بتمان» : «إذا خنقت شخصًا فيمكنك خنقه حتى يفقد الوعى بحيث يمكن إفاقته، ويمكن خنقه مرة أخرى حتى يفقد الوعى ثانية ثم إفاقته ، ولا تحتاجين إلى ممارسة أى ضغط بيدك فيداك لا تدخل فى المسألة على الإطلاق. إنها طريقة قاسية لكنها ناجعة، وكانت الطريقة التى استخدمها الإسبان لإعدام أسراهم، الذين تثبت إدانتهم، وهى نادرة الاستخدام فى الولايات المتحدة».

كان هذا حديثًا مسهبًا لـ «بتمان»، كان ثملا أكثر مما كان يبدو للوهلة الأولى وكان فى شدة الإنهاك، وعرفت ألا أخفى أى قلق أشعر به دون أن أرويه لـ «بتمان» لأن كتمانه قد يسىء إليه باعتباره القائم على حمايتى. كل ما فعلته فى تلك اللحظة أننى ضحكت ساحبة يديه بحزم بعيدًا عن رقبتى وانحنيت عليه لأقبله :

«تعال إلى الفراش يا» بتمان فكلانا يحتاج إلى النوم».

وساعدته على خلع بقية ملابسه. كان ضخمًا ومترهلا كالسمكة، وحين اتجهت إلى المصباح لأطفئه كان «بتمان» يغط فى نومه .

لقد كانت تلك هى الليلة التى طرأت لى فيها هذه الفكرة للمرة الأولى: «ما أنا فيه هو العاصبة».

٢ . «يالها من قصة مفزعة! يا لأولئك الناس»

تحدثت أمى بنفور واحتقار، تقول «أولئك الناس» فى إشارة للذين يقتلون أنفسهم وما يكتب عنهم فى الصحف المحلية، وهم أناس لا يعرفهم آل «رايبورن»، ولا يحبون أن يعرفوهم بالطبع .

كنت فى المطبخ فى بيت أمى أقرأ صحيفة «أوسابل» الأسبوعية(*)، ولسبب ما لم نستلم نسختنا من الصحيفة فى بيتى ، وقرأت فى الصفحة الأولى مقالا حول القتل والانتحار فى «ستار ليك» التى تبعد خمسة عشر ميلا إلى الشرق ، كان اللقب هو «بوردوك» وليس «بِتمان»، وآثرت ألا أستفسر عما إذا كان هناك ارتباط بين الاثنين ، فقد كنت أعتقد أن المدن الجبلية مثل «ستار ليك» مدن صغيرة وبعيدة ومن الراجح أن يرتبط سكان تلك المدن ببعضهم البعض أكثر من أى مكان آخر، وإذا كان «بِتمان» على صلة قرابة بالزوجة القتيلة والرجل المنتحر «آموس بوردوك»، فالأفضل ألا أعرف .

«لم أنته من قراءتها بعد»، جلست أمى أمامى فى الجهة الأخرى وهى تدفع بطبق فيه شىء ما باتجاهى، إنه قدر الأم دائمًا أن تغرى الأبناء بالكعك الذى تعده فى المنزل ليستدعى ذكريات الطفولة المفتقدة، لكنى لم آكل حتى أحتفظ بشهيتى لتناول وجبتى الأساسية مع «بِتمان».

(*) Au Sable Weekly.

ثم قـالت: «أظن أن «بتِـمـان» يعـرف كل شـىء عن الحادثة. هل يقوم بالتحريات؟».

لا ذكـر للعـاصـبـة فى المـقـال، فـقط ضـابط التحقيقات يصرح بوفاة ضحية أنثى، هى الزوجة، مخنوقة. كانت معلومة آلة الخنق سرية بالتأكيد، ومن الواضح أنها غير معروفة سوى لعدد قليل من الأفراد.

فقلت لها : «إن «بتمان ليس ضابط تحقيقات يا امى وأنت تعرفين ذلك ، لذا فالإجابة على سؤالك هى: لا».

«خنق ثم إعـادة إلى الوعى، خنق ثم إعـادة إلى الوعى" هذه هى الطريقة التى أغاظنى بها «بتِمان» فى شـارع «هانتـر»: إخافتى ثم التظاهر باللين، ثم إخافتى مرة أخرى. إخافتى بالفعل، ثم اللين: «الأفضل أن يبقى ما حدث بيننا سرًا يا «لوكريتيا».

كانت الموسيقى التى يفضلها أبى هى الأوبرا، وكانت الأوبرا المفضلة لديه هى «دون جيوفانى»(*) التى أحفظها عن ظهر قلب إذ استمعت إليها طوال حياتى مرارًا وتكرارًا، وكان أبى يأخذنا لمشاهدة مسرحيات «شكسبير» التى تعرض على بعد خمسين ميلا من بلدتنا، ولعدة سنوات وفى كل صيف ذهبنا

(*) Don Giovanni أوبرا من فصلين، وأعد التأليف الموسيقى لها الموسيقار النمساوى «موتسارت»Motzart ، وكـان أول عرض لها ٢٩ أكتوبر ١٧٨٧ فى «براغ» (المترجمان).

إلـى «مـهـرجـان شكسـبـيـر» فى «سـتـراتفـورد» بأونتاريو.

كان كل من «دون جيوفانى» و «شكسبير» مكافأتين لأبى تعويضًا عن الزمن الذى قضاه فى العالم المادى وهو يتعامل مع العملاء والموظفين ومواد البناء وجمع الأموال ، أما «بتمان» فقد كان ماديًا تمامًا، وكان يقول لى : «أنت ابنة مليونير كبير يا حبيبتى، فلم لا تغترّين بنفسك. لك كل الحق فى الغرور».

عندما كنت أريد أن أثير غضب أبى كنت أقول له إن العالم ليس «موتسارت» و «شكسبير»، وأن العالم الحقيقى هو موسيقى الغرب وموسيقى الريف ، وهو أيضًا قنوات الكابل التليفزيونية والمراكز التجارية ومجلة «الناس»(*) . كنت أعلم أننى على حق حين يبدأ وجه أبى فى الاحمرار .

كنت تلميذة ذكية متفوقة، ابنة أبى النابغة مثله. أبى رجل وسيم بالنسبة لرجل فى الخمسينات من عمره، له بطن صغير عالٍ وصلب مثل كرة القدم يظهر من خلف قميصه، وعادة ما يكون قميصًا قطنيًا أبيض مكويًا بعناية، وشعر رأسه قد شاب قبل الأوان، وكان حريصًا على حلاقته يوم الجمعة كل ثلاثة أسابيع. لم يتأخر أبى عن الجلوس على مقعد الحلاق فى موعده المحدد، ولما يكد يتخلّى أيضًا عن حمامه اليومى فى الصباح.

(*) People.

كنت أعرف أنى محقة ولكن أبى لم يستسلم أبدًا .

كان أبى يقول: «الأمر ليس كذلك يا «لوكريتيا»، العالم هو «دون جيوفانى» والعالم أيضًا هو«شكسبير»، دونهما ينتقص الجمال».

وأردّ أنا عليه: «لا يا أبى ، العالم موفور الجمال إذا كنت محظوظًا فى الحب».

لطالما ظننت أنى حققت ذلك .

لنعد إلى «لوكاس بتمان» الذى أيقنت أنه رجل يقظ بمجرد أن تزوجته .

كان يهاتفنى طوال اليوم من هاتفه الخلوى، غالبًا من سيارة الشرطة، بصوته المنخفض المثير يقول : «أميرتى الصغيرة لا تختفى أبدًا عن شاشة الرادار» متسائلا عن مكان تواجدى وعما أفعل وماذا أرتدى وفيم أفكر، وهل أتحسس نفسى، وأين!

كان «بتمان» فخورًا بزوجته الأميرة الشقراء الصغيرة، لقد أغوى فتاة مدللة بنت رجل ثرى، ومارس معها الحب حين كانت تلميذة فى المدرسة الثانوية، وتزوجها حين بلغت الثامنة عشرة من عمرها فى تحدٍ سافر لأبيها. كان «بتمان» مزهوًا بحبها الجنونى له لكنه لم يكن يحب أن يطيل الشباب الآخرون النظر إليها، ولم يكن ذلك يظهر بوضوح فقد كان لا بد أن يفعل ذلك بمهارة. كان «بتمان» سريع

الغضب وكثيرًا ما ابتعد عنه أصدقاؤه خاصة حين يكون ثملا .

اعتاد «بتمان» فى عطلات نهاية الأسبوع أن يصحبنى إلى أماكن الرقص فى أماكن ريفية جبلية حيث كان معروفًا هناك، ولفترة بعد زواجنا كان يصحبنى هناك مثلما اعتدنا قبل الزواج، حينها كان «بتمان» يرقص كفتى يتعاطى المخدرات شبيه بمن نراهم على قناة «إم . تى . فى»M.T .V الموسيقية رجلاه طويلتان وذراعاه أيضا ، وتتحرك قدماه بسرعة مثل قدمىّ، ويجذبنى نحوه ويدفعنى إلى الخلف وأنا مرتدية حذائى ذا الكعب العالى والـ «تى شيرت» القصير والبنطال الجينز الملتصق بجسدى لدرجة أن ثنية القماش كانت تؤلمنى فيما بين رجلىّ، وكان «بتمان» يحرك أصابعه فوق تلك الثنية بسرعة وخبث غير عابئ بمن قد يراقبنا. كان «بتمان» تواقًا بجنون للاستمتاع بوقته فى غير أوقات العمل الرسمية، وكان له مجموعة أصدقاء من رجال الشرطة الشبان فى مثل عمره، كنت صغيرة السن ولم أكن أدرك أنه من غير المحتمل أن يرتقى «بتمان» ورفاقه إلى مناصب عليا فى الشرطة، فقد كنت أعشق «بتمان» لدرجة أنى اعتقدت أن رؤساءه فى العمل قد لا يكونون مقدّرين لتهوره مثلما أفعل. وكنت فى فترة ما أتخيل أنه ليس له رؤساء فى العمل. فقد كان يزدرى العمل المكتبى وأجهزة الكمبيوتر وفرق التحقيق، التى تعتمد على تقارير معامل التحليل الجنائية ولا تفعل شيئًا بعد

...، كان يحب أن يظل مرتديًا زيّه الرسمى دائمًا فى ...ارة النجدة وفى حالة حركة دائمة، كان يسعده أن ...ى مسدسه المميز (كاليبر٤٥) يظهر بوضوح أعلى ...اله.

...شأ «بتمان» فى «أديروندداك» صبيًا تربى مع البنادق، واحتفظ فى منزلنا الصغير أثناء شهر العسل ...رسانة من الأسلحة مكونة من بندقيتين من طراز «سبرنجفيلد» ذات الفوهة المزدوجة تحوى كل منهما التى عشرة طلقة وبضعة مسدسات، وأراد أن يعلمنى إطلاق النار حتى يتسنى لنا الذهاب لصيد الغزلان ذات الذيل الأبيض وطيور الحجل معًا، لكنى رفضت قائلة : «لماذا أُقدم على قتل مخلوقات جميلة لم تؤذ احدا؟» وغمز لى «بِتمان» : «اللعنة يا حبيبتى، لا بد ان يفعل ذلك شخص ما». لم أملك إلا أن أحب الفخر الصبيانى الذى أبداه «بِتمان» بمسدسه المميز ماركة «سميث ويسون . كاليبر٤٥» بمقبضه الخشبى، الذى فاز به فى لعبة بوكر ، وكان يزهو أيضًا ببندقيته المتميزة ماركة «وينشستر ـ كاليبر٣٠» ذات الخزنة الملونة والمقبض المصنوع من خشب القبقب، وكان حريصًا كل الحرص على تلميعها بالطريقة التى اعتادت أمى فى بيتنا تلميع آنية الفضة الثمينة، وكانت هذه البندقية هى التى احتفظ بها «بِتمان» محشوة وجاهزة فى أى وقت لمواجهة الدخلاء والمقتحمين. اطلعنى على مكان البندقية فوق رف بالخزانة وعلمنى كيف أخرجها وأحملها وكيف أنزع

صمام الأمان فى وقت الخطر ، ولكن ردود أفعالى حينها كانت مزيجًا من الانزعاج والتمنع والضحك، وألوّح بيدى فى ارتباك : «لا ، لا !» ، شخص آخر سيحمينى ويجب أن يكون زوجى» .

وبينما كنت أصنع وجبة من المحمرات فى مطبخ منزلنا ، كان «بتمان» يحتسى بعض الشراب ويستمع إلى «نيل يونج»(١) وأحيانا «دى دى رامون»(٢) منتشيًا وهو ينظف ويشحم مسدسه الخاص بالخدمة ذا الماسورة الطويلة برقة تتمنى أن تراها فى رجل يقوم بتغسيل طفل. فسّر «بتمان» خوفى من الأسلحة النارية على أنه احترام له وأسعده ذلك. الاحترام! دونًا عن كل القيم احتاج «بتمان» إلى الاحترام، فقد كانت عائلته وأقاربه عامة غير محترمين، يخافهم الناس ويزدردونهم بنفس القدر، أما «بتمان» فقد كان يتمنى أن يخشاه الناس ويحترموه بنفس القدر، وبالطبع كان يسعد بالضحك والاستمتاع بوقته، لكن الاحترام كان يمثل له أهمية خاصة. كان «بتمان» يعلم ازدراء أبى للصيد بأنواعه والبنادق بأنواعها، وكانت له طريقة للإشارة إلى أبى بطريق غير مباشر، كأن يقول: «والدك الموقر» أو «السيد إيفيريت... الذى يدفع لآخرين ليطلقوا النار بدلا عنه»، وكانت تلك الكلمات تفاجئنى كأنما أتيحت لى الفرصة أن أرى عقل

---

(١) Neil Young.

(٢) De De Ramone.

«بتمان» مفتوحًا ومقطعًا كالشرائح وأرى فيه الخبث والمكر والحقد الطبقى والغضب، ثم ينتهى الأمر بعد الحفلات. كان «بتمان يسعد بإزعاجى ومداعبتى بطريقة تشبه ممارسة الجنس أو كمقدمة لممارسته. عندما كان يخبرنى عن المرات التى اضطر فيها لاستخدام مسدسه، كان يسحب البندقية ويصوبها نحوى كما تدرّب ويصرخ محذرًا: «ضعى يديك حيث يمكننى أن أراهما! ضعى يديك حيث يمكننى رؤيتهما! تقدمى إلى الأمام ببطء!»، إنه لا يملك خيارًا سوى إطلاق النار. ومنذ تعيينه نائبًا لمأمور المقاطعة اضطر إلى إطلاق النار على اثنين وقتلهما وجرح آخرين. لم يكن منفردًا دائمًا ولكن مع شريكه أو آخرين من رجال الشرطة، كان من النادر أن يستخدم رجل الشرطة السلاح منفردًا. هل شعر بأى ندم؟ لا، اللعنة!. لم يحدث أن تعرض للتأنيب لاستخدام القوة المفرطة، فقد تم التحقيق فى واقعة إطلاق النار وتمت تبرئته منها، وفى مناسبة أخرى نال «بتمان» تقديرًا لإنقاذه حياة زميل له، لم يكن يحلم بإطلاق النار فعليًا كما قام به، لكنه كان يحلم دائمًا بأن يكون أكثر حرية فى إطلاق مزيد من النيران، مستمتعًا بإطلاق وابل من الرصاص.

ابتسم «بتمان» ابتسامته الخفيفة وهو يخبرنى بذلك، شعرت حينها بضيق فى التنفس.

كان مطلوبًا من مأمور مقاطعة «سانت لورنس» أن يأمر نوابه بإطلاق رصاصتين فقط على الهدف إذا ما أطلق الهدف رصاصة واحدة :

«لم ذاك؟ ماذا لو غيرت رأيك؟».

«لا تغيير».

«ولكن إذا ارتكبت خطأ ...؟».

«نائب المأمور لا يرتكب أخطاء» .

ضحك «بتمان» على ما أقوله، فى تلك الأيام لم أعرف أبدًا إذا ما كنت أتظاهر بالدهشة لما يقول أم أنى كنت مصدومة فعلا. أرى تلك النظرة الحادة تنبعث من عينيه. مال نحوى وسحب خزانة مسدسه على جانب فخذى ببطء بطريقة جعلتنى أعرف أنه يشير إلى شخص ما يكنّ له التقدير، واستطرد قائلا: «إن المسدس «كاليبر٤٥» ليس موظفًا له الحق فى الفرص المتكافئة» .

وأتذكر الآن المرة الأخيرة التى اصطحبنى فيها «بتمان» للرقص .

ذهبنا إلى حانة متواضعة تطل على بحيرة «هامر». كان قد مضى على زواجنا ثلاثة أعوام ، وكنا نذهب مع أزواج من أصدقاء «بتمان» (لم أكن ألتقى بأصدقاء الدراسة إلا لمامًا حيث كانوا فى الجامعات، وعندما يعودون لزيارة عائلاتهم كنت أختلق الأعذار لكى لا أراهم). كنت ما أزال الأميرة الشقراء التى يتباهى بها

«بتمان» ، وكنت ما أزال أحبه توجسًا مما قد يعنيه ألا أحبه . يدوى صوت الموسيقى عاليًا من صندوق الموسيقى، موسيقى تجعلك تضحك، موسيقى سيئة لكن لها إيقاعًا صاخبًا وساحرًا يجعلك ترقص وكأن الأرض تشتعل سخونة من تحتك؛ ببساطة لا يمكنك أن تقاوم الإيقاع. شعرت بيدى «بتمان» القوية حول ضلوعى وشممت رائحة نفسه ودهان شعره، وشعرت باشتياق عارم لأبى وأمى ومنزلنا فى جادة «الجونكوين» .

كان «بتمان» بعينيه الحادة يعرف أى انحراف يحدث فى مزاجى :

«أين ذهب عقلك يا صغيرتى؟ يبدو أنك ذهبت بعيدا»

كنت ثملة ، بعض الكئوس المتتالية أثملتنى . أغنية «سوف أحيا»(*) تنطلق بصخب من صندوق الموسيقى .

ضحكت، وأخفيت وجهى فى صدر «بتمان» وحركت ذراعى حوله وضغطت بشدة على جسده وسمعت نبضات قلبه الواضحة وكأنه قلبى أنا .

جال بخاطرى حدث وفاة «ريد لوميس» زميل «بتمان» وصديقه المقرب ، فمنذ ذلك الحادث الأليم بدأ «بتمان» يشرب الخمر فى الصباح .

(*) I will Survive.

كان ذلك فى أوائل إبريل، ولم يكن ذلك بعيدا عن موعد بدء المكالمات المجهولة.

وألحّ على السؤال: هل كان هناك علاقة؟ نعم، أخمن أنه لابد وأن تكون هناك علاقة، ولم أحاول التفكير فى ماهيتها .

لا أنكر أن «ريد لوميس» كان محل إعجاب، فقد أحبه كل الناس، وكان من أكثر الرجال ودًا وله وجه ممتلئ وقصير الشعر يشبه حكمًا للمباريات فى مدرسة ثانوية أكثر من كونه نائبا لمأمور المقاطعة. كان يكبر ـبِتمانـ بستة أعوام وأكثر ضخامة منه، وقد طلب من «بِتمان» أن يكون أبًا روحيًا لابنه وتأثر «بِتمان» كثيرًا بهذا الطلب، وقال لى ذات مرة: «المرة الوحيدة التى يسمع فيها المرء كلمة «روحى» مقترنة مع «بِتمان» تتم فى هذا السياق».

وما عرفته أن «لوميس» توفى بسبب انتشار سريع للسرطان فى البنكرياس، ولم يكن «بِتمان» بالطبع هو من أخبرنى بذلك ، فلم يكن ليستطيع ترديد هذه الكلمات، فقد كان مصدومًا ومشتتًا كأنه يحملق فى ضوء مبهر يذهب بالبصر ولا يستطيع حماية عينيه، وكان يتمتم "لا يمكن أن أصدق أن «ريد» قد رحل إلى الأبد». لقد لاحظ «بِتمان» فى الآونة الأخيرة أنه يقود سيارة الشرطة معظم الوقت لأن «لوميس» كان يعانى من الصداع وزوغان البصر، لأن خلايا الدم البيضاء كانت تتزايد بجنون جراء مرض السرطان وذلك هو

التشخيص الطبى، ومات «لوميس» بعد ذلك بأسابيع قليلة.

فى لحظة ما توقف «بتمان» تمامًا عن الحديث عن لوميس فجأة، وإن أردت الحديث عنه وبخنى بشدة .

وكثيرًا ما حاول «بتمان» أن يخفى عنى أنه يثمل فى الصباح، وفى أحيانٍ أخرى لم يفعل.

«لن يعود «ريد» بما تفعله يا حبيبى، لم تفعل ذلك بنفسك؟» .

(هل قلت هذه الكلمات؟ هذه كلمات نقولها أحيانًا، صدقونى) .

ونظر إلىّ «بتمان» مندهشًا كأنه اكتشف فجأة أنه تزوج من امرأةٍ مختلة عقليًا: «ليس هذا من أجل «ريد» يا حبيبتى ، هذا من أجلى».

أحيانًا عندما كان «بتمان» يسمع صوت شهيقى، وأراه يتصرف كحيوان يهب للدفاع عن نفسه ويدفعنى بعيدًا عنه بقسوة :

«ابتعدى عنى ! لا تلمسينى».

ثم يخرج من الباب ويرحل.

كان الجو قد أصبح باردًا، وبدأت ارتدى قمصانًا بأكمام طويلة لأخفى الكدمات، وأضع وشاحًا حول رقبتى وطبقات من المكياج على وجهى الشاحب النحيل وأحمر شفاه بلون مبهج، مما يجعلك تظن أنى سأنطلق فى الغناء .

لم أخبر «أندريا» بكلمة واحدة، وبالتأكيد لم أخبر أمى.

ولم أخبر أبى الذى كان يبدو أنه يراقبنى منتظرًا.

فى ذلك الوقت كان قد مر على زواجنا أربع سنوات، وما زلنا نقطن ذلك المنزل الصغير المكون من أربع غرف فى شارع «هانتر»، وفهمت أن أبى قد سامحنى. لم يقل أبى شيئًا عن زواجى ، فقد مضى وقت طويل ولم أطلب منه نقودًا! ولو مرة واحدة مما أثر فيه . والواقع أن أبى عرض علينا أنا و بِتمان المال فى عيد الشكر لشراء سيارة جديدة لتحل محل السيارة الشيفروليه «ماليبو» Malibu موديل ١٩٨٨ التى نملكها، لكن «بِتمان» رجل ذو كبرياء لا يقل عن كبرياء أبى، وعرفت أن أقول : «شكرًا لك يا أبى، لكن لا!» .

كانت أمى تتصل بى نهارًا غالبًا، وحين أرى على شاشة الإظهار «إ. رايبورن» أعرف أنها أمى. أحيانًا كنت ألتقط سماعة الهاتف بشغف كطفل وحيد، وأحيانا أخرى كنت أبتعد ساخرة . .

إن أمى سيدة مرحة! رغم أنها حريصة، وهى امرأة ذكية كانت تدرك مزاج حماتها، وتعلمت ألا تسهب فى الإجابة عن أسئلتها. أمى تسأل عنى وعن «بِتمان» وأقول لها «إنه بخير وأنت تعرفينه، وأنا أيضًا بخير، ماذا عنك وعن أبى؟» .

كانت كلمة «بخير» البلهاء كحشرة تلتصق بالجلد والتصقت بمفرداتى اللغوية عنوة ، تسبب الحكة ويصعب التخلص منها. كان لا بد من لحظة فضفضة أخبر فيها أمى بالكثير، وربما كانت هى تعرف أكثر مما أتوقع وأعتقد ذلك إلى حد بعيد، فمدينة «أو سابل فوركس» مدينة صغيرة ينتقل فيها الكلام بسرعة .

أوقات صباح وأوقات ظهيرة! أوقات بطيئة تنقضى إلى أن يحل المساء .

يا له من فصل ربيع مزعج كما قال «بتمان» ، فالأمطار تهطل بشدة ووحل كثير لدرجة أن الناس استخدموا ألواح الخشب الثقيلة ليتمكنوا من المشى فى الطرقات .

فجأة تهطل الأمطار بشدة وتسرب الأسقف المياه، وكأى شخصية كاريكاتيرية وضعت الأوانى والأوعية وصوانى الخبز لتلتقط قطرات المياه ، ثم تنقشع السحب وتبزغ الشمس الساطعة. تشعر حينها أن قلبك ينفتح على الحياة، وخرجت لأتجول مرتدية حذائى المطاطى فى شارع «هانتر» عبر ممرات المزارعين والحقول، تجولت كثيرًا بجوار نهر «أو سابل» حيث يندفع الماء المختلط بالوحل كسيارة مسرعة . هذا جزء لا يتجزأ من ولاية «نيويورك» حيث تجذب السماء انتباهك؛ لا، ليست الجبال، التى تغطيها الأشجار غالبًا، ولكن السماء تجبر عينيك

على النظر لأعلى، هنا توقّع دائمًا أن ترى شيئًا ما في السماء لا تستطيع أن تسميه لكنك تعرف أنك لن تراه في أي مكان آخر .

كان هذا هو الوقت الذي أرسلت فيه أطلب بيانات من كلية «كورنل» بجامعة «سانت لورنس» وجامعة «ماك جيل» في مونتريال ، وأخفيتها في الخزانة تحت المناشف والملاءات حتى لا يراها «بِتمان» .

كانت «كورنل» هي المكان، الذي خططت للذهاب إليه قبل أن أقع في غرام «بِتمان» .

ولكن ... ربما لم يكن الأمر كذلك، ربما وقعت في غرامه ذلك اليوم في شارع «هانتر» وما تبقى من أحلامي وضعته على قائمة انتظار.

نحن لا نفكر أبدًا أننا سنتقدم في العمر، أو حتى أن وجوهنا ستتغضّن.

أسعد أيام حياتك. آه يا لوكريتيا...

كانت أمي تبكي وتتذمر مني، فقد كان ذلك هو عامي النهائي في مدرسة «أو سابل فوركس» الثانوية .

في ذلك العام هجرت أغلب ما كنت معتادة على القيام به، وكنت أتغيب عن الحصص الدراسية، ومشوشة التفكير كأني أقود سيارة بسرعة وأنا ثملة. كان المستقبل مع «بِتمان» واعدًا في المشهد العام، لكن استباق الأحداث بسرعة لا يعطيك فرصة للتفكير السليم .

فكرى فيما تخليت عنه لأجل ذلك الرجل إنه يسدك يا «لوكريتيا»، ترغبين فى إنجاب أطفال.

حينذاك صفعتها ، صفعت أمى. رأيت يدى تتطلق صوبها ورأيتها تجفل منتفضة. لم أخبر أحدًا بهذا الموقف ولا حتى «بِتمان» .

لم أكن أود أن يعرف «بِتمان» الوضاعة، التى تتخفى فى قلب أميرته الشقراء .

توقف أبى عن التدخل وحافظ على مسافة بيننا، مسافة الرجل النبيل فى الأشهر الأخيرة. وبينما كنت لم أزل ابنته وأعيش فى منزله، لم يكن يثق فى نفسه ليتحدث معى .

اللعنة! أقسمت ألا أبكى، ولن يستطيع أىّ من والدىّ أن يجعلنى أبكى، فلم أعد ابنتهما العذراء فقد كنت حينها فتاة «بِتمان» وقد أُصبح زوجته. أتريد أن تعرف إن كان قد مارس معى الحب؟ نعم، مارسناه بالطريقة التى علمنى إياها. لا أحد سيجعلنى أبكى فأنا لا أبكى إلا على «بِتمان». فى كل هذا العالم، «بِتمان» فقط هو من يستطيع ذلك.

الشىء الوحيد الذى فعلته أمى بالاتفاق مع «بتمان» كان التنسيق لإقامة زفاف فى الكنيسة، زفاف كنسى حقيقى محدود تم تنظيمه على عجل، وهدد أبى بعدم الحضور لكنه كان رجلا نبيلا فى نهاية الأمر، فقد حضر بالطبع وكان وجهه بلا تعبير ويبتسم غصبًا، واضطر أن يرى «لوك بِتمان» يلكز

ابنته عند المذبح فى جنبها وهى ترتدى ثوبها الأبيض ويبتسم لها ابتسامة عريضة مميزة لشاب سيئ السلوك وهو يغمز بعينه .

كنت أعيد طلاء الحمام بطلاء أكثر جودة هذه المرة .

ابتسمت أو كنت أعتقد أنى أبتسم؛ فى مراحل حياتنا علينا تقديم التنازلات، فحين نكون فى المدرسة الثانوية نتوق إلى الانتهاء منها، فقد كانت مثل السجن الذى تكرهه، وتتذكره بحنين عندما تخرج منه.

لم أتخلّ عن المدرسة فى النهاية، وحضرت حفل تخرجى مع الآخرين، وكانت الدرجات التى حصلت عليها فى الفصل الدراسى الأخير أسوأ درجات حصلت عليها فى حياتى الدراسية، ولم أتفوق فى مادة واحدة. إن لم أكن قد حطمت قلب أبى بزواجى من رجل يعتبره أبى وضيعًا من فقراء «أديروندداك»، فلاشك أننى كنت سأحطم قلبه بحصولى على تلك الدرجات الدراسية المزرية .

ما زلت أقوم بطلاء الحمام باللون العاجى فلم أسمع رنين الهاتف.

كانت المكالمات الهاتفية المجهولة تتم فى المساء أو فى منتصف الليل بينما لا يكون «بِتمان» فى المنزل، أى أن المتحدث كان يعرف جدول مواعيد «بِتمان» أو يعرف أن سيارته خرجت فى دورية.

أو أن يكون المتصل هو «بِتمان» نفسه يقوم بأحد الاعيبه الصبيانية .

فى بعض الأحيان أتوجه إلى الهاتف منتظرة الرنين، وينطلق الرنين وأرى على شاشة الإظهار «غير مسجل» ، وابتسم وأقول فى نفسى : «لن تستطيع. ليس لك سيطرة على . لست أخشاك».

لم أجب أبدًا، ومحوت تسجيل المكالمة دون الاستماع إليها.

حسنًا، ربما أكون قد استمعت مرة أو مرتين، والصوت كما أتذكره أجش ذو لكنة كندية، وكنت أظن أنه صوت أحد النواب من زملاء «بتمان» أو أحد أقاربه أو حتى أحد أعدائه ، كنت أعرف أنه ليس شخصًا أعرفه :

«مرحبًا.. أعرف أنك هنا يا فتاتى، أعرف أنك تسمعيننى، لم لا ترفعين السماعة يا فتاتى؟ أأنت خائفة؟».

توقف وتنفس بوضوح فى سماعة الهاتف :

«سيدة المنزل السيدة «بِتمان»، ذلك الخنزير؟! أنت وحيدة تمامًا».

توقف آخر .. (هل يحاول ألا يضحك؟).

«ربما لست وحيدة تمامًا، أليس كذلك يا فتاتى؟».

لم تكن هذه طريقة «بتمان» فى الحديث، تلك الحروف الممطوطة بالطريقة الكندية. ولكن قد يكون

فى الأمر خدعة ، وربما كان ـبِتمانـ واقفًا بجوار المتحدث لينصت .

وبعد هذه المكالمات ، كان هناك شىء ما غريب بيننا أنا وـبتِمانـ عندما عاد إلى المنزل، أعتقد أن شيئًا ما كان يكدر صفونا، ولا أظن أننى كنت أتخيل ذلك . كان ـبتِمانـ ينتظر منى أن أشكو له من تلك المكالمات (هل كان يريد ذلك حقًا؟) ، لكن الوقت قد تأخر الآن . لقد تعددت تلك المكالمات ، فإذا كان المتحدث شخصًا آخر فسيصبح ـبتِمانـ خارج السيطرة ، ولابد أن أعترف أنه كان سيلقى علىّ باللائمة وهو فى فورة غضبه .

كان لى بعض الأصدقاء من الشباب فى المدرسة لكنهم كانوا مجرد صبية ، ولم يكن لى أية علاقات حميمة مع أى منهم ، وكان ـبتِمانـ يعرف ذلك ولكن يحتمل أن يكون قد نسى ، فهو شخص غيور وشكاك . لمَ لم أخبره بعد أن تلقيت المكالمة الأولى؟ لم أستطع أن أخبره ، لكن ربما كان هو!

قد تعجبه أى كلمة أحيانا ويظل يرددها فى كلامه، وتساءلت عما إذا كان ذلك مقترنًا بمن يشربون الكحوليات .

فكلمة وجه مثلا :

كان ينادينى: وجه الطفلة، أو وجه الملاك.

أو: «لا أريدك أمام وجهى يا «لوكريتيا».

أو : «هل تريدين أن أحطم وجهك اللعين؟» .

لقد كان «بوردوك» أحد أقاربه بالفعل، لقد خنق زوجته وأطلق النار على نفسه ، ولم أعرف هذا من «بتمان» بالطبع فلم يحدثنى قط عن أقاربه. أعتقد أن والدته لا تزال على قيد الحياة، وله أخ أكبر غير شقيق فى سجن "آتيكا" يقضى حكمًا بالسجن لمدة ثلاثين عامًا أو إلى أن يموت .

كانت ثورة غضب «بتمان» تشبه اللغم، الذى تتطاير شظاياه من الداخل إلى الخارج. «بتمان!» ذلك المجنون، تلك كانت الكلمات اللطيفة التى يقولها الرجال للتحدث عن صديق محطم، وكان بعضهم يحضر «بتمان» مغشى عليه إلى المنزل وهو ثمل، تاركًا السيارة الشفروليه «ماليبو» بعيدًا بقرب بحيرة «تابر»، واضطر إلى اصطحابه فى الصباح لاستعادتها. فى شهر يونيو طارد «بتمان» سائقًا ثملا غرب وخارج «مالفرن» فى الطريق ٣، ونتج عن هذه المطاردة أن شابًا (يبلغ عشرين عامًا من محمية «توسكارورا») انتهى به الأمر بالارتطام بسيارته فى الجسر وانفصل جزء من جمجمته عن رأسه. لقد دافع مأمور المقاطعة عن نائبه (علنًا) لكنه عنفه فيما بعد (سرًا)، وتحدث «بتمان» عن ترك وظيفته والعودة إلى التطوع فى سلاح البحرية، ويبدو أنه عندما كان ساخطًا وغاضبًا لم يكن مدركًا أنه قد

أصبح فى الثلاثينات من عمره ولم يعد الشاب المتهور ذا الثمانية عشر ربيعًا، فقد تراكم الشحم حول خصره وأصبح شعره الأسود الفاحم أقل كثافة تتخلله شعيرات رمادية، ولم يعد «بتمان» يحتمل سهر الليل ليحتسى الخمر، ولم تعد تكفيه ثلاث أو أربع ساعات ليستعيد قواه وصفاء ذهنه وقدرته على مواجهة يوم جديد .

كان «بتمان» يهاتفنى من سيارة الشرطة قائلا: «أهلا يا فتاتى، إنه صباح طويل ممل، ألن يأتى وقت الظهيرة؟».

قد تدمن الغضب، يشبه مذاقه الحمض الحارق، لم أعتقد يومًا أن «بتمان» مجنون، فقد كان حاد الذكاء ويحافظ على نظام حياته، ولا يعيبه إلا ذلك الغضب بداخله، ولم يكن للأمر علاقة بوفاة «ريد لوميس»، إن تلك المدن الجبلية الصغيرة تفقد بريقها، و«بتمان» نفسه يموت موتًا بطيئًا، وكان يتصبب عرقًا فى الفراش ويئن ويصرّ بأسنانه. فبعد وفاة الشاب فى الطريق ٣ أصر «بتمان» أنه لم يكن مخطئًا وأنه نفذ الإجراءات واستخدم صافرة الإنذار بالسيارة وأضواءها، وكان الشاب يملك رخصة منتهية الصلاحية وقد يكون ذلك هو ما دفعه لزيادة سرعته إلى حوالى ثمانين ميلا فى الساعة فى طرق جبلية حادة الانحناء تضيق حتى تصل إلى الجسر المكون من حارة واحدة. إنه مجرد شاب ثمل ينتهك قواعد

المرور. قال لى «بِتمان» إنه لم يكن نادمًا، ولم يسرق الندم النوم من عينيه بسبب هذه الحادثة .

فى ظهيرة يوم من أيام الأحد رقد ـ بِتمان ـ بجوارى فى الفراش ممسكًا بى بين يديه كما لو كنا نغرق معًا، ولم يتركنى لمدة ٤٥ دقيقة ، عندئذ توسلت إليه أن يتركنى مصرة أنى أريد الذهاب لقضاء حاجتى، فهل كان يريدنى أن أبلل الفراش؟.

«لن تخونينى أبدًا يا «لوكريتيا»، هل ستفعلين؟» .

كان يتصل بى من سيارة الشرطة عن طريق جهاز اللاسلكى ، ولا يظهر على الشاشة هذه المرة «غير مسجل» ولكن «اتصال لاسلكى»، ومن ثم كان يمكننى الرد على المكالمة إذا رغبت فى ذلك . كان ينادينى «فتاتى» أو «حبيبتى» قائلا إنه يحبنى ولم يقصد يوما إيذائى وأننى الشىء الوحيد، الذى يحبه فى حياته البائسة، ويدعو الرب أن أعرف هذا وأنه سيعوضنى. يقول إنه يمر بأوقات عصيبة الآن ويتوسل إلىَّ أن أسامحه، ويقول إنى أميرته وأنى لم أختف أبدًا من على شاشة راداره .

رنين الهاتف، وبتلقائية أرفع السماعة :

«نعم؟ آلو؟».

كأنك تشعل عودًا من الثقاب! بنفس هذه السرعة! «غير مسجل» لم يكن مستعدًا لسماع صوت آدمى، وسمعته يلتقط أنفاسه، فقد فاجأته وقد أكون

صدمته، أخذ منه الأمر بضع ثوانٍ ليستجمع نفسه.

وبنفس الصوت الأجش الساخر والوقور يقول : «السيدة «بتمان» سيدة المنزل؟» وأسمع نفسى أقول : «من المتحدث؟»، وتوقف عن الكلام كأنه لم يكن يتوقع سؤالى هذا أيضًا، ولم يكن يتوقع صوتًا نسائيًا غير هيّاب ولا وجِل :

«صديقك يا لوكريتيا، أنا صديقك».

هنا شىء مثير، الطريقة، التى نطق بها لو...كري...تيا .

لم يحدث أن سمعت «بتمان» ينطق اسمى بهذه الطريقة. فى الشهور القليلة الماضية لم ينادنى «بتمان» باسمى على الإطلاق ، فقط «حبيبتى» أو «أنت» .

هذه هى المرة الأولى التى أسمع فيها صوت محدثى الحقيقى منذ تلك الليلة، التى هطلت فيها الأمطار بغزارة فى إبريل الماضى، والوقت الآن هو أواخر شهر أغسطس. «بتمان» ليس موجودًا وأنا أشاهد الأخبار فى التلفاز وأتنقل بين قنواته. كان الوقت يقترب من منتصف الليل، ولم يكن فى البرامج سوى الأفلام القديمة وإعادة لحلقات مسلسل «القانون والنظام»، وكنت أستلقى على فراشى النحاسى الذى يصدر صريرًا، و«اللحاف» اليدوى الجميل الذى تهرأ من غسله عدة مرات مطوىّ على

حافة الفراش، وأرتدى ثوب نوم بلون الشمبانيا اشتراه لى «بتمان» عند زواجنا ، ولم أكُن أرتدى شيئًا تحته بالطبع. كنت ما زلت أشعر بالدفء والتوهج بعد الاستحمام ومازالت آثار مساحيق التجميل على وجهى. لا يهتم «بتمان» بوجوه النساء الخالية من الزينة ، عرفت ذلك من بضع إشارات لمح بها فى هذا الشأن، أحاول أن أبدو جميلة له بحكم العادة وليس مهمًا إن كان يلاحظ ذلك أم لا، وليس مهمًا أيضًا إن كان موجودًا أم لا. أحمل فى يدى كأسًا كبيرًا من الروم البويرتوريكى، من زجاجة خمر اختلستها من خزينة أبى الخشبية فى المرة الأخيرة التى زرت فيها بيتنا فى جادة «ألجونكوين».'إنه خمر لا يشربه أبى أبدًا، والزجاجة شبه المملوءة كانت قد وضعت خلف الزجاجات الأخرى فى الخزانة .

لم أكن أفرط فى شرب الخمر لكى أثمل، فقط كنت أريد أن تبدو الأمور أقل حدة.

أتحدث بصوت خشن: «صديقى من؟ من هو صديقى؟ أريد صديقًا، صديقًا، أحتاج بشدة لصديق».

يدق قلبى، تلتوى أصابع قدمى وتتشنج، كم أود أن أرى وجه الرجل، الذى يحدثنى، وسيفاجأ بى ويشعر كأن أحدًا جذبه من بين ساقيه!

تبدأ مباراة بنج بونج بيننا الآن، فيسألنى عن سبب احتياجى لصديق فأجيبه ذلك لأننى وحيدة، ثم

يسألنى عما أرتديه وأنا أجيبه أننى أرتدى الثوب ذا الزر الواحد، الذى أُهدى إلىّ فى عيد ميلادى. يا له من أمر مضحك! أضحك حتى يهتز الفراش النحاسى وتنسكب زجاجة الخمر على بطنى عندما قهقهت، ويقهقه من يهاتفنى أيضًا، ذلك الذى يسمى نفسه صديقى قائلا: إنه يتمنى رؤية ثوب عيد ميلادى، وأقول إننى كنت قد انتهيت توًا من الاستحمام وأننى وحيدة تمامًا بعد خروجى من الحمام، ويقول «هل تحتاجين مساعدة لتجفيف جسمك؟» وأقول «لا... ربما..»، ويقول «سأبدأ بصدرك، حلمات ثدييك...»، وأشعر بتقطع أنفاسى وأضحك ضحكًا مؤلمًا كنصل سكين ينغرس فى جنبى، يقول هو كلمات أخرى كثيرة ولا أستطيع سماعها من فرط الضحك. «إنك تلقين بحياتك بعيدًا يا «لوكريتيا»، كانت أمى تبكى وهى تقول لى ذلك، إنها حياتى التى ألقى بها، إنها حياتى أنا فاتركينى وشأنى. كنت أفكر: من يحدثنى هو «بِتمان»، إنه يختبرنى، وسوف يقتلنى.

ربما كان يجب أن أقول: «بِتمان»؟ أعرف أنه أنت، تبًا لك يا «بِتمان»، تعال إلى البيت فأنا وحيدة.

وبدلا من ذلك ألقيت بسماعة الهاتف وظللت أحدّق فى إصبع قدمى الكبير، ولاحظت أن لى ساقين نحيلتين فى بياض الشمع، كما لم أضع طلاء على أظافر قدمى منذ سنوات، بعد عدم ملاحظة «بِتمان»

له فى المرة الأخيرة. تبدو ساقىّ الآن ذابلة كأقدام سيدة عجوز ولم تعودا ساقى فتاة يافعة.

ليساعدنى الرب طريقة للتعبير، قد تضحك على مثل هذه العبارة التى تنمّ عن يأس شديد حتى تجربها بنفسك .

ما فعلته كان لأمنعه من إيذائى، ولأحافظ على مسافة بيننا، وفقط لأخيفه. كنت أعتقد أنى أستحق الإيذاء من «بِتمان» لكننى كنت أفزع من أن يؤذينى فعلا، وأتخيل أصابع الرجل تلتف حول رقبتى وتحيط بها لتعتصرها ، أو أن يدفع رأسى «ويضرب ويصفع!» فى الحائط. كنت كمن يتذكر أن ذلك قد حدث فعلا، وربما أصدر ظهر الفراش النحاسى صريرًا وقرقعة ذكّرتنى!

«لن تخونينى أبدًا يا «لوكريتيا»، هل تفعلين؟».

أبحث بتوتر فى خزانة بنادق «بِتمان»، ويهتز المصباح المعلق فوق رأسى، هذه الخزانة التى طالما تجنبتها كراهية لأسلحة «بِتمان» وخوفًا منها، أمقت أسلحته! أريد الآن بندقية، وتذكرت بندقية صيد الغزلان التى لم أرها منذ سنوات لكنى أعرفها جيدًا : تلك البندقية ذات الماسورة الطويلة المصقولة ذات اللون الأسود الذى يميل إلى الزرقة ومقبضها الخشبى اللامع، إنها محشوة وجاهزة.

وصمام الأمان مفتوح .

لقـد كنت طائشـة وارتكبت خطأ، تصـرف خـاطئ طائش من مخمورة. يمكن للآخرين أن يصفحوا، ولكن ليس «بِتمان».

كانت البندقيـة أثقل وزنًا ممـا توقعت ولا تلائمنى، قـد تظن أن البندقـيـة أفـضل فى اسـتـعـمـالهـا من المسدس، لكن هذه البندقيـة كانت غير مناسبة لى وثقـيلة فى يدى. الواقع أننى أفـقت تمـامًا من سكرة الخـمـر كـمخلوق تم سلخـه حيًا، وقلبى يخفق بجنون داخل صـدرى، وأنفـاسى مـتـسـارعـة وغـيـر منتظمـة، ويصعب علىّ تركيز نظرى.

أحـاول البـحث عن مـوقع الزناد، وكـيف تتـواءم أصابعى معه.

كان يود تعليمى، ثم سـخـر منى، فقـد كنت الأميـرة الصغيرة ابنة أبى الذى يكتفى بأن يطلق الآخرون النار بدلا عنه.

وصل «بِتمان» إلى المنزل مبكرًا، وكانت تلك علامة خطر. فى الأيام الأخيرة كان يسهر فى الحانات حتى تغلق أبوابها فى الثـانية بعد منتصف الليل، ولا يصل إلى المنـزل قبل الثانيـة والنصف، لكن هذه الليلة أرى مصـابيح سيـارته الأمـامـيـة على الطريق فى السـاعـة الواحدة تمامًا.

كنت أنتظره وأنا مـخـتـفـيـة ، وكنت فى حـالـة من الرعب لا أدرى ماذا سأفعل .

من العبث أن أهرب فأنا زوجة «بِتمان»، ولا يمكن لزوجته أن تتوارى عنه فى أى مكان، فإن هربت إلى والدىّ فسيجدنى وسيعاقبهم هم أيضًا.

دخل «بِتمان» من الباب الخلفى متجهًا إلى المطبخ ولم يبذل جهدًا ليعلن عن وجوده، فقد كان يتعثر فى الأشياء ويسب ويلعن. فى غرفة النوم حيث أقبع خلف خزانة حفظ الملابس وسط رائحة الخمر المسكوب ورائحة البخار المعطر الذى ينبعث من الحمام، والتلفاز مفتوح ولكن دون صوت، وسماعة الهاتف ملقاة بعيدًا عن مكانها ، فقط كان المصباح بجوار الفراش متوهجًا، وعلى حافة الفراش النحاسى كان اللحاف الملون بمربعات من اللونين الأرجوانى والبنفسجى مطويًا بعناية. غالبًا ما كان «بِتمان» يدفعه بعيدًا فى الليل، وفى الصباح أعود وأفرده فوق الفراش بعناية، وقد اعترف «بِتمان» أن اللحاف «لطيف» مثل الأشياء الأخرى التى كنت قد أحضرتها للبيت ، هذا إن كانت الأشياء «اللطيفة» محل اهتمام حقًا .

كنت قد وضعت البندقية الثقيلة أعلى الخزانة مصوبة نحو باب الغرفة، اعتقد أن ذلك كان استراتيجية لطفل يائس، وأمل أن تتدخل العناية الإلهية، فأنا لا أعرف كيف أستخدم سلاحًا ناريًا ولكنى أعرف كيف أصوبه ثم أغمض عينى وأجذب الزناد. قد تتجلى العناية الإلهية فى أن يكون ـبِتمانـ قد أخرج الرصاص من البندقية.

«أهلا حبيبتى، ماذا يحدث؟» .

وقف «بِتمان» يترنح فى مدخل الغرفة، وكان وجهه مكفهرًا متجهمًا ولكنه حائر، وامتلأت جوانب فكيه بالشعيرات الصغيرة فهو لم يحلق ذقنه منذ الساعة السادسة من صباح أمس ، كانت عيناه هما عينا «بِتمان» : عينا الحصان الزجاجية لكن متيقظة. أشعر براحة فى هذا، أفكر فى أنى لن أشم رائحة امرأة مرة أخرى على جسد «بِتمان»، ولن أضطر أن أشم رائحة الغضب الذى ينضح من مسامه. ظهرت ابتسامة خفيفة على وجه «بِتمان»، قد تكون مجرد ابتسامة ساخرة ولكنها فى الغالب ابتسامة للإغاظة:

«حبيبتى، من الأفضل أن تحددى هدفك بحرص بهذا الشىء اللعين، ولك طلقة واحدة قبل أن أكون فوقك» .

٣. «ما سنفعله يا «لوكريتيا» هو أن...»

إنه أبى الذى جاء فى الليل لمساعدتى، متجهم الوجه ومرتجفًا لكنه متحمل للمسئولية، كان يرتدى ملابس التقطها بعشوائية فوق بيجامته، ويقول لى وهو يلعق شفتيه مكررًا: «ما سنقوله يا «لوكريتيا» هو...»، كأنه كان يجد صعوبة فى نطق الكلمات .

كنت قد اتصلت تليفونيًا ببيت أبى حوالى الساعة الواحدة والربع بعد منتصف الليل ولم أتصل بالنجدة، هذا ما سيظهره سجل الهاتف.

كم من الوقت انقضى حتى وصل أبى؟ لا أعرف.
..ت على الأرض فى غرفة المعيشة المظلمة؛ حيث
وجدنى، وبسبب الهدير الذى كان فى أذنى لم أستطع
أن اسمع كل ما قاله أبى وكان عليه أن يمسك بكتفىّ
ويهزّنى بلطف. هذا الوجه المنهك الشاحب ليس
بالضبط هو وجه أبى الوسيم، لكنه بالتأكيد وجه
«إيفيريت رايبورن»، ولم أستطع تذكر الوقت، الذى
أصبح فيه شعر رأسه خفيفًا. قادنى إلى الحمام
لأغسل وجهى وأمشط شعرى الملبد، غسلت فمى
الممتلئ برائحة الروم، لكنى لم أستطع دخول غرفة
النوم، فدخل أبى وأحضر لى ملابس وصندلا،
وضحكت عندما نظرت للصندل!. لم أنظر إلى غرفة
النوم منذ وصول أبى، وعندما حضر وذهب ليرى
«بِتمان» حيث وقع كنت أصرخ بجنون : «هل مات يا
أبىَ؟ مات، أليس كذلك؟» .

طلب أبى رقم النجدة ٩١١ وطلب رقم محاميه
الذى يسكن فى «كانتون» .

«نعم يا صغيرتى، لقد مات» .

كانت البندقية التى كانت ثقيلة فى حملها لأرفعها
فى يدى وأصوبها ملقاة على الأرض فى غرفة النوم
حيث سقطت، ورأى أبى البندقية لكنه لم يلمسها،
وانحنى على جثة الرجل ورآها لكنه لم يلمسها.

أطلقت منها طلقتين، فلم تكف الطلقة الأولى
لوقفه.

وعلى بعد سمعت صوت صافرة إنذار سيارة الشرطة، وكان من النادر أن تسمع صوت صافرة إنذار سيارة الشرطة أثناء الليل فى مدينتنا، كنت أجلس على الأريكة فى غرفة المعيشة بإحساس الكائن الذى تم سلخه حيًا، وهى حالة تصورت أنها حالة نقاء وصفاء روحى؛ كنت أجلس بالطريقة، التى أرادها والدىّ أثناء تناول الطعام: فى وضع مستقيم ، والرأس للخلف، فخورة وأكتاف غير مترهلة، أبدًا.

الآن نحن وحدنا فى هذا المنزل الذى لم يزره أبى من قبل، بدا أبى مرتبكًا وأخرق، ويتنفس بسرعة ممسكًا بيدى بين يديه. قبل أن يصبح أبى مقاولا غنيًا كان يصنع الخزائن والأثاثات الخشبية، وما زال يعمل بيديه أحيانا لذا تجد يديه قوية وخشنة. أحب ملمس يدى أبى، رغم أن أصابعه لم تكن دافئة على ما أتذكر. يدا أبى أكبر كثيرًا من يدى.

أبى يبتلع ريقه بصعوبة ويحاول السيطرة على تنفسه وهو يسمع صافرة إنذار سيارة الشرطة تقترب، ويقول لى مرة أخرى ضرورة أن أقول الحقيقة بالضبط كما حدثت، ولماذا اضطررت لإطلاق البندقية لأنقذ حياتى.

وكل ما أدى إلى ذلك ؛ كله... :

«لا تقولى إلا الحقيقة يا «لوكريتيا».

هذا ما سأفعله، فليساعدنى الرب.

مهرجة فى شارع ماديسون

قيل عنها إنها شخصية ضحلة وتافهة، وبرغم أن رائحة أكثر العطور الفرنسية إغواء تفوح منها (لو اور راو) فإنها تخلو من أى جاذبية. وقيل عنها، وهى زوجة الرجل الثرى، إنها بلا روح، وتهامسوا عليها بقسوة وضحكوا عليها من خلف ظهرها؛ لكنها روحى هى التى أبحث عنه باستمرار! أينما استطعت وكيفما كان.

كانت تبحث عن روحها فى شارع «ماديسون»، كانت روحًا مراوغة كطيف يختفى ويعود ليختفى منها مرة أخرى، وفى محلات «برادا» و«جوتشى» و«نوتيكا» و«أرمانى»، وفى «باكاراه» و«إيف سان لوران» كانت عيناها القلقتان تختفيان خلف عدسات سوداء كبيرة، وفمها المتوتر يتوارى وراء أحمر شفاه بلون أرجوانى يلمع كالبلاستيك، وهى تجيل عينيها بين انعكاسات واجهات عرض بيوت الأزياء فى ذلك السبت المشمس

من شهر أكتوبر، محلات «ديور» و «رالف لورين» و«كالفن كلاين» و«ريكى». ها قد جاءت السيدة «ج» ترتدى ثوبًا حريريًا بلون الصدف وساقاها محاطتان بجورب حريرى شاحب يفصح عن رشاقتهما، وحذاء فاتح اللون ذا كعب يصل إلى ثلاث بوصات، وتلف حول عنقها بغير إحكام وشاحًا برتقاليًا صارخ اللون يزيغ الأبصار . تحرك انعكاس صورتها التى تسير على غير هدى على النافذة العريضة لمحلات «شنغهاى تانج»، وكانت تبدو صغيرة كالأطفال، رغم أن السيدة «ج» لم تكن طفلة، فهى فى السابعة والثلاثين من عمرها أو فى الثانية والأربعين كما يتهامس البعض. وعند واجهة عرض محلات «ستيوبن» رأت انعكاسًا لصورة دون أن تدرك أنه انعكاس لصورتها، أو تدرك أنه انعكاس لها هى شخصيًا، فقد غيرت من هيئة شعرها الأشقر بلون الشمبانيا ظهر اليوم السابق لدى كوافير «جب جب»، عند تقاطع شارع ماديسون وشارع ٧١، وقصّت شعرها بأناقة بحيث يتأرجح حول وجهها، الذى غطته بقناع محكم من الماكياج ويحيط به، فبدا وجهها كأنه يد منقبضة. هل هذه هى أنا؟ هل من المفترض أن أعرفها؟

لم يرحمها أحد، ولم يكن ذلك عدلا أو إنصافًا.

كانت تعرف أنهم يضحكون عليها من خلف ظهرها، فقد كانت تنفق آلاف الدولارات سنويًا على آخر صيحة فى موضة الملابس والأحذية ومكملات الزينة

والعناية بالجمال ، ومع ذلك فما يقال عنها إنها لا تملك أى حس جمالى للموضة ، وقال عنها أقارب زوجها السيد «ج» إنها الزوجة الثانية (أو الثالثة) له، وانها لا تملك حسًا للحياة الأسرية ، أما النساء ذوات البشرة الداكنة اللاتى يقمن بالتنظيف والطهى ويخدمنها هى والسيد «ج» فوجوههن تضىء بابتسامات مشرقة لها ، ولم يخطئن فى مناداتها بالسيدة «ج» بطريقة توحى أنها من الأسرة المالكة، اما فى غير وجودها فقد كن ينفجرن ضحكًا عليها، ويدّعين أن تلك الساقطة شديدة البخل وقاسية القلب ومجنونة، فهى تظهر لك الحب اليوم وقد تبدو مشمئزة منك وغاضبة فى اليوم التالى، وتصرخ وتبصق وتبكى ثم تعتذر وتصرخ ثانية، وقد تتعثر فى كعبها العالى وتضطر أن تلحقها وتمسكها من تحت ذراعيها اللتين تفوح منهما رائحة تزكم الأنوف مهما كانت كمية العطر، الذى رشّت به نفسها، وقد تنهار على طاولة المطبخ وهى تلهث كالكلب وتفرك عينيها بكف يدها كأنها تتمنى أن تزيل أى رؤى قد تكون رأتها، «أين هى؟ هل ضاعت؟ كيف ضاعت؟ أعدها إلى»! وقد تتولد لديك رغبة فى أن تريحها، ولكن... لا! فالسيدة «ج» هى الآمر الناهى فى المنزل، وهى الدكتاتور الذى يعيّن وينهى خدمة العاملين فى المنزل، وهى التى تكتب الشيكات بيد مرتعشة وتخطئ فى كتابة الأسماء ، عليها اللعنة!، وتكتب تاريخًا أو شهرًا أو سنة خطأ ، ثم تقطع الشيكات

وترمى القصاصات على أرضية مطبخها الفاخرة: «لا أحد يتلاعب بى! أبدًا»! وإذا ضاع من تلك الساقطة الغنية ساعة ذهبية أو خاتم ماسى أو قرط بلاتينى مرصع باللؤلؤ أهداه لها السيد «ج»، فاحذر!، وإذا صرخ ضيف مخمور على العشاء أن حقيبتها قد نهبت وسرق ما فيها من نقود، فاحذر! فأنت الذى فعلتها وأنت اللص، وأنت أو «ماريا» عاملة غسل الملابس أو صديقك الأسود، الذى تتهمك السيدة «ج» بأنك أدخلته من مدخل التوصيل وهى تصرخ: «ما الذى يمكن أن يمنعه من العودة فى أى ليلة ليقتل الجميع؟» (ليس مهما أنه ليس هناك صديق أصلا! أى رجل هذا، الذى يجرؤ على الزيارة فى بيت كالقلعة يملكه رجل غنى ويحرسه كوكبة من الحراس ورجال الأمن؟).

أيها الأوغاد البيض، أعناقكم تستحق أن تقطع.

السيدة «ج» تسمع هذا لأنها تقرأ العقول! وتلمع عيناها التى تشبه عيون الخنازير بالخوف، وترتعد شفتاها الرفيعتان كالديدان.

«لقد فقدت شيئًا، ما هو؟ وأين؟ هل أخذته يا ماريا؟».

تقوم «ماريا» أحيانًا بحمل السيدة «ج» تقريبًا، وتدخل بها إلى غرفة النوم الرئيسية لتنعم بقيلولة كالإغماءة!

تتصل السيدة «ج» بالسيد «ج» هاتفيًا عشرات المرات يوميًا بلا انقطاع فى شقة الدور العلوى من

- لال هاتفها الخلوى الأنيق صغير الحجم، وقد تطلبه وهى فى غرفة القياس فى محل أزياء «أرمانى»، أو وهى فى مقهى فى «البلازا»، أو وهى تصعد على السلالم المتحركة فى متحف الفن الحديث، أو وهى تهتز على المقعد الخلفى لسيارة تاكسى أصفر يلمع منتقلة فيه من مكان لآخر: «آلو؟ آلو؟ آلو حبيبى؟ قررت ألا أحضر الحفل الصباحى، فأنا أشعر بنوع من... أشعر أنى محبطة إلى حد ما»، لكن السيد «ج» رجل غنى ومشغول وغامض، ويبدو أنه لا يستقر فى مكتبه أبدًا ليستقبل مكالمات زوجته الهاتفية، وبالطبع تستطيع السيدة «ج» أن تترك له رسالة مع أحد مساعدى السيد «ج» إذا أرادت، لكنها عادة تنهى الاتصال بالسباب واللعنات: «اللعنة عليك! أنا أكرهك! اتتخيل أنى لا أعرف ما يحدث؟ أقسم لك إنك ستندم يومًا ما» .

إن نسوة فى عمر السيدة «ج» توافيهن المنية، فزوجات الرجال الأغنياء اللاتى يتوفر لهن أفضل علاج طبى لسن بمنأى عن سرطان الثدى وسرطان الرحم وسرطان الدم، يبدو أن هذه الأمراض كانت موضة فى الصيف الماضى! فالسيدة «ك» فى «إيست هامبتون» أصابها المرض وماتت، وكذلك السيدة «س» فى «فاين يارد»، وعرفت السيدة «ج» أن السيدة «د» - عارضة الأزياء المرموقة سابقًا - كانت فى السادسة والثلاثين من عمرها عندما قرأت النعى فى صفحة الوفيات بجريدة «تايمز»، وهى نفس السن

الرسمى للسيدة «ج»« (بعد هذه الصدمة توقفت السيدة «ج» عن قراءة صفحة الوفيات بجريدة» تايمز). إن السيدة «ج» ليست مضطربة العقل أو الأعصاب، فهى عضو فى نادى صحى فى وسط المدينة لكنها لا تملك وقتًا للذهاب إليه، وهى عضو فى «كنيسة الموحّدين ـ مانهاتن» لكنها أيضًا لا تملك وقتا للذهاب إليها. كما كانت تحضر إلى شقة السيدة «ج»، ولمدة ثلاثة أسابيع فى الشتاء الماضى، مدربة خاصة حيث بدا ترهل عضلات السيدة «ج» واضحًا للعيان، وكانت قد وصلت فعلا إلى نوع من الاستمتاع بالإيروبكس وتمارين رفع الفخذ، لكنها لم تستطع القيام ببقية التمارين، فالجزء العلوى من جسدها ليس فيه أى قوة، فهى تنفث فى الهواء وتلهث وهى تركض فى مكانها ثم تنهار على بساط التمارين ودموعها تسيّل الماسكرا فى عينيها إلى خطوط على خدّيها، أما مدربتها الخاصة، التى تحيط أذنيها بأحد عشر قرطًا ذهبيًا، فقد كانت تصدر صوتا كالعطس فى محاولة لمنع الانفجار فى الضحك على زبونتها الساقطة الثرية.

أنهت السيدة «ج» التعامل مع المدربة الخاصة، حيث اتصلت بها هاتفيًا وتركت لها رسالة موجزة على جهاز الرد الآلى: «من فضلك لا تعودى، لا أود رؤيتك ثانية. أرسلى لى فاتورة حسابك ولكن لا تتصلى بى».

قد يكون التسوق فى الصباح مرهقًا، فقد تتنقل السيدة «ج» فى محلات «بيرجدورف جودمان» و«ساكس» و «برج ترامب»فيما بين شارع «ماديسون» وشارع ٥، وبين المحلات الصغيرة الأنيقة إلى المحلات الكبرى الفخمة باحثة باستماتة عن الحزام الأمثل، الذى يتوافق مع بنطالها الحريرى ماركة «جاريبالدى»، وهو أفضل ثوب يمكن أن ترتديه فى حفل زفاف ابنة أخيها الصغرى فى «راى - كونيكتكت»، وتبحث أيضًا عن الحذاء الأنسب للثوب الحريرى الأسود ماركة «أمالفى» الذى سترتديه للأصدقاء فى حفل جمع التبرعات لمكتبة نيويورك العامة. وتقارن السيدة «ج» الأسعار مع صديقاتها بينما تتناول وجبة خفيفة قبل الغداء، أو وهى تتناول الغداء أو وهى تحتسى الشاى أو الكوكتيل. إن التسوق فى الصباح يفتح الشهية، وعادة ما تلتقى بنساء مثلها، فإذا رأيتهن فى المرآة المسطحة اللامعة الملونة خفيفًا فى هذا المحل أو ذاك لظننت أنهن أخوات، فهن يتشابهن فى نمط قصة الشعر بلون الشمبانيا والخواتم البراقة كالشموس الصغيرة والشفاه اللامعة المبتسمة والضحكات الطويلة الحادة المفاجئة. ربما لسن صديقات بمعنى الكلمة ، لكنهن معارف ودودون، فبعضهن زوجات أصدقاء أو زملاء عمل السيد«ج»، أو سيدات قابلتهن فى الحفلات الخيرية، أو أصدقاء مكتبة نيويورك العامة مثلا، أو قد يكونون معارف من أصدقاء متحف الفن الحديث، أو من أصدقاء جمعية

محو الأمية؛ وكلهن على شاكلة السيدة «ج»: فهن زوجات رجال أغنياء لهم أبناء مراهقون سيئو الأخلاق، ويخضعن لعمليات تكبير الثدى، ويكنّون العداء لأقارب الأزواج، ويتم حقنهن بحقن الكولاجين، ويضعن أقنعة تجميل الوجه، وتفوح منهن رائحة العطور الفرنسية ، ويتعاطين ما يصفه الأطباء من أدوية نفسية مثل «زاناكس» و «بروزاك» و «سيرينتيل»، ويستمعن للنصائح بشأن التعامل مع الخيانة الزوجية، وأجسامهن لا تزيد عن ٩٩ رطلا ومشدودة كالقوس. إنك ترى رءوسهن كالجماجم وهن يبتسمن تنعكس على مرآة ذات إطار معدنى لامع فى مطاعم راقية مثل «لو برنادين» أو «شانتريل» أو «لو سيرك» أو «جان جورج»، والمداخل الفخمة لتلك الأماكن هادئة ووقورة كالكنائس الصغيرة؛ إن السيدة «ج» صاحبة الوزن المثالى التى ترتدى مقاس ٦ تخشى زيادة الوزن وتناضل للإبقاء على وزنها دون زيادة، وتقصر طعامها بصرامة على الخضراوات المشوية والسلاطة الخضراء وعليها بضع قطرات من عصير الليمون وحساء اليوم، الذى يقدمه المطعم إذا كان من الخضراوات وبدون دسم. ومثل من يشبهنها فى رعشة الرموش والأيدى غير المستقرة وتلك النظرة الحائرة الباحثة فى العيون... عن ماذا ؟ عن أى هيئة أو عن أى شىء؟، وتشرب السيدة «ج» المياه الفوارة فقط، وربما كأس صغير من عصير الطماطم، وإذا كانت فى صحبة قد تشرب كأسًا صغيرة من النبيذ الأبيض

(«واحدًا فقط!» وتقهقه السيدات معًا وهن يقسمن على ذلك). إن الوجبات ضئيلة فى حجمها ولكنها تتطلب أكثر من ٩٠ دقيقة لتناولها، كما أن هناك طقوسًا لا بد من اتباعها، وذهاب وإياب إلى الحمام، وترك بقشيش متوسط أو سخى مقابل الخدمة. يحب الجميع السيدة «ج»، انظر فقط إلى الابتسامات المرحبة من رئيس النادلين والنادلين ومساعديهم، كل العيون مثبتة على السيدة «ج»، ذلك الوجه المتبرج الذى لا يحمل تعبيرًا، والحقيبة، التى تحمل علامة «جوتشى» وساعة يدها ماركة «كارتييه» وملابسها الحريرية من «شانغهاى تانج»، وترى «لويس» والجميع يرحبون بها فى «لا جريل» وينحنون لها أحيانا: «أهلا بالسيدة «ج»! أهلا سيداتى! إنه يوم جميل، أليس كذلك؟ أهلا بالسيدات الجميلات». عيون جشعة وشفاه مزمومة وأسنان مطبقة، ربما يكون حسدًا وكراهية وبغضًا، والسيدة «ج» تريد أن تضع كفيها على عينيها حتى لا ترى، وعلى أذنيها حتى لا تسمع، ولكنها تتقدم إلى الأمام بشجاعة، إذ كيف يمكنها أن تتراجع؟ وأين؟ رغم أنها تعرف فى أعماقها أن فى مطعم «نيكى» الواقع فى حديقة «جراميرسى»، كان هناك عامل فى المطبخ مصاب بمرض الإيدز، وكان يتعمد جرح يده بالسكين لتنزل قطرات من الدم فى حساء العدس والباذنجان البيوريه، الذى تلتهمه السيدة «ج» وصديقاتها بمنتهى السعادة؛ إنها تعلم! كما أنها تعلم أنه فى قاعة الطعام الرئيسية فى «بيير»

يسخر منها «المتردوتيل» من وراء ظهرها، وفى «لوتيس» يتغامز الجرسونات الإيطاليون، الذين يحومون حول طاولتها برشاقة بما يفهم منه بوضوح أنه عدم احترام واحتقار، وفى «لو تراوب» و «كيوتينا» و «ريجنسى» و«فور سيزونز» يبصق الجرسونات فى طعامها عادة، أو يضعون إصبع إبهامهم فى كأس النبيذ الأبيض خاصتها على أمل إصابتها بعدوى مرض معوى.

تلك الأصوات التى تسمعها من وراء ظهرها كأنها امرأة بغىّ تضع عطرًا فرنسيًا ثقيلا فى النهار، والجرسونات الإيطاليون الأجلاف يهزءون بها ويحتقرونها ويطلقون عليها عبارات من قبيل «الساقطة البيضاء» ثم يضحكون؛ مع ذلك لا تزال السيدة «ج»، مثل رفيقاتها، تترك بقشيشًا متوسطا أو سخيًا، فهل هناك بديل؟

لا يمكنها البقاء فى المنزل، فى غرف شقة الدور العلوى، التى لا يسمع فيها ضجيج السيارات إلا كطنين، وصوت متقطع لمثقاب الأسمنت وطائرات الهليوكوبتر والطائرات التجارية فى السماء، يا إلهى، إنها فى الطريق إلى الجنون! هى تعرف ذلك. أين ضاعت؟ ما الذى ضاع منها؟ ومن الذى أخذه؟ لقد أخطأ الجميع حين ظنوا أنها المفترسة وقد كانت الفريسة، وأخطأوا حين حكموا عليها بأنها مجرد زوجة أنانية لرجل غنى، وهى من يفكر فى كل شخص

«وعلى أى شخص» قبل أن تفكر فى نفسها (مثلا ابنتها «ميرديث» البالغة من العمر أربعة عشر عامًا، هى فى الواقع ابنة زوجها، وتعيش مع زوجة السيد «ج» السابقة فى جنوب «سنترال بارك»)، وكلما رأت السيدة «ج» تتصنع الغثيان وترسل نظرات الكراهية بعينيها الزرقاوين الرائعتين. يا لقسوة المراهقين!)، لقد أخطأ الجميع بظنهم أنها وقحة وقاسية القلب ومتغطرسة وعدوانية ومتبرمة ودائمة الشكوى، بينما كانت هى فى الواقع خجولة، نعم، كانت خجولة !كانت خجولة وكان عليها ببساطة أن تتعلم تأكيد ذاتها، فقد كانت تخشى بيوت الأزياء الراقية فى شارع «ماديسون»، وتخشى الفنادق والمطاعم الفخمة، وتفزع من المتاحف حيث يعتريها إحساس بالتعب كأنها قبر مفتوح على مصراعيه معدّ لفتحات أنفها الحساسة ، وينتابها نفس الإحساس فى المعارض المحدودة ومعارض الصور، كما حدث لها مثلا فى متحف «جوجنهايم» (*) وفى «متحف الفن الحديث»، فهى تعانى من رهاب الأماكن المغلقة. «أنا أكره هذا المكان ولا أريد أن أكون هنا. لماذا أنا هنا ؟ عم ابحث؟»؛ ولا يمكن أن تدخل السيدة «ج» إلى مرحاض عمومى أبدًا، أو حتى مرحاض فى منزل خاص ليس منزلها دون أن تضع عازلا من ورق «الكلينكس» فوق

(*) متحف «سولومون ر. جوجنهايم» للفن الحديث Solomon R. Guggenheim Museum، تأسس عام ١٩٣٧ ويقع فى الجانب الشرقى من ولاية «نيويورك» (المترجمان).

قاعدة التواليت ثم تغسل يديها بغزارة بالصابون ثم تجففهما تمامًا. ولكن مع هذا، «هل أنا فى أمان؟ كيف يمكننى أن أحمى نفسى؟» لم تكن ترتاح أبدًا إذا ركبت عربة يقودها سائق غريب، كسيارة أجرة أو غيرها، ومع ذلك كانت تعتمد على وسائل المواصلات هذه فى كل يوم من حياتها. وفى بعض الأيام تعود مرهقة من مغامراتها، فتذهب مترنحة إلى شقة الدور العلوى سعيًا لحمام طويل تخلد بعده إلى قيلولة عميقة، بعد أن تضع مانعات الضوء وفوقها قطعة قماش دافئة مبللة لتريح عينيها، وفى أيام أخرى كانت تحتاج إلى كل قواها لتخلع حذاءها وتغوص فى فراشها فتنام قيلولتها العميقة على الفور، فتبدو مثل جثة ملفوفة فى ثياب جميلة تغوص حالمة فى أعماق المحيط.

صباح يوم السبت فى منتصف أكتوبر، والشمس تشتعل كأنها عين نارية ضخمة مفتوحة على اتساعها، «عم كنت أبحث؟ اليوم سأعرف، أنا واثقة أنى أعرف»! . كانت السيدة «ج» إحدى المتسوقات الكثيرات فى شارع «ماديسون» تلك الظهيرة، ومعظمهن نساء من مختلف الأعمار ولكن غالبيتهن فى عمر السيدة «ج»، بالإضافة إلى عدد من الفتيات هنا وهناك فى عمر «ميرديث» كلهن يسرن بأهداف محددة تشرئب وجوههن بالأمل. واجهات العرض البراقة والمداخل المرحّبة لمحلات «ديور» و «رالف لورين» و «كالفن كلاين» و «ريكى» و «شانغهاى تانج» و«كريل»، ومانيكانات لعرض الملابس تقف كأيقونات

اراها المتسوقون . تمعن السيدة «ج» النظر فى محلات أزياء «برادا» ثم «كيزيا» ثم «فراو فراو»، واحيانًا كانت تختلط عليها الأمور فلا تعرف إن كان انعكاس صورتها الذى تراه على واجهة العرض لها حقًا ام أنه لمانيكان غريبة حقيقية. ما زالت تبحث عن الثوب الأمثل الذى سترتديه فى زفاف ابنة أخيها الصغرى ، فالأمل يحدوها أن تجد ثوبًا أفضل من البذلة السوداء الحريرية التى ارتدتها فى جنازة أخى السيد «ج» الأكبر . إنها تبحث أيضًا بتعجّل صبيانى عن الهدية اللائقة لـ «ميرديث» ابنة زوجها بمناسبة عيد ميلادها الخامس عشر فى الثامن من نوفمبر (من أى المحلات تتسوق «ميرديث» الجميلة وصديقاتها؟ من المؤكد أنهن لا يتسوقن من شارع «ماديسون» مثل أمهاتهن ، ولكن من محلات على بعد أميال من وسط المدينة فى «سوهو» حيث المحلات مطلية باللون الأسود وأسقفها مغطاة بصفيح مطروق وتدوى منها موسيقى الهارد روك، وتتحدث البائعات بلهجة لا تفهمها السيدة «ج»). غادر السيد «ج» فى رحلة عمل هذا الأسبوع إلى أستراليا، وربما المملكة العربية السعودية أو تايوان، وخلت حجرات شقة الدور العلوى الاثنى عشر وباتت مهجورة باستثناء الخادمات اللاتى يثرثرن بطريقة كلغو الطير لا تستطيع السيدة «ج» فهمه فضلا عن أنها لا تثق فيهن. «أعرف أنهن يتحدثن عنى ويضحكن علىّ»!. وفى هذه المنطقة المألوفة من شارع «ماديسون»

تستطيع السيدة «ج» أن تتنفس، وأشعلت سيجارة بأصابع مرتعشة ، فلم يكن التدخين ممنوعًا فى الشارع حتى ذلك الوقت (ليس بعد)، أليس كذلك؟ إنها امرأة سعيدة ومتلهفة على الشراء، امرأة تقوم بمهمة محددة. كان شعرها القصير يعطيها ثقة ما، وكذلك البذلة الحريرية والحذاء الجلدى الجديد، الذى يرتفع كعبه ثلاث بوصات، «لم يقل هؤلاء الأوغاد إننى لا أمتلك حسًا للموضة؟»، ثم خرجت السيدة «ج» من شارع ٨٦ مثل الحجيج، ثم قررت فجأة أنها لن تتصل بزوجها هذا الأسبوع، ستنتظر أن يتصل بها هو!

حملقت فى شبح صدفى اللون فى واجهة عرض بيت أزياء «برادا» المظللة، كانت هيئة تشبه السيدة «ج»، أم أنها هى فى الواقع، انعكاسها الطيفى؟ وقفت بثبات وهى تميل برأسها على أحد الجوانب وساعدها يتحرك فى حركة عشوائية، وعيناها زائغتان لا تركز فى شىء محدد. مجموعة من المانيكانات بوجوه بيضاء مسطحة وعيون فضية عمياء وشفاه متباعدة، ومن الغريب أنها صلعاء . وعندما تحركت السيدة «ج» وهى تدخن سيجارتها بعصبية تحرك معها طيفها أيضًا، فأدركت أنها هى شخصيًا، فضحكت.

«ما زلت امرأة على قيد الحياة».

دخلت الردهة الفسيحة الأنيقة داخل بيت أزياء «برادا» ، حيث ينتظر الباعة المتأنقون، الذين يشبهون

...حة المفترسة زبائنهم الأغنياء، ويتحركون نحوهم
...لاسة دون أدنى صوت، كانت السيدة «ج» قد قضت
...امات طويلة فى هذا المكان لكنها الآن تشرح
...وت متسرّع ما تبحث عنه اليوم، فهى تريد حزامًا
...دًا لفتاة جميلة على وشك أن تبلغ الخامسة عشرة
... عمرها، أو أى مكملات أخرى للأناقة أو قطعة
... مميزة من الملابس ولابد أن تكون مميزة جدًا، ما
...دا ... ماذا حدث؟ كانت سيجارة السيدة «ج» تلوث
الهواء، «التدخين ممنوع هنا يا سيدتى، نأسف لذلك»،
وتضحك السيدة «ج» وهى فى حالة ارتباك وضيق؛
لأنها نسيت سيجارتها مشتعلة، وفجأة تصورت أن
احدا من العاملين فى «برادا» وضعها بين أصابعها
ممزحة، «من أين أتى هذا الشىء الكريه؟» ثم غمزت
لأحد الباعة الذى كان نحيلا وأنيقًا، ولكن المزاح كان
قد فقد مذاقه؛ على أية حال فقد أخذت منها
السيجارة وتم التخلص منها، كان الموضوع الحاسم
هو الحزام اللائق لخصر نحيل أصغر من خصر
السيدة «ج» (الذى تتباهى به، والذى يبلغ قياسه ٢٣
بوصة عندما تسحب بطنها للداخل)، وتم عرض
الأحزمة المتوفرة على السيدة «ج»، ولكن لم يعجبها
أيًا من أحزمة «برادا» غالية الثمن، وقضت وقتًا
طويلا فى النظر إلى الأحزمة بينما ينتظر البائع
بصبر ، ثم تهز رأسها وهى متضررة ومحبطة: « لا
شىء مناسب هنا، إلى اللقاء»! وخرجت السيدة «ج»
من «برادا» كأنما وجهت إليها إهانة شخصية، تاركة

المدير والبائعين وهم يحدقون فيها. ثم عبرت الطريق بتهور متجهة إلى محل «براس»، وهو بوتيك للمتسوقين الأصغر سنًا اعتقدت أنها قد تجد فيه ما يعجب «ميرديث»، وكانت موسيقى الروك الخفيفة تنساب بإغواء فى غرف القياس، والبائعون مخنثون حليقو الرءوس ويتحركون برشاقة، وتتطلع السيدة «ج» ثانية إلى الأحزمة والحقائب والسترات والبنطلونات والـ «تى شيرتات» والسويترات الثقيلة، وكلها كانت ذات ألوان داكنة وهادئة، كالرمادى الداكن والأسود والرمادى المائل للأخضر ؛ وأحبطت السيدة «ج»: «أف! أكره هذه الأشياء القبيحة». ضحكت السيدة «ج» فى وجوه البائعين وخرجت من محلات «براس» وهى تقسم إنها لن تعود إليه أبدًا، كأنها كانت فى حلم تتحدث فيه بحرية بما يدور فى خلدها، والآخرون من حولها صامتون ومرتبكون.

ثم تذهب إلى «بال زيليرى».

ثم «ريكى»

ثم «شنغهاى تانج»...

ثم إلى «زاليرن» ، حيث أوراق نبات السرخس العملاقة والأرضيات الخشبية اللامعة وأدوات العرض الثابتة المصنوعة من الزجاج والمعدن الأبيض اللامع، وتشعر السيدة «ج» ببريق من الأمل المحبط فى أنها ستجد ما تريد، لأن البائعين هنا يعرفونها ويحترمونها، فقد أنفقت آلاف الدولارات فيه، والمدير

ا... تسم يناديها باسمها: «مرحبًا بالسيدة «ج»! فى
... اليوم الجميل من أكتوبر!»، لكن السيدة «ج»
... مرت بالراحة لبرهة قصيرة، فقد اطلعت على
ا... دث صيحات الخريف التى وصلت مباشرة من
...يلانو»، ولم يكن فيها شىء متميز يسرّ ناظرها، فلا
ا... زمة ولا بنطلونات ولا سترات، لا شىء قد يبهر
... اة مراهقة: «أهذا كل شىء؟ هذا.... فقط »؟! كانت
... بيرات السيدة «ج» تعبر عن الضيق والخيبة
والصدمة والامتعاض، ليس فقط فى «زاليرن» ولكن
... ى المحلات السابقة أيضًا، انتابها شعور بالإحباط
وخيبة الأمل وإحساس بالإهانة الشخصية، وتركت
حقن الكولاجين خطوطًا رفيعة تحيط بفمها تحت
جلدها مباشرة، وفى أركان عينيها خطوط حمراء
باهتة كأنها شعيرات دموية منفجرة؛ لقد تحول وجهها
إلى قناع مجفف كيميائيًا كوسيلة لئلا يتعفن،
«اتعتقدون أننى حمقاء؟ مثل زبائنكم السخفاء
الآخرين؟». ورأت فى المرآة وجهًا نحيلا شاحبًا
متجهمًا، وشعرًا أشقر أشعث، وهيئة نحيلة تلتف فى
حرير نفيس ، هل هذه هى السيدة «ج» ؟ ولكن ... أين
وشاحها البرتقالى الصارخ من بيت أزياء «إيف سان
لوران» الذى كلفها ٦٤٨ دولارًا فى الربيع الماضى؟،
«ولكن سيدتى، لا نعرف شيئًا عن ...»، بينما السيدة
«ج» تحدق فى وجوههم وفى أفواههم وأعينهم، التى
تنضح بالكذب، لن يعترف أحد فى «زاليرن» بأنه قد
راى وشاح السيدة «ج»، ناهيك أن يكون قد أخذه،

وقال مدير المحل إن السيدة «ج» لم تكن ترتديه حين دلفت إلى المحل، لأنه وبكل تأكيد سيلاحظ شخص واحد على الأقل وشاحًا من «إيف سان لوران»، وترد السيدة «ج» : «كيف تجرؤ! هذه إهانة»، وخرجت بتؤدة من المكان وهى تقسم ألا تعود إليه أبدًا !

وتدخل السيدة «ج» محلا تلو الآخر من محلات شارع «ماديسون» كما يتنقل المرء بين الأبراشيات الجانبية فى كاتدرائية مهيبة، وتخرج من كل محل وهى تقسم ألا تعود إليه أبدًا!

وبين شارعى ٧٧ وشارع «ماديسون» يقع محل «روما»، وهو بوتيك متخصص فى أرقى منتجات الجلود يشار إليه بالبنان، وكانت قد اشترت منه حقيبة جلدية لزوجها بألف دولار، وفقدها فى رحلة (أو ادّعى ذلك). دخلت السيدة «ج» عبر الممر، الذى تفوح منه رائحة عطر، وسألت عن الأحزمة، التى تناسب شابة جميلة فى الخامسة عشرة من عمرها هى ابنتها، وحدثت البائع (وهو شاب رقيق وجذاب من نوع الشباب الإيطالى، الذى يبتسم ابتسامة حالمة حتى لو كان يسخر منك، ويستنشق عبق رائحتك حتى لو كان يشمئز منها) عن ابنتها وهو يعرض عليها عددًا من الأحزمة، إلا أنها أحبطت على الفور من معروضات محل «روما»، وقطبت جبينها وهزت رأسها.... «لا لا لا لا لا ، لا شىء هنا يلزمنى» .

وتحـركت سـريعًا إلى الشـارع وأنبـأت الشـمس بتحـركـهـا فى السـمـاء عن تأخّر الوقت، وأضـحى الطقس رطبًا وحـارًا، والمسـاء يقـترب والسيـدة «ج» لم تجد بعد ما تبحث عنه. إنها تشعر بالإهانة والغضب وغالبا باليـأس، إنهـا تعتقـد أنهـا عوملت بوقـاحـة فى «نيكول فـارهـى» وفـى «رافـاييللى» وفـى «آى نوسـتـروم»، ويبدو عليـهـا الألم وكـأن مـحـلات شـارع «مـاديسـون» تتوقع وصولها الآن وقررت إحباطهـا، ومـا عندهم فى اعتقادها نفـايات رديئة ومبـالغ فى أسعـارها! «يا لهـا من بضـاعـة بشـعة!» . وعلى واجـهـة مـحـلات «كـاسـا نوار» و«مـانـدريك» و «إليـزابث آردن» حـيـث كـانت السيـدة «ج» قد ابتـاعت أدوية ومستـحضرات تجـمـيل للعناية بالوجـه وأدوات تجـمـيل، رأت انعكاس طيـفـهـا النحيف يتحرك على الأسطح العاكسة كهيئة شعار قد تجده منقـوشًا على حـائط قـديم أو على جـرة، على نمط إغريقى أو على غرار نقـوش قبائل «الآزتك» (*) أو كأنها إلهـة مصرية أو عـذراء تقدّم كقـربان للآلهة. منعت السـيـدة «ج» من الدخـول إلـى مـحل «مـيـرابل»، ولصدمتها قال المدير إنه وقت الإغلاق ولا لمزيد من الزبائن، رغم أنهـا كـانت ترى أن الزبائن ذوى الحظوة مـا زالوا بالداخل، والبـائعـون قـائمـون علـى خـدمـتـهـم

(*) Aztec الآزتك هم سكان أمـريكا الوسطى الأصليـون الذين استوطنوا المكسيك خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر المـيـلاديين، وقـد هـزمـهـم الإسـبـان حـوالى عـام ١٥٢٠م (المترجمان).

كالخادمات فى المنازل. وفى محلات «كلاوس» و«بيرديتو» و«سابين» فى شارع ٧٦ طرقت السيدة «ج» على الباب الزجاجى بإلحاح وهى تصرخ : « أرجوكم دعونى أدخل! أنتم تعرفوننى»! وقامت مديرة «سابين» التى تبلغ حوالى الثلاثين من العمر وتدعى «تيكى» بفتح الباب على مضض، كانت نحيلة كسيف مستقيم ترتدى زيًا أسود، وجفونها وشفتاها ثابتتان وباردتان، ولها أظافر كالمخالب، وتظاهرت للوهلة الأولى أنها لا تعرف السيدة «ج» زوجة الرجل الثرى، التى كانت من زبائن «سابين» الدائمين. وسمحت للسيدة «ج» بالدخول وأغلقت الباب خلفها، وغرق المحل فى الصمت إلا من صوت موسيقى داخلية تشبه قصف الرعد يأتى صوته من بعيد. شرحت السيدة «ج» طلبها لـ «تيكى» بينما ظهر فى المشهد عدد من البائعين يشبهون الطيور المفترسة الهزيلة ذات الريش الأسود يلبسون الزى المميز للعاملين فى محل «سابين»، وهو بنطال ضيق أسود وسترات علوية قصيرة وضيقة، وسمعت السيدة «ج» نفسها وهى تقول بتهور: « أنا أعلم أن ما لديكم أكثر مما تظهرونه لى بكثير، أتعتقدون أنى لا أستطيع دفع ثمنه؟» ومرّت لحظة من الصمت المطبق وتبادل للنظرات بين البائعين. هل كانت نظرات حذر، أم إحساس بالذنب؟ لم تستطع السيدة «ج» تفسير تلك النظرات. طلبت «تيكى» من السيدة «ج» أن تأتى إليهم فى وقت آخر : «سيدتى ، المحل مغلق اليوم»، لكن السيدة «ج»

ردّت بفظاظة : «لا تسخرى منى فأنا لست مغفلة».
وقادت السيدة الرشيقة «تيكى» ذات الرداء الأسود
زبونتها على مضض إلى غرفة سرية؛ حيث علّقت
قطع من الملابس المتفردة كأنها أعمال فنية،
واعترفت «تيكى» أن هذه مجموعة جديدة من
الملابس وردت حديثًا إلى المحل، من ضمنها سترات
شبه الكيمونو المقصّب بألوان زاهية ، منها الأحمر
القرمزى ولون الخوخ ولون الليمون الأخضر
والأرجوانى الملكى ، سترات ذات أكتاف مبطنة ولها
أزرار من اللؤلؤ ؛ والسيدة «ج» تمعن النظر، واتخذت
شفتاها شكلا كأنها تقول «جميل»! وأمسكت بإحدى
السترات قرمزية اللون لتقيسها، وأخذته «تيكى» منها
بحرص وقادتها إلى غرفة القياس المليئة بالمرايا فى
الخلف: «سيدتى، ستشعرين هنا بالخصوصية، خذى
وقتك» . لقد جرّبت السيدة «ج» عددًا كبيرًا من
الملابس لعديد من المرات فى «سابين»، وتعرف أن
غرف القياس فيه كبيرة ومريحة بعكس أماكن أخرى؛
إنها تشعر أنها فى بيتها فى هذا المكان، خلعت
السيدة «ج» ملابسها فى عجالة ولبست السترة
القرمزية، لكنها عندما نظرت إلى نفسها فى المرآة
رأت ما أفزعها، فاللون القرمزى الغنى ذابل وردىء
كزهرة الأوركيد الذابلة، وتحول وجهها الذى كان قد
أشرق إلى شحوب وجه عجوز شمطاء، « كيف يمكن
هذا؟» فالسيدة «ج» سيدة جذابة، ووجهها عليه قناع
من الماكياج المتقن الذى لا خطأ فيه، هل هى

الإضـــاءة فى هذه الـغــرفــة؟ هل هـذه الســتــرة من مجموعة الملابس المعيبة بشكل ما؟ وطرقت «تيكى» الباب لتستطلع رأى السيدة «ج» فى السترة وتستأذنها فى الدخول، وفتحت الباب فى اللحظة التى انتابت فيها السيدة «ج» نوبة عبوس طفولية مفاجئة، وكانت تخلع السترة، التى تسببت فى جرح إحساسها بعنف وألقت بها على الأرض، وتدحرج أحد أزرار اللؤلؤ تحت قدميها: إنها قبيحة، لا أحب أن أرتديها، هناك شىء ما خطأ فى هذه السترة، وامتلأت عيناها بدموع الغضب: «لماذا تغشوننى؟ ولِمَ تكرهوننى؟ أنا أكثر زبائنكم إخلاصًا»!، والتقطت «تيكى» السترة، التى تسببت فى إحساس السيدة «ج» بالإهانة من الأرض وسألتها إذا كانت تود رؤية سترة أخرى فى إضاءة أقل توهجًا، لكن السيدة «ج» كانت فى نوبة إحباط ولكمت المرآة بقبضة يدها، والغريب أن المرآة تحركت وانفتحت كأنها باب...

قالت «تيكى» بسرعة وبصوت منخفض ملحّ: «سيدتى، لاتدخلى هنا من فضلك» ! .

هل هذا باب؟ إلى أين يؤدى؟ نسيت السيدة «ج» أنها نصف عارية، ترتدى حمالة صدر ستان عاجية اللون ولباسًا تحتيًا وجوربًا طويلا وحذاء بارتفاع ثلاث بوصات؛ كانت فى تلك اللحظة مقدامة وقد تكون طائشة وهى تتقدم لتفتح الباب وراء المرآة وتدخل إلى غرفة تشبه المخزن ، غرفة واسعة وذات إضاءة

داكنة وفيها رائحة غامضة وقوية وواضحة كأنها دم متجلط. وتهمس «تيكى» بإصرار: «ارجعى يا سيدتى ارجوك»! لكن السيدة «ج» ليست سهلة الانقياد، ألم يلاحق السيد «ج» بمثل هذا الإصرار؟ أليست هذه هى طريقة المرأة المفترسة؟ وصرخت السيدة «ج»: «ما هذا؟ ماذا تخفون عن زبائنكم؟ أطالب بأن أعرف»، ودفعت بأصابع «تيكى» وأظافرها التى تشبه المخالب بعيدًا عن رسغها وتقدمت إلى الأمام وهى تجول ببصرها فى المكان، كان المكان ممتلئًا «بالمانيكانات» العارية والتماثيل النسائية، بعضها مجرد جذع بلا رأس وأخرى بلا شعر على رأسها، وليست فقط صلعاء ولكن عليها بقع دماء! كأن خصلات الشعر انتزعت بعنف من الرأس! ونظرت السيدة «ج» حولها وهى فى حالة من الشلل وتشعر بالاندهاش والفزع المتزايد. تشبه هذه «المانيكانات» ما يقف فى واجهات عرض «سابين» الراقية فى أسلوب العرض، لكن هذه ملتوية بشكل غريب ومشوهة وفى أوضاع يبدو منها أنها تعرضت للتعذيب، وعليها آثار ضرب وبقع دموية، وبعض منها مكوّم فوق بعضه وتبرز من الكومة أقدام وسيقان عارية، وبعضها، يا للغرابة، معلّق رأسًا على عقب فى... يا للهول! هل هذه خطافات تعليق اللحوم؟ إنها تتذكر الرؤية الكابوسية التى صوّرها

«تيتيان»[1] فى لوحة «تعذيب مارسياس» [2]، وهى إحدى اللوحات الفنية، التى أغلقت عينيها وابتعدت عنها وهى فى حالة اشمئزاز بعد أن رأت فيها منظر كائن شبه بشرى عارٍ معلّق فى فرع شجرة رأسًا على عقب وقد تم سلخه حيًّا.... آه ! آه ! آه ! وتنحّت السيدة «ج» عن «المانيكانات» المعلقة والتصقت بالحائط، حينها رأت «مانيكان» ملوثة بالدم وتبدو عليها آثار ضرب مبرح أُجتثّ ثدياها وفُقئت عيناها. السيدة «د»؟ أهذه هى السيدة «د»؟ التى كانت شهيرة يومًا ما، ومعظم زوجات الرجال الأغنياء كانت تقتلهن الغيرة منها؟ كانت مستلقية على ظهرها ورجليها وساقاها مفتوحان بقسوة وجرح غائر بين فخذيها عليه قشرة من الدم تبدو كأنها مجوهرات دقيقة. إن هذه المرأة الشقراء - مثلها - التى يتدلى فكها ذات العينين التى تحمل نظرة مرارة هى التى سبقتها كزوجة للسيد «ج»، الفارق الوحيد هى أنها كانت تكبرها بعقد من الزمان .

أخذت السيدة «ج» شهيقًا لتصرخ، لكن حلقها كان ضيقًا من نوبة الهلع التى أصابتها، ولم يصدر عنها أى صوت .

«سيدتى، نحن دائمًا فى خدمتك ويجب أن تعرفى ذلك».

---

(١) Titian (١٤٧٧؟ - ١٥٧٦) رسام إيطالى من عصر النهضة تميّز باستخدامه المتميز للألوان فى لوحاته (المترجمان).

(٢) The Flaying Of Marsyas، رسمها «تيتيان» عام ١٥٧٥ (المترجمان).

ـادت «تيكى» المـمـتلئـة بالطاقـة الآن قـوة من
ا املين فى «سـابيـن» وهم يرتدون زيّا أنيـقًا نظيـفًا
رن الجزارين الأبيض، وأحاطوا بالسيدة «ج» وضيقوا
اربها الخناق وقـامـوا بتـمـزيق مـا تبـقى على المـرأة
المرتجفة من مـلابس بشـفرات حـادة تركت كثيـرًا من
الخدوش النازفـة على جسدهـا وأُنتزع حذاؤها الثمين
ن قدميها ونزع عنها جوربها أيضًا. أصبـحت فجأة
فريسة سهلة! عـارية ومكشـوفـة تجـفل من الأضـواء
المزعجة بينما يقوم معذّبوها المبتسـمون بقرصها
وجذبها وخمـشـهـا وطعنهـا، إنهـا مـجـرد جسـد أنثوى
نحيل لم يعـد فتيّا باسـتثناء بطن بارزة قليـلا، وثديين
مترهلين رغم صغـر حجمهما، وكان ردفاها وفـخذاها
باهتين ومـمـتلئـين بعـدد لا يحـصى من الخـطوط
البيضاء المعيبة الخفيـة فى الأضواء الخـافتة، لكنها
واضحـة للغـاية وربمـا مكبّرة فى هذه الأضـواء. تلك
الرقعة من الشـعيـرات البنيـة فـيمـا بين فـخذيهـا لا
تتوافق مع شـعـر رأس السـيـدة «ج» الأشـقـر، وتلك
السيقان النحيـفة ورسغى القدمين الصغيـرتين، إنها
سيقان طويلة لكنها مشـوهـة : «تأكدى يا سيدتى، أنت
مثل غـيـرك، خـدمـاتنا لك هى مـا تبـحـثين عنه».
وبسـرعـة وبثـبـات أوثق فـريق العـاملين فى «سـابين»
بزيّهم الأبيض الغـريب السـيـدة «ج» وربطوا رسـغيـهـا
خلف ظهرها وطرحوها على الأرضية المتربة الملوثة
بالدم، وبدأت الآن فى الصـراخ واللهـاث لتتمكن من
التنفس؛ وبدأ الجـزء الأشـد قـسـوة فى الاحـتـفـال:

انتزعت كلمات السيدة «ج» منها، فقد ضغطت "تيك،
على فكيها وأخرجت لسانها واجتثته من جذوره وألق،
بقطعة اللحم الدامية بعيدًا. لقد ألقت بعيدًا لغة
السيدة «ج» واسمها أو ما يمكن أن تسترجعه ذاكرتها
المتلاشية من اسمها: «هأنتذا يا سيدتى! تمّت المهمة
بنجاح».

استخدم كعب الحذاء الثمين المصنوع من جلد
الماعز لطعن المرأة المتأوّهة مرة تلو أخرى فيما بين
فخذيها، وانتزعت خصلات من شعرها الأشقر بلون
الشمبانيا من رأسها وتناثرت فى الهواء، وانتزعت
أظافرها ـ التى تم طلاؤها بعناية فى اليوم السابق
عند «إليزابث آردن» ـ من أصابعها واحدًا تلو الآخر،
وشُقّ ثدياها بشفرة وبترت حُلمتاها بدقة جراح لا
يعرف الرحمة. كانت تنزف من فمها ومن جروحها،
التى لا حصر لها ومن انتهاك جسدها، إن المرأة التى
كانت يومًا السيدة «ج» تنظر إلى نفسها بعينين أصيبتا
بالجنون من الألم والرعب، وظلّت تنظر حتى عندما
رفعت إلى أعلى بأيد خشنة مدربة وعلّقت من كعبيها
فى خطاف تعليق اللحم، إلى أن قُطع عنقها الذى
مازال ناعمًا ـ أو الناعم تقريبًا ـ بسكين معقوف. لقد
اكتمل الاحتفال فى بضع دقائق: انتهت حياة المرأة
وسالت دماؤها وتلقّاها حوض وضعه العاملون فى
«سابين» تحتها، ووقفوا يراقبون المشهد بعيون
متشفية لكنها لا تخلو من الاحترام.

لم تكن بالطبع تصلح للعرض على واجهات محل «سابين»، فقد كانت هذه «المانيكان» ملطخة بالدماء وعليها آثار ضرب مبرح، والأهم أنها امرأة وليست شابة فتية .

قالت «تيكى»، وهى تتأمل الجثة بعين متمرسة، وبقدر من التعاطف، «أرأيت يا سيدتى، أنت فى سلام الآن، أليس كذلك؟ فقد أصبحت ضمن مجموعتنا الخاصة» .

قولى إنك قد صفحت عنى

١ . مـركـز «إلمـز» لرعـاية الـمـسنين يوفـيل . نيويورك أكتوبر ٢٠٠٠

١٦ أكتوبر ٢٠٠٠

إلى ابنتى العـزيزة «مـارى ليندا» التى أتمنى أن تسامحنى، أكتب إليك هذه الرسالة بمناسبة مرور أربعين عامًا على مثل هذا اليوم، فعندما نظرت إلى التقويم تذكرت ذلك اليوم، الذى أرسلتك فيه إلى ذلك المكان المفزع القبيح. والحق أنى لم أكن أنوى أن أسبب لك ألمًا يا حبيبتى، فلم تكن لدىّ بصيرة حينها، وكنت امرأة جاهلة لا أرى إلا موضع قدمى حينذاك، فماذا تتوقعين من سكيرة مثلى. أعرف أنك بخير الآن، وقد تم شفاؤك منذ فترة طويلة، ولكنى أكتب لك وأنا آمل أن تغفرى لى.

حبيبتى، أعرف أنك تبتسمين وتهزين رأسك كما تفعلين دائمًا عندما يستبد القلق بأمك، وأعرف أنك ستقولين ما من شىء يدعوك لطلب الصفح يا أمى!

ربما لم يكن الأمر كذلك يا حبيبتى.

ورغم أننى أخشى أن أشرح لك الأمر، وربما لا أستطيع أن أجد الكلمات، التى يمكن أن أشرح لك بها، فما أستطيع مصارحتك به أنه كان هناك ما هو واضح فى ذهنى منذ أربعين عامًا مضت، وكان لا بد من إنجازه.

أشعر بالغرابة، لأننى أكتب ما أكتبه لك، وأنا أعلم أنك حين تقرئين هذه الرسالة التى أمضيت وقتًا طويلا فى كتابتها كلمة بكلمة، سأكون أنا قد «رحلت عن الدنيا»، وقد طلبت من «بيلى» (الفتاة الجاميكية الممتلئة ذات الشعر متعدد الضفائر) أن تحترم رغباتى وتحتفظ بهذه الرسالة لتسلمها إليك، وأنا على يقين أنها ستفعل ، وأنا أعرف أن «بيلى» شخص يمكن أن أضع ثقتى فيه فى هذا المكان.

وإذا أردت أن تتحدثى معى بعد قراءتك هذه الرسالة، فلا أظن أن ذلك سيكون ممكنًا، ولا أظن أن ذلك كان سيكون مجديًا

أعرف أنك سامحتنى يا «مارى ليندا» على الفزع الذى تسببت لك فيه، ولم يحدث أن وجّهت لى اللوم كما قد تفعل أية ابنة أخرى.

لم يتهمنى أحد على ما أتذكر، على الأقل وجها لوجه.

(ما عدا أباك بالطبع، وكل أفراد عائلة «دونالدسون». أعتذر لك يا «مارى ليندا» لأنك تحملين نفس ذلك اللقب! لكنك ابنة أمك أكثر من ارتباط اسمك بعائلة «دونالدسون»، ودائما ما كان الناس يقولون إن «مارى ليندا» تشبه أمها «إلسى»، نحن نتشابه فى العيون والشعر وحتى طريقة الكلام).

(أفكر فى أبيك أحيانا، وهذا أمر غريب، وأعرف أنى قد سببت ألمًا للدكتور «دونالدسون» أيضًا، لكنى لم أنزعج لذلك أبدًا، فقد كنت على ثقة أنه رجل يستطيع أن يعتنى بنفسه. لا أدّعى أنى فخورة بما فعلت حين كنت شابة يافعة، فإذا زهدت فى حب رجل أو مللت من الاهتمام بصديقة، كنت أنسى كل ما يتعلق بتلك المشاعر فى ليلة وضحاها ؛ لست فخورة بذلك يا حبيبتى، ولكن ذلك كان طبع أمك).

فى العام المنصرم، ومنذ انتقلت إلى هذا العنبر من المركز، الذى يقع مقابل العنبر السابق، كنت أتمنى أن آخذ بيدك يا حبيبتى، وأخبرك بحقيقة ما فى قلبى، ليس ما سامحتنى عليه بالفعل ولكن عن شىء آخر لم ينتبه إليه أحد بعد كل هذه السنين! ولكنى لم أفعل، فقد خشيت أن تكرهينى، وكان هذا هو سبب هدوئى الزائد أحيانًا خاصة بعد العلاج

الكيميائى الذى أصاب بعده بالغثيان والتعب. ولكنى لابد أن أعترف لتسامحينى، ولهذا أكتب لك الحقيقة بهذه الطريقة، التى أعلم أنها طريقة الجبناء، لتقرئيها بعد أن «أرحل».

هناك أشياء يمكنك قولها فى الخفاء ولكنك لا يمكن أن تواجهى بها أحدًا، ولم يتبق فى عمرى الكثير، لذا فهذا هو الوقت المناسب لأفصح عما بداخلى.

أعتقد أننا كنا فى شهر إبريل حين جئت لزيارتى، حين هدمت حانة «إيجل هاوس»، ولم تكونى حينها فى أطوارك الطبيعية - فقد كنت غاضبة وباكية - وأردت وقتها أن أخبرك بالحقيقة يا حبيبتى وبكل ما يتعلق بـ «هيرام جونز» (هل تتذكرين هذا الاسم؟)، ولكنى كنت على يقين أنك كنت تحتاجين أمًا تريحك وليس «الحقيقة»، لم يكن ذلك مناسبًا البتة.

بعد أربعين عامًا! لم أذهب إلى وسط المدينة لشارع «ساوث مين» منذ أتيت إلى هنا، ومنذ أجريت الجراحة وما إلى ذلك، وكان من المتوقع أن يتم «تجديد» هذا الجزء القديم من «يوفيل» ولكنى سمعت أنه لم يكن لدى الولاية فائض من المال، ورأيت مساحات شاغرة من الأراضى مليئة بأعشاب ضارة طويلة بين المبانى وركام من الدبش والأتربة، ولم يبق على حاله سوى فندق «لافاييت» و «بنك ميدلاند» والمكتبة العامة ومكتب البريد ولكن حانة «إيجل

«اوس» لم يعد لها أثر وكذلك بقية المبنى، الذى كانت فيه.

لذا حاولت أن أستجمع الصورة من الذاكرة، فما ابحث عنه يبعد ثلاثة أميال من هنا ولكنى لن أراه ابدًا على ما أعتقد.

أعرف أن هذا تفكير طفولى، ولكنه مدفون تحت الركام وعظامه مبعثرة تحت الحطام

أعتقد أن «إلمز» مكان مناسب لى، وأنا ممتنة لك يا حبيبتى لأنك رتّبت لإقامتى فى هذا المكان. ويعلم الله أين كنت سأقيم لو أنى اعتمدت فقط على التأمين الصحى والضمان الاجتماعى! ولست أشكو كما تفعل «المسنّات» الأخريات، فرغم أنى أبلغ السبعين من العمر إلا أننى أصغر الموجودين هنا، والأكبر سنًا هى السيدة «ن» التى رأيتها، وهى عمياء وبلا أسنان و «صماء لا تسمع» وهلم جرا، وقد نقلوها مؤخرًا إلى «غرفة الشمس»(*)، وهو أمر يدعو للرثاء، لكن هذا مريح بالنسبة لنا، فهى فى التاسعة والتسعين من عمرها، ويأمل الجميع أن تحيا لتكمل مائة عام ما عدا هى، فهى لا تعرف كم تبلغ من العمر ولا تتذكر حتى اسمها. ومنّا ثلاثة أو أربعة أفراد «يتقدمون» (هذا مايقوله الأطباء، ولكنهم يشيرون

(*) Sun room أو Sunny room: غرفة ذات نوافذ عريضة مصممة ليدخلها أقصى قدر ممكن من أشعة الشمس (المترجمان).

بذلك إلى تقدم المرض وليس نحن!) وبعضنا الآخر يعانى فقط من «أمراض الشيخوخة». أنا هنا أشعر أنى خارج إطار الزمن، فمازلت شابة (فى تفكيرى) ولكن الجسد هو الذى هرم، وأعرف يا حبيبتى أنه من المؤلم لك رؤية أمك بهذا الشكل بعد أن كانت معروفة بأنها «جميلة» وكانت تزهو بجمالها.

أنا الآن أزهو بك أنت يا حبيبتى، ابنتى الطبيبة التى أتفاخر بها أمام صديقاتى فقط من السيدات المسنّات.

أحب القبعة القش، التى أتيت لى بها لأغطى رأسى، وكذلك الوشاح الأزرق الزاهى.

كثيرا ما أتساءل: هل يشعر الميت بالوحدة؟

إننى أكتب وأكتب وأكتب فى هذه الرسالة اللعينة منذ أسبوع مضى، لكن الأمر يزداد صعوبة، كأنك تحاولين تلمّس الأشياء فى الظلام بينما أنت فى مكان مضاء، والمستقبل الذى سأكون فيه «راحلة» يبدو لى غريبًا رغم أنى أعرف أنه آت لا محالة، وسترقد أخرى على هذا الفراش وفى هذه الغرفة.

قد تندهشين أننا لا نتحدث عن الرب كثيرًا هنا، وقد تعتقدين هذا، ولكن ذلك غير صحيح؛ بل على العكس، ولكن من الصعب الإيمان بوجود حياة خارج هذه الحوائط، ومع حقيقة أن البقاء على قيد الحياة لن يستمر إلا لبعض الوقت، وقد يتساءل أحدهم عما إذا كنت أخشى أن يحاسبنى الرب على ما اقترفته من

«الرب، وإجابتى هى : لا يا حبيبتى، لا أخشى حساب الرب. أتذكرين جدك «كينيلى» الذى كان يضحك عندما نتحدث عن الرب؟ لقد كان أبى يعتقد أن كل هذا مجرد «هراء» تم اختراعه ليظل الضعفاء على ضعفهم.

وكان يقول : «يا للجحيم! من الأفضل أن يؤمن بى الرب، فأنا رجل».

كان أبى يعنى بذلك أن الرجل أهم بكثير من الرب، لأن الرجل هو الذى اخترع الرب وليس العكس.

كنت أتمنى لو أن لدى بعض الشجاعة لأجادله.

لقد مات أبى منذ أمد بعيد، لكنه بالنسبة لى حىّ يرزق أكثر من الناس فى هذا المكان، فأنا أتحدث إليه وأسمعه فى رأسى منذ عام ١٩٥٩! وأشكر الرب أن أبى لم يطعن فى السن وهو يقيم هنا فى «إلمز» ؛ تخيلى لو أن جدك كان قد بلغ مائة عام! هرم وأصم وأعمى ولا يذكر اسمه أو أين هو، لقد كان فى الخامسة والخمسين حين وافته المنية. كان فى سن صغيرة. الزمن يحتال علينا! كان أبى الأنيق أكبر منى دائمًا ولكنه الآن أصغر منى، أعنى عندما توفى. الحق أننى لا أفكر فى هذه الأمور إذا ما استطعت لذلك سبيلا.

تقول «بيلى» إننى لا يجب أن أموت وأنا أحمل أسرارا مكنونة فى قلبى، وها أنا أحاول يا حبيبتى.

هل تذكرين اسم «هيرام جونز» يا حبيبتى؟ أعتقد أنى سألتك هذا السؤال بالفعل.

أيّا كانت الطريقة التى قيل لك إن جدّك قد مات، فمن الأفضل أن نعتقد أن موته كان نتاج حادث يشبه رمى النرد، ولا شىء أكثر من ذلك.

أتمنى لو كنت لم أفعل ذلك الفعل السيئ الذى جرى لك يا حبيبتى.

لقد كنت فى العاشرة من عمرك، ولا أستطيع أن أتذكر السبب الذى دعانى أن أرسل بك إلى ذلك المكان المريع مثلما فعلت، لأعرف إلى أين ذهب ذلك الرجل البغيض؛ كنت فى تلك الأيام أحتسى الخمر وأفتقد أبى، ما جعلنى أنسى واجباتى تجاهك كأم.

لقد مضى وقت طويل الآن، وأنت الآن طبيبة مثل د. «دونالدسون» وتعرفين حالتى الصحية أكثر مما أعرف أنا رغم أن اختصاصك ليس فى علم الأورام (كم أكره كلمة أورام، إنها كلمة كريهة!)، لكن ذلك كان سببًا لعدم خوفى من الموت: فعندما أجريت الجراحة وذهبت عن الوعى كنت كمصباح كهربائى انطفأ، وعندما أنجبتك يا حبيبتى كنت صغيرة ولا أعى شيئًا، وظننت أن صحتى على أفضل ما يرام، ودخلت إلى غرفة الولادة ولم أتوقع أن أقضى فيها ثمانى عشرة ساعة، و «نسيت» بعدها كما يقولون ولكنى قد كنت قد أدركت معنى الألم الحقيقى، ولم أرغب فى تكرار التجربة، ولكن الأمر مختلف حين «يذهب

الوعى». فالمرات الثلاث التى أجريت لى فيها عمليات جراحية، كنت أشعر كل مرة أن «إلسى كينيلى» ليس لها وجود.

لذا فإذا أنا متّ ولم أعد أشعر بالألم فهذا يعنى أنه ليس لى وجود، وإذا لم يكن هناك ألم فليس هناك مبرر للخوف.

اعتقد أنى جبانة يا حبيبتى، وجدّ خائفة أن أعترف لك بما أريد أن أعترف لك به، وأن أتوسل إليك أن تغفرى لى، وأنا فى شدة الأسف.

لكنى تركت لك مفاجأة فى هذا المظروف، إنها قطع النرد العاجية، أتذكرينها؟ أعطانى إياها جدك الذى لم تعرفيه جيدًا. كان أبى يحتفظ بقطع النرد فى جيبه ويخرجها ويدحرجها، ويقول : «لنرَ ما سوف يخبرنى به النرد»، فقد كانا التميمة التى يتفاءل بها أبى، وكان قد أتى بها من «أوكيناوا»(*)، وهى الجزيرة الواقعة فى المحيط الهادى، والتى كان ينتظر فيها الجنود الأمريكيون تمهيدًا للذهاب إلى القتال فى اليابان، وكان من الممكن أن يموت الكثير منهم (كما كان أبى يقول) لولا إلقاء القنبلة الذرية التى أنهت الحرب فعليًا، ولذا كان أبى يرى أن هذا النرد هو تميمة حظه، وكان على استعداد أن يلقى بميدالياته وأوسمته ولكنه لا يمكن أن يفرّط فى النرد، وأقسم إن أبى عندما كان يرمى النرد مع أصدقائه فى حانة

(*) Okinawa.

«إيجل هاوس» لاختيار من سيدفع ثمن المشروبات، كان يكسب سبع مرات من إجمالى عشر مرات، وكان الآخرون يتعجبون من حظ «ويلى كينيلى» ولكن النرد لم يكن زائفًا، وكان أحيانًا يرمى النرد بأطراف أصابعه ويأتى النرد بما يريده أبى تمامًا وكأنه يطيعه، ولا أحد يعلم كيف يحدث هذا.

وبعد وفاة جدتك، أمى، قضينا أنا وجدّك بضع سنوات سعيدة، وربما كان أبى يعانى من مشكلة إدمان المشروبات الكحولية، ولكن صدقينى، ليس عند مثل هذه الأمور تتوقف الحياة.

هناك أمر آخر يتعلق برمى النرد، إذا كان النرد من نوع قيّم، فحتى الآن يسبب لى رمى النرد ارتعاشًا فى عمودى الفقرى، خاصة فى اللحظة التى يخرج فيها النرد من يدك، ويكون الرهان مهمًا والجميع يراقب. أرجو أن تحافظى على هذا النرد فى مكان أمين يا «مارى ليندا»، فهو من العاج الخالص ولهذا تغيّر لونه ؛ كنّا أنا وأبى نرمى النرد على سبيل التسلية، وفى إحدى الليالى دسّ جدك النرد فى يدى (كان ذلك فى شهر يونية عام ١٩٥٩، تاريخ لا يمكن أن أنساه) وعرفت حينها أن هذه علامة لشىء سيحدث، غير أنى لم أستطع أن أتبيّن أن جدك سيموت بعد ٥ أسابيع.

وسيموت «باد بيتشام» بعد مرور عام بفترة قصيرة.

وسيموت «هيرام جونز» بعد سنوات قليلة (ربما كان هذا هو الاسم الذى لا تتذكرينه).

حسنًا! لقد تأخر الوقت الآن يا حبيبتى، وفات الأوان على ما أعتقد، وتأخر حتى على الشعور بالندم، وكما كان جدك يقول، لا شىء يمكن أن تفعله بالنرد سوى أن «ترميها».

أملك المحبة

إلسى كينيلى

٢. بوفيل ـ نيويورك. ١١ إبريل ١٩٩٩ .

حريق، بدا كأنه حريق، فلم يكن هناك ألسنة لهب ولكن كان هناك دخان.

سحب من الدخان بلون تراب شاحب تتجه نحو السماء فى تدفقات غير منتظمة، كأنها أنفاس زفير، هكذا كان المشهد فى منطقة وسط المدينة فى «بوفيل» على الجانب الآخر من النهر تمامًا.

كانت تقود سيارتها لزيارة والدتها فى بيت رعاية المسنين، وكانت قد أجّلت هذه الزيارة لعدة أسابيع. مسكينة «إلسى» التى كانت فيما مضى امرأة جميلة مزهوة بجمالها، وشعرها الأشقر الداكن ينسدل على كتفيها، هى الآن مريضة تخضع للعلاج الكيميائى وسقط شعرها، وما نما من جلد رأسها لم يكن إلا زغبًا رماديًا يشبه العفن يشعرك برغبة أن تنظفه بقطعة قماش مبللة.

لا يا «مارى ليندا»، ليس لدى مانع.

أنا محظوظة لأننى مازلت على قيد الحياة، أرأيت؟

ولكن الابنة، «مارى ليندا» لم تكن متأكدة، فهى طبيبة وتعرف ما ستتعرض له أمها، ولكنها لم تكن متأكدة تمامًا.

لقد استخرجت رخصة قيادة منذ أكثر من ثلاثين عامًا، ولكن الحقيقة التى لا يمكن أن تبوح بها لأحد إنها خلال كل هذه السنوات لم تدخل بسيارتها ولو لمرة واحدة لمنطقة «يوفيل» أو وسط المدينة، وكانت تتحاشى المرور بشارع «ساوث مين» - فى المنطقة التاريخية - على الضفة الغربية من نهر «يوفيل»، ولم يكن ذلك رهابا لكنه كان اختيارًا واعيًا. (أو ربما أنه كان رهابا فعلا، وهى تحاول أن ترضى كبرياءها بإقناع نفسها أنه اختيار واع). وكان هناك طرق غير مباشرة موصلة لمختلف مناطق «يوفيل» وأحيائها دون الحاجة لاجتياز المبانى المجاورة للنهر، لكنها تتذكر - منذ أيام صباها وما تحمله من انطباعات مشرقة - ما كان عليه شارع «ساوث مين» : فهى تذكر فندق "لافاييت» الفخم وواجهته الحجرية ونوافذه اللامعة، ومحلات «إخوان فرانكلين» الذى كان أحد المتاجر الرائدة فى «يوفيل» بصاريته النحاسية، التى يرفرف فوقها العلم الأمريكى، وقاعة مجلس المدينة الحجرية القديمة التى ظلت لعقود فرعًا لمكتبة «يوفيل» العامة فى وسط المدينة، ومحل «موهوك» لبيع الدخان،

ومقهى «كينج»، ومحلات أزياء «إيلا» لمستلزمات السيدات، وبنك «ميدلاند»، وبنك «يوفيل للتسليف والادخار» الذى يعلوه برج الساعة المضيئة، وحانة «أولد إيجل هاوس» بأحجارها الرمادية وداخلها الشبيه بالكهف وعلامته الباهتة بشكل النسر الطائر الذى يفرد جناحيه استعدادًا للانقضاض على فريسة... إنها لم تر تلك العلامة منذ أربعين عامًا ولكنها تراها الآن تمر سريعًا أمام عينيها كنوبة صداع، وتسمع صريرًا يصدر عنها عندما تهب الرياح.

حانة «أولد إيجل هاوس». تأسست عام ١٨١٩ .

لسبب ما ستقود سيارتها اليوم فى المنطقة التاريخية بوسط المدينة، لم لا؟ لقد أصابها الفضول لمعرفة مصدر الدخان، ولترى ما آل إليه حال شارع «ساوث مين» بعد مرور كل هذه السنوات.

كانت المرة الأخيرة التى كانت فيها هنا عام ١٩٦٠، ونحن الآن فى عام ١٩٩٩ .

لقد تغير شكل الجسر الذى يعلو النهر تمامًا، فقد أصبح يتسع لأربع حارات مّرورية، وكانت إطارات سيارتها تحتك بالقواطع الحديدية المثبتة له، لم يكن هناك أثر لحريق أو سيارات إطفاء أو صافرات إنذار، وقد تغير مجرى المرور فى شارع «ساوث مين» ليصبح حارة مرورية واحدة تتحرك فيها السيارات ببطء، ويشرف عليها رجال لا تنقصهم الفظاظة

يزعقون فى مكبرات صوت ضخمة: أمامك إنشاءات. تحذير: منطقة هدم مبانٍ. وتشبّع أنفها برائحة تراب ناعم كالبودرة ووخزها فى عينيها: اللعنة على آلات الحفر؛ لقد كانت تكره آلات الحفر. وازدادت ضربات قلبها، فمثل هذه الضوضاء الصاخبة تزعجها؛ ترى، ماذا كانت تريد أن تثبت بقيادة سيارتها هنا؟ فلا يوجد شهود على ما تحاول إثباته، وأقسمت ألا تخبر أمها «إلسى».

أنا لست تلك الفتاة، كنت شخصًا آخر.

كانت فتاة فى العاشرة من عمرها عندما نزلت قبو حانة «إيجل هاوس» التى كانت تنبعث منه رائحة الجعة والتخمر والقذارة، وكذلك رائحة البول النتنة المنبعثة من مرحاض الرجال، وكانت أمها قد أرسلتها هناك لترى «إلى أين ذهب» مالك الحانة السيد «باد بيتشام».

إنها الآن فى التاسعة والأربعين من عمرها، ومضت عقود وهى بعيدة عن «يوفيل»، فقد تخرجت فى مدرسة «يوفيل» الثانوية عام ١٩٦٨ بعد أن أقيم لها حفل وداع، ثم التحقت بكلية الطب فى «روتشستر ـ نيويورك»، وأصبحت الطبيبة «دونالدسون» وعملت ممارسًا عامًا فى «مونتكلير ـ نيوچيرسى»؛ لقد أصبحت بالغة ورشيدة، ولو أنها ظلت مقيمة فى «يوفيل» لكانت قد أصبحت كالطفل المذعور.

لم تعتد «مارى ليندا» أن يناديها أحد باسمها هذا وهى بعيدة عن «يوفيل»، وكان زملاؤها وأصدقاؤها ينادونها باسم «مارى» فقط، وهو اسم تقليدى وكلاسيكى وغير متفرد، وكانت هى تفضل أن تنادى «د. دونالدسون» رغم أن هذا النداء كان خاصًا بوالدها (المتوفى) أيضًا. لقد اعتاد والداها طوال سنوات عمرها معهما على مناداتها باسم «مارى ليندا»، ولم تكن تملك الشجاعة لإخبارهما أنها تكره ذلك الاسم.

مارى ليندا! ولدت عام ١٩٥٠ . ويمكنك أن تخمن ذلك من الاسم.

لطيفة ومبتسمة بتكلف وهى فى ثوبها القطنى، مثل «جوون أليسون»، تلبس تنورة مجعدة ومنفوشة وفى شعرها تموجات تثبتها بدبابيس الشعر، وتضع احمر شفاه غريبًا داكن اللون. لا تأذونى، لا أريد سوى أن تحبونى، أنا فتاة طيبة.

كانت «مارى دونالدسون» تزور أمها فى «يوفيل» مرتين أو ثلاث خلال العام، ويتحدثن فى الهاتف كثيرًا، إلى أن اضطرت «إلسى» لأن تعيش وحدها منذ وقت قريب، ولكن سوء الحظ لازمها منذ كانت فى منتصف الستينات من عمرها، وواجهت بضع مشكلات صحية ومالية، ولهذا لم تتكبد «مارى» عناء كبيرًا لإقناع أمها أن تنتقل إلى بيت «إلمز» لرعاية المسنين وكبار السن، وهو مجمع ذو ملكية عقارية

مشتركة لصالح كبار السن يقع فى إحدى الضواحى شبه الريفية فى «يوفيل»، وحين بدأت صحة «إلسى» فى التدهور، انتقلت إلى مركز للرعاية الطبية فى المبانى الأمامية من المجمع («النقلة التالية هى الخروج من الباب، الأقدام أولا»، قالتها «إلسى» ساخرة، وجفلت «مارى» وتظاهرت أنها لم تسمع). عندما كانت «إلسى» أصغر سنًا اشترت لها «مارى» تذكرة طيران مرة أو مرتين لتتمكن من زيارتها فى «مونتكلير»، وكانتا تذهبان للحفلات الصباحية والمتاحف فى نيويورك، وكان من يراهما يظن أنهما «أختان أكثر من كونهما أم وابنتها»، وهكذا كان أصدقاء مارى يقولون وكأنه سيكون مدعاة لتفاخر «مارى». ولم يكن ذلك صحيحًا بالطبع، فلم تكن «مارى» تشبه «إلسى» فى شىء، فقد كانت «إلسى» مفعمة الأنوثة وتتمتع بجسد منحوت ممشوق مستقيم كالشمعة، وشعر أشقر داكن يتمايل بدلال وعينين جذابتين فيهما غنج وصوت له بحّة مميزة (كانت «مارى» تقول : «لا تنخدعوا بشخصية أمى فهى شخصية متسلطة»، ويضحك أصدقاؤها ولا أحد يصدقها)، وحين كانت «إلسى» فى منتصف الستينات من عمرها كانت تبدو متدفقة الحيوية كأنها فى الخمسينات، وبرغم أنها كانت تدخن بشراهة وتشرب الكحول فلم يكن على جلدها تجاعيد تذكر. تزوجت «إلسى» مرتين فقط، كان الأول هو والد «مارى»، واتخذت كثيرًا من العشاق، الذين تعاملوا معها بشكل

جيد فى العموم كما تقول «إلسى». لكنها الآن فى نهاية المطاف، وأحكمت الحياة قبضتها عليها، وشاب شعر صديقات طفولتها وأصبحن جدّات تملؤهن التجاعيد، وتقدّم أصدقاؤها فى السن وتقلّصت أجسادهم أو ماتوا، وحين بلغت «إلسى» أواخر الستينات من عمرها شعرت أن شيئًا ما قد حدث لها، فقد أجريت لها عملية جراحية للدوالى التى أصابت ساقيها، وأجريت لها عملية جراحية لاستئصال المبيضين، وأصيبت بالتهاب المفاصل وبالتهاب فى الشعب الهوائية استمر لعدة أسابيع فى أجواء نيويورك الباردة الرطبة والعاصفة أيضًا. كانت تشرب المشروبات الكحولية لفترات طويلة من حياتها، ولكنها انضمت لجماعة متخصصة فى علاج إدمان الكحول فى أوائل الثلاثينات من عمرها ثم توقفت عن التدخين فى نفس الفترة (كانت «إلسى» تقول بحزن : «كنت اعتقد أننى سأعيش إلى الأبد، انظرى ما آل إليه حالى الآن!»)، والواقع أن «مارى» كانت تجزع لأن أمها التى لم تبال بنفسها، التى تحاشت الأطباء لعقود، كانت لا تزال فى صحة جيدة نسبيًا بالنسبة لامرأة من جيلها، واستطاعت أيضًا الحفاظ على طبيعتها المتفائلة؛ لم يكن تسلطا، وإنما غواية، وكان الغدر من قدراتها.

فكرت «مارى» فى كل هذا وهى تقود سيارتها ببطء يدعو للجنون فى شارع «ساوث مين»، وفى ذكريات الماضى التى تنتظر أن تطل برأسها كالحية

من تحت واجهات المباني القديمة الرثة: فندق "لافاييت»، والمتجر البغيض، الذى يبيع بسعر الجملة الذى كان يومًا ما محلات «إخوان فرانكلين» الراقية، والقاعة القديمة لمجلس المدينة، التى لم تتغير كثيرًا على الأقل من الخارج، ومتجر «موهوك» للدخان، الذى ما زال قائمًا، وأضيف على واجهته إعلان عن وجود شرائط فيديو للكبار فقط ؛ وبنك «يوفيل للتسليف والادخار» ويعلوه برج الساعة الذى كان يبدو شاهقا وشامخًا بواجهة الساعة، البراقة، التى كان يمكن رؤيتها على بعد أميال، وذلك رغم حقيقة أن البرج الجرانيتي لم يكن أعلى من الدور الثانى من مبنى البنك، واندهشت «مارى» حين أدركت ذلك.

ولكن أين محلات «إيلا» ومقهى «كينجز»، وأين كانت «حانة »إيجل هاوس»؟

أدارت «مارى» عينيها فى المكان وهى مشوشة، فقد تهدم نصف المبنى، ولم يتبق سوى هياكل بعض المبانى، مجرد أحجار وطوب وأكوام من الركام كأن زلزالاً ضرب المكان أو ألقيت عليه قنابل، كانت تحس بطعم التراب الناعم وابتلعت بعضه، وحاولت جهدها أن تتناسى الضجة، التى تحدثها آلات الحفر، التى جعلت دقات قلبها تتسارع كأنها تناولت جرعة من دواء منشط، وها هى كرة حديدية ضخمة تتأرجح فى الهواء كبندول الساعة، وانهار جدار حجرى متهالك على الفور مخلفًا سحابة هائلة من التراب.

«اذهبى وابحثى عنه يا حبيبتى وسأنتظرك هنا».

«لماذا يا أمى ؟ لا أريد أن أذهب».

«لأنى أطلب منك ذلك يا «مارى ليندا» ».

«لا أريد أن أذهب يا أمى، أنا خائفة...».

«قلت لك اذهبى، تبًا لك! لا أطلب سوى أن تذهبى لتعرفى إلى أين ذهب ذلك السافل».

كان وجه أمها حادًا وجامدًا وكان فمها ملتويًا بطريقة تعرف «مارى ليندا» مغزاها، وكانت أمها تدمن الخمر؛ وكأن النار تضطرم داخلها ويمكن أن تطولك وتحرقك.

كانت أمى تريد أن تعرف أين كان «باد بيتشام» بالضبط، فلم يكن فى الحانة حين دخلا إليها، حين دفعت «إلسى» «مارى ليندا» إلى الداخل. كان «باد بيتشام» يمتلك حانة «إيجل هاوس» وكان صديقًا للجدّ «كينيلى» وذلك عندما كان لا يزال على قيد الحياة، وكان صديقًا لأم «مارى ليندا» أيضًا. وإلى حد ما كانت عائلتا «كينيلى» و «بيتشام» على علاقة ودية، وكانت زوجة «باد بيتشام» ابنة عم «إلسى» وكانوا جميعًا «منطلقى العنان» أيام كانوا فى المدرسة الثانوية، ويتذكرون تلك الأيام بحنين يجعلهم يضحكون ويهزون رءوسهم، ولم تكن الطفلة «مارى ليندا» تشعر بارتياح إزاء السيد «بيتشام»، فقد كان له طريقة كريهة فى النظر، ويتكلف الابتسام ويفرك أسنانه بطرف لسانه.

لم تكن «ماري ليندا» تشعر بارتياح إزاء الرجال البالغين عمومًا، ويستثنى من ذلك أبوها وكل أفراد عائلة «دونالدسون» لأنهم كانوا مختلفين، وكان حديثهم لطيفًا و «قريبًا إلى النفس»، وعندما تم الطلاق بين «إلسى» و «تيموثى دونالدسون» احتفظت الأم بحضانة ابنتها، لذا كانت «ماري ليندا» ترى أباها فى عطلات نهاية الأسبوع فقط.

لقد مات «باد بيتشام» منذ زهاء أربعين عامًا، ولكن يمكن للمرء أن يتخيل عظامه الضخمة وجمجمته المحطمة، التى كانت فى حجم الدلو ملقاة فى قبو المبنى القديم وسط الركام والأتربة الخانقة.

«لا يا أمى، لا تجعلينى أذهب غصبًا».

«ماري ليندا»، افعلى ما أطلبه منك».

كان صوت الأم يعتريه الخوف أيضًا، وكانت أصابعها تقبض على كتفى «ماري ليندا» وتدفع بها إلى الأمام.

حان الوقت، الذى فعلت فيه «مارى» ما هو غير متوقع، فبمجرد أن عبرت الاختناق المرورى بسلام فى شارع «ساوث مين» انعطفت يسارًا إلى شارع «بوست»، وقادت سيارتها فى اتجاه النهر برغبة خفية فى المغامرة وحسّ من الطيش، وتوقفت فى أرض فضاء خلف محل «إخوان فرانكلين» القديم» الذى أصبح مهجورًا ومليئًا بالحشائش.

«لمـــاذا يا د. «دونالدســـون»؟ هـذا ضــــرب من الجنون».

لم تكن امرأة متهورة فى المعتاد، فقد كانت تراقب أعمالها كما تراقب مشـاعرها، ولم يكن إلقاء النرد الذى اعتاد عليه الجد "كينيلى" العجوز السكير من ضمن عاداتها.

كان من الغـريب، وهى ترتدي حـذاءها الإيطالى وبدلتها الرمادية الداكنة من قماش الكتان (من بيت أزياء «آن تايلور») وشعرها المصفف بعناية، أن تقف بسيارتها فى وسط مدينة «يوفيل» لتتدسّ بين الجمع المحدود من الناس لمراقبة هدم بضعة مبان قديمة قبيحة الشكل، وسعلت من التراب المتصاعد المشبع بالاسبستوس، لكن الفضول كان يدفعها كالآخرين الذين كان أغلبهم من كبار السن المتقاعدين وبعض المتسوقات من النسوة وبعض المراهقين والأطفال (شكرًا للرب، ليس فى هذا الجمع من يعرف «مارى ليندا دونالدسون»).

«إن عظامه فى هذا الركام، تحولت إلى رماد».

«إنها سامة إذا استنشقتها!».

كان هذا قولا سخيفًا بالطبع، فقد دفن «باد بينشام» بشكل لائق منذ أربعين عامًا مضت.

لقد سويت حانة «إيجل هاوس» بالأرض، التى اهتزت حين ارتطمت كرة الهدم الحديدية الضخمة

بالمبنى، وأبدى أحد المراهقين الواقفين للمشاهد انبهاره بما يحدث وقال : «يا للهول! هذا رائع»، وكان صديقته ملتصقة به وتضغط على مؤخرتها المدملجة وكأن هدم حانة «إيجل هاوس» ذو مغزى خاص مثير للشهوة؛ لم تكن تلك الفتاة التى رأتها «مارى» تزيد عن أربعة عشر عامًا وشعرها البنى مصبوغ بخطوط من الأحمر الداكن والأخضر وتضع قرطًا صغيرًا في إحدى فتحتى أنفها والآخر على أحد حاجبيها، وكانت جميلة لكنها شاحبة وذابلة كأنها وسادة دبابيس، كما كانت نحيلة جدًا وكان أحد ثدييها الصغيرين مكشوفًا تقريبًا وفى حجم ولون المحارة الصغيرة، وكان الجزء العلوي مما ترتديه يبدو كأنه معلّق على هيكل عظمى، وترتدى بنطالا من الجينز الباهت، والعجيب أنها كانت حافية القدمين فى هذا المكان الملىء بالفضلات والزجاج المهشم.

فى ذلك المساء، ذهبت «إلسى» لتعود بـ «مارى ليندا» من المدرسة، وقادت سيارتها هنا وأوقفت سيارتها الشفروليه الصفراء فى هذا الموقع، ولكنها كانت أقرب إلى ظهر حانة «إيجل هاوس»؛ وسألت «مارى ليندا» : « لماذا أتينا إلى هنا يا أمى؟» وأجابتها أمها : «لأن ذلك السافل مدين لى، ومدين لجدّك ولابد أن يدفع الثمن»، ورأت «مارى ليندا» الأعراض التى تعرفها: فقد اتسعت عينا أمها وتهدّل شعرها على وجهها، وعندما كان يصيبها الفوقان، كانت «مارى ليندا» تشم رائحة فمها التى يختلط فيها الحلو مع اللاذع.

وبصوت زائر لمدينة «يوفيل» خرج توًا من فندق «لافاييت»، سألت «مارى ليندا» بودّ: «ما الذى يحدث هنا؟»، فقال لها الصبى المراهق بصوت مواطن فخور: «إنهم يهدمون هذه المبانى الكئيبة وسيقومون ببناء مبان أخرى جديدة»، وتكلفت صديقته ابتسامة وقالت: «أعتقد أنه آن الوقت لنذهب، أليس كذلك؟»، واضطرت «مارى» أن تضغط بأصابعها على أذنيها لتقلل من صوت آلات الحفر المزعجة، ومثل هذه الأصوات يخترق الروح وقد يسبب أذى غير قابل للشفاء، ثم رأت زقاقًا ضيقًا غير ممهد مجاور للأرض الفضاء المهجورة يؤدى إلى النهر، وتذكرت أنه كان المكان الذى أوقفت فيه أمها سيارتها فى ذلك اليوم. تكومت أكوام الركام على جانبى الزقاق وتنبعث منها رائحة علب الطعام الفارغة. كانت «مارى» تبتسم أو كانت تحاول الابتسام، لكن شيئًا ما كان يؤلم فمها، وفوجئت أن الشاب المراهق وصديقته انتبها وأحسا ببعض المسئولية، وسألاها: «سيدتى، هل أنت بخير؟»، ويوحى ما فعلاه أن لهما أمهات يتحملان عنهم المسئولية، فقد ساعدا «مارى» للجلوس على سور، حيث شعرت بضعف مفاجئ فى ركبتيها وخارت قواها كالماء ينضب فجأة، واهتزّت عظامها من صوت آلات الحفر المدوّى بينما كانت تجلس وهى تشعر بدوار وارتباك وتتنفس من فمها، وكانت ساقاها منفرجتين بشكل غير ملائم، وشكرت الرب أنها كانت ترتدى بنطالا، كما كانت تمسح أنفها بأصابعها، هل

كانت تبكى؟ وقالت جادّة : "وجد رجل ميت فى هذا المبنى منذ زمن بعيد، عثرت على جثته فتاة صغيرة، وأستطيع الآن أن أخبرها أن القبو قد أصبح أثرا بعد عين».

٣- روتشستر. نيويورك، ١٩٦٨ / بارنيجات. نيوچيرسى، ١٩٧٤ .

لعدة سنوات ظلت ترى هيئة رجل رأته داخل غرفة مرّت بجانبها، رجل لم يسقط أرضًا ولكنه «يستريح» - منبطح على الأرض مثلا - وقد تخايلت بهذه الصورة بطرف عينها المرهقة، ولكنها لم تتصور أن هيئة كهذه تعنى الموت، لأنها عندما دققت النظر لم تجد شيئًا بالطبع. وفى ليلة من الليالى فى «روتشستر» بينما كانت تعمل لوقت متأخر فى مكتبة الجامعة، مرّت بغرفة خافتة الإضاءة، ورغم أنه كان قد مضى ثمانية أعوام منذ رأت جثة «بيتشام» فى ذلك القبو، ولم تعد تفكر فى الأمر كثيرًا، فإنها وفجأة رأت المشهد ثانية بتفاصيل مفزعة، وأكثر وضوحًا عما رأته بالفعل ؛ إنه هنا. كيف يمكن أن يأتى إلى هنا؟ لقد كانت دائمًا امرأة منطقية حتى فى لحظات رعبها، وكان تفسيرها العقلى هو أنه إذا كانت جثة «باد بيتشام» فعلا هنا فى مكتبة جامعة «روتشستر»، وعلمًا أنه لا توجد صلة بين الجثة و «مارى دونالدسون»، الطالبة بإعدادى الطب، فإنه لا يمكن أن يوجّه إليها أحد لومًا.

وبدافع من غريزتها توقفت فى مكانها لتنظر مليًا فى الغرفة، ورغم معرفتها (التى ليس فيها مجال الشك) أنه ما من جثة ممدة على سجادة الغرفة، فإنها تحاشت النظر فيها وأطلقت ساقيها للرياح.

لا! لا تنظرى. لا شىء!

إن مقاومة الجنون قاعدة بسيطة من قواعد ضبط السلوك، فلابد أن تتحمل مسئوليتك تجاه أسلوب حياتك، فلست أحمق فى الأصل. كانت تقديراتها دائمًا ممتازة فى الجامعة، وتأهلت لدراسة الطب، وتجاهلت أمور السياسة، التى تأججت فى تلك الفترة (الاغتيالات وحرب فيتنام والمجهود اليائس لجيلها «للتركيز فى حروب الداخل»، وفضّلت هذا التوجّه؛ لأن التاريخ كان يحفل دائمًا بالحروب والدمار والقتل دون هدف، إن لم يكن هنا فذلك موجود فى مكان آخر، وإذا لم يكن فى مكان آخر فربما (احتمال) يكون هنا. وكانت أمها تعزيها دائما بأن تلفت انتباهها للنعم الكثيرة التى تتمتع بها - أو ربما كان ذلك أمرًا من أمها - وفى كل الأحوال كان ذلك الأمر جديرًا بالأخذ فى الاعتبار (كانت «إلسى» قد التحقت بجماعة علاج إدمان الكحول(*). ولم تشرب منذ ذلك الحين مشروبًا أقوى من فقط عصير التفاح لسنوات، وتضحك الأم قائلة «هل تصدقين ذلك؟»)، لذا كانت «مارى ليندا» ترى أن الجنون الخاص هو

(*) Alchoholics Anonymous (AA).

أسوأ أنواع السلوك الأحمق، كأن تتصنع الغباء وتؤذي نفسك بأن تسكب قطرات من الحمض على جلدك، أو تضحك ضحكة سخيفة كأنك ضبع (الضحكة التى تشبه ضحكة ذلك الغبى «باد بيتشام» التى كانت تمقتها)، أو أن تضحك فى جنازة أحدهم، أو أن تمزق ثيابك وتركض فى الطريق بهيئة غير لائقة. لقد كانت محاربة الجنون أشبه بإلقاء بطانية ثقيلة على النار لتخمدها «وهو ما يستطيع أى إنسان أن يفعله إذا حاول بجديّة».

إنها ترى أن اغتيال شخصين من آل «كيندى» كان يمكن تفاديه لو أنهما كانا متبصرين بما يفعلان، وكذلك «مارتن لوثر كنج»[1]، ولكنها احتفظت برأيها لنفسها.

أحد الرجال الذين أحبتهم وعاشت معه بشكل متقطع لعدة سنوات حين كانت فى أواخر العشرينات كانت له قصة: فقد رأته مستلقيًا فى الشمس وسط الرمال والحشائش على شاطئ «جيرسى»، وكان يرتدى بنطالا قصيرًا كاكى اللون وعارى الصدر، أما هى فقد كانت حينها طبيبة مناوبة فى «مستشفى الكنيسة البروتستانتية» فى «كولومبيا»[2] وتحيا حياة بعيدة الصلة عن مدينة «يوفيل» وعن أمها، وعندما

---

(١) Martin Luther King (١٩٢٩ ـ ١٩٦٨): حاصل على جائزة نوبل للسلام عام ١٩٦٤ لجهوده المتميزة فى مجال حقوق الإنسان (المترجمان).

(٢) Columbia Presbyterian.

رات ذلك الشاب متمددًا على الرمال، لم تستطع أن تحوّل نظرها عنه كأنها وقعت تحت تأثير سحره، ذهبت إليه ومالت فوقه ومرّت بيدها على شعره، والواقع أن الفتى كان شابًا فى مثل عمرها، وله رموش طويلة وشعر مسترسل تسميه النساء لون القمر، وعندما لمسته «مارى» فتح عينيه وفيهما أثر النعاس ولكنه تيقظ فورًا عندما رأى من تكون : إنها فتاة رجل آخر، لكنه عندما أدرك ما كانت «مارى» تفعله وهى ملتهبة بفعل النشوة وأدرك أين كانت تتسلل بيدها، تيقظ لها تمامًا وجذبها فوقه وأمسك برأسها بين يديه؛ كانت قبلاته قوية وجائعة، وأغلقت مارى عينيها، التى تؤذيها الشمس. إنها سترى فيما بعد ما حدث جراء فعلتها هذه.

ا . يوفيل . نيويورك، ١٩٦٠-١٩٦٣

ظلت «إلسى» لعدة سنوات توبخ نفسها وتشعر بذنب مخيف؛ «تحدثى إلىّ يا «مارى ليندا»! ما تفعلين هو مجرد لعبة تلعبينها، أليس كذلك؟».

فى بادئ الأمر اعتقدوا أن عدم قدرتها على الكلام يعزى لمشاكل متعلقة بالتنفس، فقد كانت متسارعة الأنفاس وتتنفس من فمها، ثم يتحول إلى انقطاع لأنفاسها (كانت «إلسى» تلفظ الكلمات بوضوح: إن - قطاع - أن - فاس)، وكانت «مارى» حينها تشعر بدوار وتلمع عيناها فى ثبات ولا تستطيع النطق حتى لو حاولت أن تخرج الكلمات بالقوة، فلم يكن يخرج من

فمها إلا أصوات ولعثمة مرتجفة كأنها تغرق، وفى العيادة الطبية جرؤت امرأة أن تسأل إلسى» : «هل ابنتك صماء وبكماء؟».

ظلت «مارى ليندا» على مدار عشرة أشهر بعد ١٦ أكتوبر ١٩٩٠ خرساء، وكم هو مريح عندما لا يتوقع أحد أنك ستستطيع الكلام، فسيتركونك وشأنك ما دمت لا تتكلم، وقد يمتد الاعتقاد أيضًا إلى أنك لا تسمع ؛ كانت تلك أوقات من السلام بالنسبة لها باستثناء مضايقات بعض الأطفال لها فى المدرسة، ولم يكن الأطفال يمثلون لها تهديدًا، وحتى الأصوات الصاخبة للصبية الأكبر سنًا لم تكن تثير فزعها، كانت فقط تخشى البالغين منهم: أحجامهم وأصواتهم المفاجئة وغموض تحولاتهم المزاجية ودوافعهم، وقبضة أصابعهم على كتفيك حتى فى أحوال الحب. «مارى ليندا»! أحبك يا حبيبتى! قولى شيئًا، أعرف أنك تستطيعين الكلام إذا أردت».

كانت تلك الفترة فترة هدوء حقًا، ولم يستجوبها أحد كما فعلت الشرطة، لأنها لا تستطيع نطق أى كلمات، ولأنها توقفت عن الكلام فهى محاطة بالصمت كأنها داخل فقاعة زجاجية منيعة تحملها معها أينما ذهبت.

كانت فى المدرسة هى «مارى ليندا دونالدسون» التى كان لها حيّزها الخاص، وكانت معلمتها الآنسة «دويلر» ذات العيون الندية تعاملها بعطف شديد،

ودائمًا ما كان مقعد «مارى ليندا» أمام الآنسة «دويلر» حين التحقت «مارى» بالصف الخامس والصف السادس، فقد كانت هى البنت الصغيرة التى عثرت على جثة الرجل الميت، الرجل الميت! الرجل الذى كان يملك حانة «إيجل هاوس» القريبة من النهر، بشعار النسر المحلّق، الذى يصفق الرياح بجناحيه. وعندما قتل «باد بيتشام» نشرت صورته فى جريدة «بوفيل» للمرة الأولى فى حياته كما قال الناس، يا له من سافل مسكين، كان سيحب الإعلان عنه مزدانة بصورته.

مقتل صاحب حانة يبلغ ٣٥ عامًا فى حادث سرقة.

ومن الغريب أنه فى الصورة التى نشرتها له الجريدة كان يبدو أصغر سنًا، فقد كان فيها مبتسمًا وبدون سوالف، كأنه كان خلىّ البال مما سيحدث له.

ومن الغريب أيضًا أنه عندما احتبس صوت «مارى ليندا» بالطريقة التى حدثت لها، شعرت بالأمان كأن شخصًا ما يحتضنها بشدة بحيث لا تستطيع الحركة، واحيانًا ما كان حلقها ينفتح فى الليل كأنه ثلج يذوب، وتبدأ فى النشيج والأنين كالأطفال، وتنادى فى نومها: «امى! أمـ...ى». ولو أن «إلسى» كانت فى المنزل وسمعتها لذهبت وهى تترنح إلى غرفتها لتقول لها موبخة: «ماذا يا «مارى ليندا»؟ ما بك الآن؟»، وسواء لم تكن أمها فى المنزل أو كانت فيه ولم تستيقظ،

فقد كانت «مارى ليندا» تتيقظ وتحاول أن تنام وهى جالسة، وكانت تلك طريقة آمنة بوجه عام، فلم تكن تغطى رأسها بوسادة فليس فى ذلك حماية لها، وكانت تحدق فى جدران غرفتها كأنها تمنعها من الانطباق عليها (كانت غرفتها صغيرة، أكبر قليلا من خزانة الملابس).

هناك دائمًا باب فى أحد الجدران، وطالما كان الباب مغلقًا فهى فى أمان، ولكن الباب قد يفتح أو أن يدفعه أحد ليفتحه، وقد ينزلق فيفتح. قد يكون هناك خلف الباب سلالم منحدرة تقود إلى الأسفل، وليس لديها خيار إلا أن تصل لتلك السلالم، فقد كان هناك شىء ما يدفعها أن تتقدم كيدٍ رقيقة تدفعها من ظهرها، لكنها قد تتحول ليدٍ قوية لشخص بالغ تدفعها من ظهرها، ثم شاهدت يدها وهى تضىء المصباح، ورأت فجأة ما كان جاثمًا أسفل القبو فى الظلام، وكان هذا هو خطؤها.

٥ . يوفيل . نيويورك، أكتوبر ١٩٦٠. مارس ١٩٦٥ .

كان الفتى زنجيًا، وهو التعبير الذى كان يطلق على السود فى ذلك الوقت، وكان معدل ذكائه ٨٤ درجة ولم يعتبر هذا المعدل «ضعفًا عقليًا حادًا» (وسيكون ذلك محل جدل بين رجال القضاء)، فلم تكن تلك حالة يصل فيها المرء إلى «العجز بين الخطأ والصواب» فى الأمور الواضحة؛ وبرغم أن الفتى كان فى السابعة عشرة من عمره، فقد خرج من المدرسة

وهو فى الصف الخامس ولا يجيد القراءة ولا يكتب تقريبًا، باستثناء أنه استطاع التوقيع فيما بعد باسمه بيد مرتعشة على سحب اعترافه بارتكاب فعل خطأ، بعد اعتراض المحامى، الذى عيّنته المحكمة على «الإجبار القسرى الذى مارسته الشرطة». لقد كان لهذه القضية دوىّ إعلامى لم تحظ به أى جريمة قتل حدثت فى مقاطعة «إيدن»، ونظر البعض فى بعض الأحياء إلى هذه الجريمة باعتبارها جريمة عنصرية، فالفتى «هيرام جونز» قتل «باد بيتشام» بوحشية وسرق ماله لأن «بيتشام» كان رجلا أبيض، وفى أحياء أخرى فسّرت الجريمة فى ضوء أنها قضية عنصرية وأن «هيرام جونز» اتهم بالجريمة لأنه زنجى، ولأن معدل ذكائه ٨٤ درجة، ولأنه كان يحيا فى حى «لوورتاون» Lowertown فى «يوفيل»، وهى منطقة مدقعة الفقر عبارة عن أكواخ خشبية وأسقفها من الصفيح، ولأن المحكمة اعتبرت شهادة أهله ـ بأنه كان فى المنزل فى الوقت المحتمل لارتكاب الجريمة ـ كذبًا ولم يؤخذ بها، ولأنه عندما قبضت عليه الشرطة وجدوا معه حافظة نقود «بيتشام»، والتى كان فيها ٢٨ دولاراً، ولأنه كان يرتدى حزام «بيتشام» الجلدى المفضل ذى الترصيعة الفضية، ولأنه تم العثور على حذاء «بيتشام» مخفى خلف منزل عائلة «هيرام جونز»؛ وادّعى «هيرام» أنه وجد كل تلك المتعلقات الخاصة بالسيد «بيتشام» بينما كان يصطاد السمك على ضفة النهر على بعد أقل من ميل من حانة «إيجل

هاوس»، هذا بالإضافة إلى أن «هيرام» تصرف كمذنب» وحاول الهرب عندما حضرت الشرطة إلى «لوورتاون» للقبض عليه بعد أن وشى به رجل زنجى، كما ارتكب ما هو أسوأ حين «قاوم القبض عليه»، وحينها اضطرت الشرطة لاستخدام القوة معه ما أدى إلى إصابته وعلاجه بالمستشفى : فقد كسر أنفه والعظام المحيطة بعينيه، وكذلك بعض ضلوعه، وانشقت قصبته الهوائية تحت وطأة حذاء ثقيل، لذا كان يجيب على أسئلة الصحفيين المتتالية بصوت هامس مبحوح يصدر صفيرًا .

أصر «هيرام جونز» على إنكار قتل الرجل الأبيض، فهو لا يتذكر اسم الرجل الأبيض أو كيف وجهت إليه التهمة بقتله تحديدًا، لكنه ظل على إنكاره، كما ينكر أنه ذهب إلى «إيجل هاوس» على الإطلاق، فلا يوجد زنجى واحد فى «يوفيل» يرتاد تلك الحانة؛ وتمت محاكمته كرجل بالغ وثبتت عليه تهمة ارتكاب جريمة قتل وسرقة من الدرجة الثانية، وأودع السجن حتى تنظر محكمة الاستئناف العليا بالولاية فى أمر محاكمة جديدة، ولكن فى ذلك الوقت شخصت حالة «هيرام جونز» بأنه «مضطرب عقليا» و «غير قادر على المشاركة فى محاكمته»، ومن ثم تم نقله إلى مستشفى الأمراض العقلية فى «بورت أوريسكانى» حيث مات إثر ضرب مبرح من النزلاء فى مارس عام ١٩٦٥ .

٩ . حانة «إيجل هاوس»، يوفيل . نيويورك، ١٦ اكتوبر ١٩٦٠ .

فى نهاية السلالم الخشبية التى تقود إلى أسفل كان هناك رجل ملقى على جنبه كأنه كان يطفو فى الظلام ويبدو نائمًا وذراعاه ممدودان، ربما كان فى الأمر مزحة، أو خدعة؟. كان «باد بيتشام» دائم المزاح، وكان يقول بتأنيب: «هيا، إنى أمزح يا فتى، أين حسّك الساخر؟»، وإن رآك خائفًا منه فسيقترب منك أكثر، وستشم رائحة الجعة المنبعثة منه ودخان السجائر ورائحة جسده أيضًا. وسترى معدته المتضخمة يلفها حزام ذو ترصيعة فتبدو كأنها ثمرة قرع، وكان له عينان حادتان ضاحكتان تحيطهما التجاعيد. وكان هذا الرجل قد خدم كجندى فى الحرب الكورية(*)، وكثيرًا ما تفاخر بما كان يفعله بالسلاح الأبيض أثناء الحرب، وكان يرفض خدمة الزنوج فى حانته لأنه، كما يقول، سيخسر زبائنه البيض، الذين يرفضون شرب الخمر من أكواب شرب منها الزنوج، أو استخدام مرحاض استخدمه زنجى. كانت زوجته «جوآنى» ابنة عم أم «مارى»، وكانت تنبعث منها رائحة بودرة التلك. عندما كان الأطفال

(*) Korean War : وهى الحرب التى خاضتها كوريا الشمالية وحليفتها الصين ضد كوريا الجنوبية التى كانت تدعمها قوات من الأمم المتحدة وخاصة قوات الولايات المتحدة الأمريكية، وقد استمرت هذه الحرب من عام ١٩٥٠ إلى عام ١٩٥٣ (المترجمان).

يلعبون على أكوام القش فى حظيرة «بيتشام» القديمة ويقفزون ويصرخون بجنون، كان «باد بيتشام» يضحك على «مارى ليندا» لأنها طفلة خجلة متخوّفة: «لست مثل أمك المشتعلة بالحياة»، وكان يقول لها هذا لمجرد أنها لم تركض وتقفز على أكوام القش كبقية الأطفال، وكان «بيتشام» يتمادى فى إغاظتها ويقبض على ما بين رجليها بإصبعيه الإبهام والوسطى ويقول: «احذرى! سيمسك بك السلطعون!» ولم يكن ذلك إلا مزحة، ولكن وجهه كان يتوهج ويبدو سعيدًا بما يفعل؛ لذا فقد يكون رقاده عند حافة السلالم فى هذا المكان ذى الرائحة المقززة وذلك المصباح، الذى يؤلم عينيها، مزحة أيضًا. ولكن رأسه كان كبير الحجم كدلو، وكان ملتويًا على جانب واحد وكأنه كان يحاول النظر إلى ما وراء كتفه، وكان هناك شىء يبرق على رأسه... أهذا دم؟ كانت «مارى ليندا» تخاف من مشهد الدم، وبدأت تتنفس بتسارع كأن الأنفاس لا تمرّ على فمها قبل خروجها. هل كان السيد «بيتشام» يتنفس؟ لقد كان فمه مفتوحًا بدهشة وكان شىء ما يبرق فيه أيضًا. وشمّت «مارى رائحة نتنة أزكمت أنفها، كأنما بال الرجل على نفسه، كيف وهو رجل بالغ؟ أرادت «مارى ليندا» أن تفرّ لكنها لم تقو على الحركة ولم تستطع أن تتفوّه بكلمة. لم يحدث أن تبادلت حوارًا مع صديق أمها «باد بيتشام» باستثناء ردود على استحياء لمحاولات إغاظته إياها، رد يقتصر على «لا تستطيع» أو «لم يحدث» يخرج من

امد جوانب فمها متجنّبة النظر إليه؛ وقفت فى حالة من الشلل غير قادرة على التقاط أنفاسها ولم تجد تفسيرًا لوجودها فى هذا المكان وأين يقع هذا المكان بالضبط، أهى زنزانة كالتى نراها فى الأفلام؟ أم كهف؟ وتذكرت الخفافيش التى كانت ترتعب منها، لأنها تدخل فى شعر البنات الصغيرات. من بين كل الحانات الموجودة فى مدينة «يوفيل» حيث تذهب أمى حين تشعر بالوحدة، كانت الحانة المفضلة لديها هى «إيجل هاوس» لأنها كانت المفضلة للجدّ «كينيلى» أيضا، وكان من المسموح لـ «مارى ليندا» أن تلعب فى صندوق الموسيقى، فكانت تضع فيه عملة بعد أخرى وكان الرجال الجالسون على البار يعطونها عملات لتضعها فيه، كما كانوا يدفعون حساب الشراب، الذى تطلبه أمها، وكذلك كان يفعل «باد بيتشام»: «هذا على حساب المحل»، وكانت «مارى ليندا» تشرب المياه الغازية حتى تنتفخ أمعاؤها وتشعر بألم الرغبة فى التبول، وإذا بقيت أمها حتى وقت متأخر كانت تنام على أحد الكراسى السوداء اللزجة ذات القاعدة الفينيل. كل الرجال كانوا يحبون أمها، فقد كانت جميلة ينساب على كتفيها شعرها الأشقر الداكن، ولها طريقة مميزة حين ترقص وحدها، حيث كانت تلفّ وهى ترفع ذراعيها كأنها امرأة تحلم.

وذات مساء، سمعت «مارى ليندا» شجارًا بين والديها، سمعت صوت أبيها، ثم صوت أمها يعلو حتى

وصل إلى حد الصراخ: «لأنك أوصلتنى إلى درجة لا تحتمل من الملل، هذا هو السبب».

لم يكن مسموحًا أن تسمع «مارى ليندا» مثل هذه الكلمات.

لماذا كان ذلك المساء خاصًا؟ لم تعرف «مارى ليندا» السبب، فقد جاءت أمها لتأخذها من المدرسة ولم تكن تلك عادتها، وقالت إن ليس عليها أن ترجع فى أتوبيس المدرسة اللعين، ثم ذهبت إلى الحانة وأوقفت سيارتها بجواره، وستتحول المسألة ـ كما ذكر فى الصحيفة ـ إن الباب الأمامى لحانة «إيجل هاوس» كان مغلقًا والباب الخلفى له مفتوحا، ولم يكن هناك زبائن على البار فى ذلك الوقت المبكر حيث لم تتعد الساعة الرابعة مساءً. قالت أمى كلامًا بعصبية (هل كان لـ «مارى ليندا»؟) أنها لا ترغب فى رؤية وجه «باد بيتشام»، «اذهبى وقولى له إننى أنتظره هنا» وكرّرت ذلك، ولم يكن مفهومًا هذا التعارض بين كون الأم لا تريد رؤية وجه «باد بيتشام» وطلبها من «مارى ليندا» الذهاب لتأتى به خارجًا لتتحدث معه، ألا يعنى ذلك أنها سترى وجهه؟ لكن ذلك كان أسلوبها عندما تشرب الخمر، ففى لحظة تحتضن رأسها وتقبلها فى فمها وتقول لها «ابنتى الصغيرة الجميلة»، وفى اللحظة التالية قد تصرخ فى وجهها وتوبخها. لم يتبق واضحًا فى ذاكرة «مارى ليندا» سوى شذرات من ذكريات ذلك المساء من يوم ١٦ أكتوبر ١٩٦٠، كأن كل

شيء كان حلمًا أو ضربًا من خيال؛ لقد عقل لسانها بمجرد أن دخلت البار بحثًا عن «باد بيتشام» الذى كان عادة موجودًا خلفه، وكان عليها أن تنظر فى المطبخ كما طلبت منها أمها، وشعرت برغبة عارمة أن تغادر المكان لكن أمها طلبت منها ألا تغادر»: اذهبى لترى اين ذهب ذلك السافل، أعرف أنه هنا فى مكان ما»، ورات «مارى ليندا» «باد بيتشام» وجال بخاطرها. .. «إنه ميت»، وضحكت بصوت خفيض ووضعت أناملها على فمها. لم ترسلها أمها إلى المدرسة فى اليوم السابق «لالتهاب فى الأذن» و «حمى»، والأم تقول إنك إذا أصبت بالحمى فإنك «تصاب بالهذيان»، وقد تاتيك أحلام مفزعة عندما لا تنام بعمق أن تثق بما تراه أو ما تظن أنك رأيته، لذا طلبت مدرسة «مارى ليندا» هاتفيًا واعتذرت عن ذهابها للمدرسة؛ ولكن «مارى ليندا» كانت تشعر أن أمها منعتها عن المدرسة لأن شيئًا ما يزعجها، فقد كانت عصبية ومشوشة، وحين رن جرس الهاتف لم تجب عليه، ثم رفعت السماعة بعيدًا عن الهاتف بعد برهة، وتأكدت أن ستائر المنزل جميعها مسدلة وأن الأنوار فى أغلب الغرف مطفأة عدا غرف الدور العلوى، وطلبت من «مارى ليندا» أن تصمت حين سألتها عما يجرى.

كان ذلك الأمس منذ زمن بعيد بالفعل.

كانت «مارى ليندا» منحنية بخوف أعلى درجات السلم، وهى مثبتة ناظريها إلى حيث يرقد «باد

بيتشام» الذى كان يبدو كأنه نائم، لا - إنه ميت، ولكن «باد بيتشام» كان مخادعًا وقد يستيقظ فى أية لحظة، فقد تكون حيلة يلعبها على أمى أيضًا، فلا يمكن أن تضع ثقتك فى هذا الرجل. تسمّرت «مارى ليندا» على الدرج لوقت طويل وهى لا تستطيع الحركة ولا التنفس، وأخيرًا جاءت أمها تبحث عنها...

وجاء صوت ناعم كالهمس من خلف «مارى ليندا»:

«حبيبتى؟ هل هناك من خطب؟».

٧. حانة «إيجل هاوس»، يوفيل. نيويورك، ١٦ أكتوبر ١٩٦٠ .

طلب منها أن تقابله عند الظهيرة فى الحانة فقد كان يريد أن يراها، وقال إنه سيترك الباب الخلفى مفتوحًا، قد كان قد انفجر غاضبًا فى وجهها عندما لم ترد على مكالمته الهاتفية، وذهب إلى البيت وحطم الباب تقريبًا ولتذهب ابنتها أو أى شاهد آخر إلى الجحيم، ولذا ذهبت الأم إليه فلم يكن لديها خيار آخر، وأوقفت سيارتها الشفروليه فى شارع «فرونت» بجوار فندق «لافاييت»، وهو شارع مغلق فى نهايته لا يؤدى إلى أى مكان، ولم يرها أحد وهى تسير متوجهة إلى حانة «إيجل هاوس» عن طريق الزقاق. كانت ترتدي معطف مطر وتربط بإحكام وشاحًا حول رأسها، وكانت تمشى على عجل بطريقة لم تعتدها «إلسى كينيلى»، ودخلت من الباب الخلفى؛ لم يكن هناك أحد فى الحانة فى ذلك الوقت من النهار.

واتسم نهار ذلك اليوم أنه كان رائقًا، حيث تسقط من السحب قطرات باردة من المطر أقرب إلى قطع الثلج، ثم تتباعد السحب لتنفتح السماء لتظهر رقع من لونها الأزرق الزاهى، وكان ذلك عندما غادرت الأم الحانة؛ كانت حانة «إيجل هاوس» فى أغلب الأوقات تفتح أبوابها حوالى الرابعة مساءً وتغلق حوالى الساعة الثانية صباحًا لم تكن الحانة قد فتحت حتى للغذاء، لكن الحانة كانت مغلقة فى ذلك اليوم؛ كان «بيتشام» ينتظرها فى الداخل: «حان الوقت يا «إلسى»، كان غاضبًا لكن مجيئها أراحه، فقد حضرت كما أمرها وانصاعت له المرأة، وحاول أن يشدّها إليه ودفعته هى بعيدًا وهى تضحك بعصبية، كانت قبل مجيئها قد غسلت شعرها ووضعت أحمر شفاه ذا لون أحمر قان وعطر نفاذ، وأحضرت معها سكينًا حادة وضعتها فى حقيبتها، وهى سكين ضمن مجموعة كانت السيدة «مودى دونالدسون» - والدة زوجها - قد أهدتها إليهم، ولكنها كانت تعرف أنها لا تمتلك الشجاعة الكافية لاستخدامها، فقد كانت تخاف من مشهد الدم، وترتعد من إمكانية أن يخطف «باد بيتشام» السكين من بين أصابعها، فقد كان قويًا سريع الحركة بالنسبة لرجل فى حجمه، وكانت هى تعرف ذلك، بالإضافة إلى أنه كان حاد الذكاء. كان ينبغى عليها أن تقول له ما يريد أن يسمع لتسترضيه، لأنها جعلته يستشيط غضبًا فى الليلة الماضية، وكانت تعرف ذلك، وبررّت ما فعلته بأن «مارى ليندا» كانت تعانى من التهاب فى

الأذن واعتذرت له. امتدت يده إلى صدرها ليعتصر ثديها، دائمًا تشعر فى لمسة هذا الرجل بالوضاعة التى لم تخل منها قبلته لها، فرائحة الجعة تفوح من فمه، ولسانه يقتحم فمها كأنه ثعبان الماء، وأسنانه كانت تحتاج إلى تنظيف، كما كانت تكره سوالفه الرفيعة رغم أنها يومًا ما كانت ترى أنها مثيرة (هل كانت مجنونة وقتها؟)، وكانت تعتقد أن «باد بيتشام» شخصيًا «مثير، نوعًا ما». كان الفضول ينتابها دائمًا لتعرف الرجل الذى تزوج ابنة عمها «جوآنى». ففى المدرسة الثانوية كان بعضهم يقول إن البنية الجسمية لكل رجال عائلة «بيتشام» قوية كالأحصنة، وهو أمر مقبول إذا كنت تحب الأحصنة. حين تكون ثملة، كانت تفكر أنها ربما تحاول أن تعرفه أكثر، ولكنها عندما تكون نصف مخمورة ثم تفيق تمامًا من تأثير الخمر، فقد كانت تفكر تفكيرًا آخر.

كانت «مارى ليندا» فى المدرسة حيث كان ينتهى يومها المدرسى فى الثالثة والربع مساء. «اسمعى، لدى أولاد أيضًا، أتظنين أن لا أولاد لى لأهتم بهم؟».

هذا الحقير، علام يؤنبها الآن؟ على «مارى ليندا»؟.

كان هناك باب يؤدى إلى القبو كأنه بوابة إلى الأحلام، تقدّم إلى المغامرة! لكنك لا بد أن تكون شجاعًا. انتزعت فمها منه وضحكت، متلاحقة الأنفاس كأنها كانت تجرى، ورفعت شعرها الأشقر

الداكن الكثيف بيديها وتركته ينسدل وهو يتخلل اصابعها بالطريقة، التى كان يحبها ورأت فى عينيه الرغبة متأججة، وكان قد دفعها بسرعة فى اتجاه القبو ذى المصباح المثبت فى السقف وتحيطه شبكة عنكبوت، ورغم الضوء الشديد، الذى يصدر عن المصباح فإن المكان كان يبدو غائمًا، تفوح منه رائحة البول المنبعث من مرحاض الرجال فى مؤخرة القبو ومن الأرض الترابية الرطبة، فقد كانت كل الأقبية فى تلك المبانى التاريخية ترابية، وماتت فيها أشياء وتعفنت، كان «بيتشام» يتحدث ويضحك، وكان مستثارًا كالبطارية تامة الشحن، لكنه لم يكن يحب المرأة المخادعة وأرادها أن تعرف ذلك، فلمح لها عن اشياء يعرفها عن أبيها لم تكن تريد أن يعرفها أحد فى «يوفيل»، وفهمت هى مغزى التلميح. وتقدّمها على السلالم إلى المكان الذى ذهبا إليه من قبل، والواقع ان هذه هى المرة الثالثة؛ كان يغمرها إحساس بالاشمئزاز والعار... ودفعته، فجأة دفعته بقوة، وفقد هو توازنه وسقط إلى الأمام. دفعته «إلسى» باصابعها القوية وعليها طلاء الأظافر، قوية حقًا إذ انها لم تفعل أكثر من دفع الرجل السمين بها، فوقع.

سقط على السلالم الخشبية بعنف، مترهل وملىء بالكتل اللحمية كأنه جوال من البطاطس وهو يتدحرج إلى أسفل، كان مشهدًا مرعبًا ولكنه ممتع: الرجل الضخم لا حول له ولا قوة، يرتطم جسده بدرجات السلم الملتوية بشكل سيعرّضه للخطر لأنه ثقيل

الوزن البالغ ٢٢٠ رطلا مع طوله البالغ ستة أقدام وثلاث بوصات؛ لم يكن يملك من أمره شيئًا ويسقط كأنه طفل عملاق. وانتهى السقوط برقاده ذاهلا على الأرضية الترابية وخرج من حلقه أنين متأوّه، إن لم يكن «بيتشام» قد أصيب إصابة بالغة واستطاع إلى «إلسى» سبيلا، فسيقتلها حتمًا ويسدد إلى وجهها اللكمات وسيضربها حتى الموت. رأت هى ماسورة ملقاة فى كومة من الركام، وكان «بيتشام» يئن ويتلوى، قد يكون ظهر ذلك الحقير قد أصيب أثناء وقوعه، أوكسر عموده الفقرى أو رقبته، وربما كان يحتضر، ولكن «إلسى» لم تكن تعتقد أن الأمر بهذه البساطة، وشعرت أن عليها أن تتأكد أن الأمر قد انتهى، أو ترغب فى ذلك، فقد قتل أبوها «ويلى كينيلى» رجالا فى «أوكيناوا» بالبندقية وبالسلاح الأبيض، ولم يكن يتباهى بذلك، وكان يقول إنه عمل قذر يلعنه الرب، فالقتل كان عملا شاقًا لا مدعاة فيه للفخر ولكنه ليس مجلبة للعار أيضًا، فتلك كانت مهمته التى تلقى عنها أوسمة، وكان مقتنعًا عقليًا أنه أدى واجبه: «أدّى عملك كما ينبغى يا فتاتى وإلا لا تفعليه مطلقًا؛ لا تتعجلى».

عرفت وكانت تعرف أنها قد عقدت العزم فى المجىء إلى هنا.

وبعد أن أتمّت عملها غلفت الماسورة الملطخة بالدماء وعليها آثار شعره بورق صحيفة، ولم يكن قد

الر عليها دم ولكنها ستستحم للمرة الثانية هذا اليوم على أية حال، ومسحت فم الرجل الميت بخشونة جيدًا لتزيل أى أثر لأحمر الشفاه القانى. وأخذت حافظة نقوده المتخمة بالنقود، وفكت حزامه ورباط حذائه وأخذتهما معها، لقد كانت تشعر بحرارة جسدها لكنها كانت هادئة تهمس بصوت مسموع : «والآن أريد هذا وهذه. واحد، اثنان، الحذاء. ثلاثة، أربعة، اغلقى الباب، لا تتعجلى»، وحملت مقتنيات «بيتشام» فى حقيبة ورقية أخذتها وذهبت بها إلى سيارتها، التى كانت تقف فى شارع «فرونت» بجوار الدق «لافاييت»، وكان مكانًا مثاليًا لإيقاف سيارتها : فهو شارع جانبى يطل على النهر، كما أنه مغلق فى آخره ولا يسير فيه عادة سوى عربات النقل. لم يرها أحد ولن يراها أحد، فلم تكن الساعة قد جاوزت الواحدة ظهرًا بعد، وكانت السحب تتقشع عن السماء بسرعة، ففى كل صباح عندما يقترب الشتاء تكون السماء ملبدة بالسحب كأنها قطع من الأسمنت، ولكن الرياح التى تهب من بحيرة «أونتاريو» تفرقها عند الظهيرة عادة، لتظهر رقع زرقاء براقة كأضواء النيون. قادت «إلسى» فى اتجاه الشمال بمحاذاة طريق النهر وهى تدندن بأغنية من فيلم «الطاحونة الحمراء»(*)، لقد علقت تلك الأغنية فى ذهنها وعاودتها كثيرًا خلال حياتها، وتذكرتها فى هذا اليوم وفى هذه الساعة ؛ لقد تفاجأت أنها بهذا الهدوء، أنت تفعلين

(*) Moulin Rouge

الصواب يا فتاة، تلك هى فتاتى، وستتصرف تصرفًا عجيبًا فى غضون بضع ساعات، فستحضر ابنتها «مارى ليندا» إلى موقع الحدث، لتتأكد أن الرجل مات وأن هذا قد حدث بالفعل، وحتى لا يلومها أحد إذا كانت ابنتها هى التى اكتشفت الجثة، لأنها لم تكن تعرف بالطبع؛ وأرادت أن تتوقف عن التفكير: «كان هذا هو الصواب يا فتاتى، فلا تنظرى إلى الوراء».

كانت سيارتها الشفروليه ترتّج وهى تقودها على طريق ترابى يفضى إلى النهر حيث يقف الصيادون، ولكن لم يكن هناك صيادون فى ذلك اليوم، ولن يراها أحد هنا عند أشجار الصفصاف الكثيفة على ضفة النهر، كما أنها زوجة طبيب وليست امرأة قد تشكّ فى ارتكابها جريمة قتل، وألقت بالماسورة الملطخة بالدماء فى النهر على بعد عشرين قدمًا من الشاطئ وغاصت فى الماء على الفور ولن يتم اكتشافها أبدًا، وتركت على شاطئ النهر مقتنيات «بيتشام» الأخرى لمن يجدها: حافظة نقوده البالية المصنوعة من جلد الخنزير، التى لم تعر «إلسى» اهتمامًا للنظر إلى ما فيها، فهى لا تريد نقود ذلك الوضيع، وألقت بحزامه الجلدى، الذى كان يتباهى به كثيرًا، كما كان يتباهى بالترصيعة الفضية، التى كانت رمزًا لفحولته، وكذلك حذاؤه قياس ١٢ المصنوع من جلد صناعى بنى اللون تنبعث منه رائحة كريهة.

ثم قالت: «كأنه موسم «الهالووين» : حيلة أم عطاء؟ والآن الأمر هنا معكوس»(*).

٨. يوفيل. نيويورك. ١٩٥٩ - ١٩٦٠.

كانت تشعر بالوحدة الشديدة ولا تستطيع التحكم فى الأمر، إنها تفتقده.

أمرضها البكاء، واتسعت ملابسها عليها حتى ملابسها الداخلية، واحتقنت عيناها وأصبحتا كأن بهما كدمات.

تعاطف معها زوجها فى بادئ الأمر، وكانت تتصلب بين ذراعيه رعبًا من الموت، الذى لم تكن تستوعب أنه يحدث: «لا أصدق، لا أصدق أنه رحل عنا، فأنا أستيقظ ولا أتصور أن هذا قد حدث».

ولم تستطع التحكم فى حزنها وبدأت تذهب إلى حانة «إيجل هاوس» رغم أنه لم يكن هناك، لأنها كانت فى كل مرة تدخل فيها الحانة وهى تدفع الباب الخلفى مثله، كانت تقول لنفسها : «ربما لم يمت بعد، وأنه قد يكون جالسًا على البار ينتظر».

كان أصدقاؤه هناك، ومعظمهم أكبر سنًا من «ويلى ميلى»، لكنهم ما زالوا أحياء. ونظرت حولها فى البار ولم تر امرأة أخرى غيرها، و «باد بيتشام» يقف خلف

(*) اعتاد الأطفال فى موسم «الهالوين» Halloween الطرق على أبواب الجيران قائلين:: «حيلة أم عطاء» trick or treat كتهديد بالقيام بحيلة إلا إذا أعطاهم صاحب البيت عطاء الذى يكون حلوى عادة (المترجمان).

البار محدقا فيها كأنه يقول :«إلسى كينيلى»! ابنة «ويلى كينيلى»، التى تزوجت الطبيب.

يا إلهى! الجميع كان يحب «ويلى كينيلى»، ولكن لا أحد يحب «باد بيتشام».

لو لم يكن قد رحل قبل أن يقول وداعًا!

كان تنفسه يضيق أحيانًا فيضع كف يده ذات الندوب على صدره، وفى عينيه تلك النظرة إلى بعيد، وكانت تسأل أباها عمّا به ولكنه لا يسمعها، وعندما تكرر السؤال يحول نظره إليها ويركّز فى وجهها بعينيه الزرقاوين الرائقتين، ثم يضحك لها ويقول: «ما الذى حدث فى ماذا؟ العالم؟ لقد حدث الكثير».

وذات مساء فى حانة «إيجل هاوس» أعطى «إلسى» قطعتى النرد العاجية البالية، التى كان يحب اللعب بها، وكان قد جلبها من «أوكيناوا»، وكان يطلق عليهما نرد حظه السعيد :

«حافظى عليهما ولا تضيعيهما يا حبيبتى».

كانت تلك علامة واضحة، ألم تكن كذلك؟ كان هذه طريقته ليقول وداعًا، ولكن «إلسى» لم تنتبه لذلك.

لم يتحدث أحد عن الطريقة التى توفى بها «ويلى كينيلى»، إحدى الصحف غير المحلية نشرت على صفحاتها أنه «قفز أو سقط» من فوق سياج الجسر الذى تجرى فيه إصلاحات فى منطقة شلالات

«بنتيرن»، ووجد ماء فى رئتيه، غير أنه قد مات نتيجة «سكتة قلبية»؛ وعلى أية حال اعتبرت وفاة «ويلى كينيلى» مجرد «حادثة»، لكن «إلسى» كانت على يقين أن أباها لم يكن الرجل الذى تقع له حوادث.

ذلك الصيف كانت تشرب الخمر فى حانة «إيجل هاوس»، قليلات هن النسوة اللائى كن يذهبن إلى الحانات فى «يوفيل»، ولكن لم تكن من بينهم زوجة طبيب تعيش فى أحد أرقى البيوت فى شارع «تشيرش»، ولكن «إلسى» كانت ابنة «ويلى كينيلى» لوقت طويل قبل أن تصبح زوجة د. «دونالدسون»، وكانت تذهب إلى مدرسة «يوفيل» الثانوية ويعرفها الجميع فى الحى، ومال «بيتشام» ببطنه الكبيرة على حافة البار وتحدث معها واستمع لها متعاطفًا؛ له شعر زيتى المظهر خفيف وداكن ويبدو كأنه لا يزال تلميذًا فى المدرسة الثانوية، وله سوالف كثيفة تشبه سوالف «إلفيس بريسلى» ويرتسم على وجهه تعبير متجهم شبيه به أيضًا، وله عينان سوداوان عميقتان ونديّتان وثابتتان؛ كانت «إلسى» ترى أن «باد بيتشام» رجل جذاب بأسلوبه وبمقاييس «يوفيل»، وتتذكره وهو فى زى القوات الأمريكية أثناء الحرب، وكان حينها نحيفًا له وقفة معتدلة، وكان جذابًا وله وجه ذئب. تبادلا القبل ذات مرة منذ وقت بعيد فى فناء منزل ما، هل كان أثناء حفل صباحى؟ فى رحلة؟ متى؟

كان «باد بيتشام» يحب أباها و«معجب جدًا» بـ «ويلى كينيلى»، وكان يقول إن والد «إلسى»

رجل «لا يلقى بالا للهـراء»، وكـان بينهـمـا مـا هو مـشـتـرك: فـقـد شـارك والدها كـجندى فى الحـرب العالمية الثانية، كما يسمونها، وشارك «بيتشام» فى الحرب الكورية، وكانا يكرهان الجيش والضباط وأى شخص يصدر لهما الأوامر، كما أن «ويلى كينيلى» لم يكن له ابن ذكر، وعندما مسح «بيتشام» الدموع من عينيه انفطر قلب «إلسى».

من الصعب على الرجال الحديث عن الفقد والأسى وعما يخشونه، ومن الأفضل تجنب محاولة الحديث فى أى من ذلك معهم، فعادة ما يتسم حديثهم حينها بالفظاظة ونقص اللياقة.

ولكن «إلسى» كانت تخبر «بيتشام» وأصدقاء أبيها أنه كان أعز أصدقائها وليس مجرد والد، وكان هو يحبها دون مقابل ودون انتقاد لها، وتلك كانت طريقته معها دائمًا، وربما كانت هى لا تستحق ذلك ولكن هكذا جرت الأمور؛ رأت جثته قبل دفنها ورأته مكفّنا وهو يوارى تحت الثرى ورأت انعكاس حدث موته فى عيون الآخرين، كالألوان التى تختلط ببعضها أثناء خسوف الشمس، ومع ذلك لم يكن الأمر يبدو لها حقيقيًا، ووجدت نفسها تذهب إلى الأماكن، التى كان يرتادها، خاصة فى أمسيات الخريف والشتاء، حيث تحوّل الشمس السماء فى جهة الغرب إلى سماء ضبابية ذات احمرار بلون الصدأ، تلك التى تنعكس على التموجات المعتمة لنهر «يوفيل»، لن تقود «إلسى»

سيارتها إلى شلالات «تينتيرن» أبدًا ولن تعبر ذلك الجسر أبدا؛ وفى هذه المرة الحزينة فى ساعة الغسق، لم تتوقف عن التفكير فيه وهو ينتظرها فى حانة "إيجل هاوس". كان يجب أن تكون فى بيتها مع ماري ليندا"، ابنتها، وكان يجب أن تعد طعام العشاء لزوجها، كان عليها منذ تلك الحظة أن تكون أمًا وزوجة، فلم تعد ابنة بعد الآن.

إنه وقت الخطر المحدق.

ربما لم يكن د. «دونالدسون» متعاطفًا مع أحزان زوجته كما أعتقد الناس، خاصة عندما يكونان بمفردهما، فقد كان بينه وبين أبيها خلاف فى الرأى، فلم يكن د. «دونالدسون» موافقًا على أسلوب أبيها فى إدارة عمله، فقد كان يملك محلا لتخزين الأخشاب لكنه لم يكن رائجًا، وكان يبيع للزبائن بالأجل ونادرًا ما طالبهم بالمال، كما ملأت الثقوب سقف محله المصنوع من الورق المقوى المدهون بالزفت، أما الأخشاب فقد التوت وظهر فيها العفن، وحين يأتيه أى مشترٍ لابتياع ألواح خشبية مفردة كان يقول ببساطة: «يا إلهى! خذ ما تريد وحسب»؛ أما زوج ابنته «تيم دونالدسون» فقد كان شخصًا مختلفًا تمامًا، وبعد وفاة «ويلى كينيلى» بدأت «إلسى» تكره زوجها! كرهت تنظيفه لأسنانه، والأصوات التى يصدرها حين يكون فى الحمام، وتنهداته، وطريقة مضغه للطعام، وتعبيرات وجهه المتجهمة، وحديثه مع «مارى ليندا» :

«هل خرجت فى السيارة أنت وماما اليوم؟ هل ذهبتما للتسوق؟ أين؟»، لم يتكلم «تيم دونالدسون» بطريقة وضيعة أبدًا، وكان دائمًا عذب اللسان مع الجميع: مع الممرضة التى تساعده فى عيادته ومع المرضى الذين كان أغلبهم من النساء، وكان يحلق شعره الأصفر الفاتح مرة كل أسبوعين، إنه رجل مهذب وذكى. ولكن غيرته من «ويلى كينيلى» ازدادت باطراد بعد وفاته، وما زاد الطين بلة أن «كينيلى» ترك بضعة آلاف من الدولارات لابنته «إلسى» و«مارى ليندا» دون أية إشارة على الإطلاق فى وصيته للدكتور «دونالدسون»، الذى تزوج من ابنته «إلسى» التى لم تكن عذراء! وكان لها سمعة معينة فى «يوفيل»، وقد كان يعتقد أن الرجل العجوز سيكون على الأقل ممتنًا لذلك.

وذات ليلة عندما امتدت يده إلى «إلسى» فى الفراش جفلت منه ونظرت إليه بكراهية لا يمكن أن تنكرها العين، وبدأت تبكى غضبًا وليس حزنًا: «دعنى وحدى، أنت تثير اشمئزازى، أنا لا أحبك، أنا أحبه هو».

وفى اليوم التالى حين آن وقت الغروب فى أوائل الخريف، ذهبت «إلسى» إلى حانة «إيجل هاوس» لتشرب كأسًا واحدًا، ولن تقضى سوى بضع دقائق، ولكن «باد بيتشام» كان ينتظرها وحده، ورآها وهى تدخل وتتجه إلى البار وعيناها تبحث عن أبيها. «أهلا

يا «إلسى»، قالها بأدب، ورأت هى عينيه المركزتين عليها رغبةعارمة فى أن ينالها.

فى المرة الأولى بينهما كانت ثملة، وأغلق «بيتشام» الحانة مبكراً، وبدأ يتحسس جسدها مترددًا ولكن بشراهة ويتمتم «حبيبتى. .. حبيبتى». وكأنه لا يصدق أن الحظ قد حالفه، وبقدر ما كان متخوفًا بدا أنه سينفجر بأسرع مما ينبغى، وقاد «إلسى» إلى القبو، حيث المصباح الوحيد المثبت فى السقف وسط شباك العنكبوت، وكانت رائحة الجعة النفاذة ودخان السجائر يملئان المكان، وكانت هى مستثارة إذ انها لم تمارس الحب منذ شهور، وكان الأمر بالنسبة لها غريبًا وقذرًا وشريرًا، فهى تفعل ما تفعل بدلا من تجهيز العشاء لزوجها المرهق الجائع وابنتها الصغيرة اللطيفة. ضحكت هى و«بيتشام» كالصبية بينما يخلع كل منهما ملابس الآخر كالمراهقين الذين يسمعون موسيقى «الروك»، لقد كانا يفتقدان سنوات المراهقة، لكنهما بشكل ما احتفظا بها فى سلوكهما ؛ كان بيتشام يصدر صوتًا كصوت الخنازير وهو يميل على «إلسى» فوق أريكة متهالكة سطحها متكتل وآلم جلدها، وكان يحاول الدخول إلى تلك الفتحة الساخنة المشعرة بين فخذى المرأة الممتلئين، وكان يندهش دائمًا أن هذه الفتحة موجودة تحت الملابس أيّا كانت المرأة، وبدأ يئن ويتأوه ووصل إلى الذروة بقوة كأن احدهم ضربه ضربة قاتلة على أسفل ظهره، أما «إلسى» فقد كانت تسبه وتلعنه وهى تضحك : «تبًا

لك، اللعنة عليك أيها السافل»، وفى نفس الوقت تشد شعره زيتى المظهر وتتأوه وتتلوى فى مقابل ذلك الكتلة الخرساء، كأن ممارسة الحب كان شيئا تعلمت أن تؤديه لذاتها، وكانت تقول فى نفسها : «لا تعتمدى على الرجل، وتعلمى أن تفعلى المطلوب بنفسك وكونى ممتنة».

كان عليها بعد ذلك أن تعترف أنها كانت فى حال أفضل، حالمة وكسولة وحالها طيب، حال لم تشعر به منذ وقت طويل، ولم تكن ترغب فى التفكير أنها تشعر بحنوّ تجاه «بيتشام» وأنها كانت تخافه، فلم تكن ترغب أن تشعر بأى مشاعر حانية تجاه أى رجل فى حياتها مرة أخرى ومع ذلك، عادت فى اليوم التالى إلى حانة «إيجل هاوس» حيث عينا «بيتشام» الحارقتان، وهى تحدث نفسها بأنها ستتناول مشروبًا واحدًا من الجعة لتقلّص إحساسها بالوحدة، ولتشرح لـ «بيتشام» أن ما حدث بالأمس كان خطأ، لأنها كانت ثملة ولم تستطع تقدير الأمور بشكل صحيح وتأمل ألا يؤثر ما حدث على احترامه لها. .. ولكن ما حدث أمس تكرر اليوم أيضًا، وقادها باد بيتشام فوق السلالم الخشبية غير المثبتة جيدًا إلى القبو، إلى الأريكة المهلهلة، التى تعرف أنها أريكة مستهلكة كانت فى غرفة المعيشة فى بيت ابنة عمها «جوآنى» زوجة «باد» وتخلصت منها : «باد»، لا، لا أستطيع، «باد»، أنا... ، و «إلسى» تسمع صوتها مقنعاً ومحذرًا، ولكنها كانت تقبله تبحث بشفتيها عن شفتيه وهما متعانقان

بجنون، «ليس هناك سبب لما يحدث إلا شعورى بأننى وحيدة».

وعندما غيرت «إلسى» رأيها فيما يخص مقابلة «باد بيتشام»، ضحك عليها وقال : «إلسى حبيبتى، ماذا دهاك؟ لقد كنت هناك وأعرف كيف كان ما حدث بيننا»، لقد أحسّ بما تعرفه عن نفسها، وشعر بجوع جسدها له حين أحاطت جسده بفخذيها، ورأى وجهها أثناء شبقها وكذلك دموعها، تكاد «إلسى» تجنّ بها! واستشاط غضبًا عندما امتنعت عن الذهاب إلى الحانة كما سيفعل أى رجل فى مكانه، وبدأ يتصل بها هاتفيًا فى بيتها : «أهلا «إلسى»، ماذا دهاك؟ لا تتصنعى القوة، هذا أنا «باد»، أنا أعرفك». وعندما توقفت عن الرد على مكالماته بدأ هو يحوم حول بيتها الفخم فى شارع «تشيرش»، ولم تندهش «إلسى» كثيرًا لأنها تعرف من يكون "بيتشام"، ولكنها لم تكن تصدق ما يحدث وهى تفقد السيطرة عليه: «لقد ارتكبت خطأ فادحًا على ما أعتقد. آه يا أبى».

حين كانت تقود سيارتها متجهة إلى محل البقالة ومعها «مارى ليندا»، كانت ترى فى مرآة السيارة الجانبية سيارة «بيتشام» خلفها، وأدركت أنها ارتكبت خطأ فادحًا.

ذات مساء توقفت بسيارتها فى محطة «سانوكو» وأوقف «بيتشام» سيارته أيضًا، وتحدثا معًا على رصيف المحطة، وكانت «إلسى» تزيح شعرها، الذى

يتلاعب به الهواء بعيداً عن عينها وكان «بيتشام» يقترب وهو يرتدى جاكت بسحّاب وعارى الراس، كانت «إلسى» تتكلم بسرعة وعلى وجهها ابتسامة تعرفها الفتيات فى ظروف كهذه، ابتسامة فقد الأمل ولكنها غير متوسلة بالضبط، وأخبرت «بيتشام» أنها غيرت رأيها حول مسألة «مقابلته» : فالخطأ هو خطؤها هى، «أتعرف؟ كنت أشرب الخمر، كنت ثملة»، و«بيتشام» يركز النظر فى «إلسى» ولا يسمع كلمة مما تقول، وأدركت أن الرجل مستثار جنسيا حتى فى هذه اللحظة، ولم يكن ما تقول يعنى له شيئا، فلا معنى الآن إلا لاهتياجه المرتكز فى أعضائه لكنه يغمر جسده المتوتر المرتعش، ورأت فى عينيه غضبا وانتصارا، وأدركت للمرة الأولى أن «باد بيتشام» صاحب الحانة وزوج ابنة عمها «جوآنى» قد يكون مصدر خطر عليها، وهو مثل أبيها «ويلى كينيلى»، قام بقتل الرجال فى أرض المعركة، ويملك القوة على القتل بيديه، وكانت تلك القوة مصدرا للذة، وفى محاولة لتهدئته وتخفيف التوتر والغضب المتوهج على وجهه، قالت «إلسى» بخجل مصطنع : «باد»، أنا فقط أشعر بالذنب تجاه «جوآنى»، فإذا. .. »، ورد عليها «بيتشام» بهمجية: «تبا لها! لا علاقة لـ «جوآنى» بما يحدث بيننا»، والتوَت شفتاه وهو ينطق اسم زوجته، وأصيبت «إلسى» بالدهشة من الكراهية التى تقطر من صوته حين أتى ذكر زوجته. أمن أجل «جوآنى»؟، وحاولت أن تترك المكان لكن «بيتشام»

امسكها من ذراعها، وكانت أصابعه قوية كالكلاّبات، ثم قال لها بصوت تملؤه الإيحاءات وفم تتبعث منه رائحة الجعة : «أخبرنى أبوك ببضع أشياء يا حبيبتى»، وسألته «إلسى» بقلق : «أية أشياء؟ وردّ «بيتشام» بابتسامة متكلفة: «أشياء لا تودين أن يعرفها أحد»، قالها كأن «إلسى» وأباها المتوفى كانا مشتركين فى مؤامرة تجلب لهما العار، وسألته «إلسى»: «بخصوص.. ماذا؟ ماذا؟»، وقال «بيتشام» : «عن شعور أبيك العجوز تجاه.. أشياء، أشياء مثل انه يريد أن يقف أمام قطار، أو يقذف نفسه من فوق جسر، وفى المرة الأخيرة أخبرنى..»»، وهنا فقدت «إلسى» سيطرتها على نفسها وصفعت «بيتشام»، ذلك الوغد ذو الوجه اللزج السمين! وكانت منزعجة ولم تستطع أن تصرخ، وعندما حاول «بيتشام» أن يمسك بها، دفعته بقوة وجرت إلى سيارتها، وكانت ترتعد من الغضب والحزن لما يحدث لها وهى تقود سيارتها بعيدا؛ إنه يشوه سمعة الموتى، سيدفع «بيتشام» الثمن.

٩ . يوفيل. نيويورك. ١٢ يوليو ١٩٥٩ .

رن الهاتف فى وقت متأخر من الليل، فعقارب الساعة تشير إلى الساعة الثانية وعشرين دقيقة صباحًا، ومن الطبيعى الظن بأن المتصل هو أحد مرضى د. «دونالدسون».

وخلال نوم قلق، سمعت «إلسى» ممتعضة صوت زوجها الهادئ العطوف، ومن الواضح أنه كان يحب تلك المكالمات الهاتفية المتأخرة، فقد كان يمكنه رفع سماعة الهاتف اللعين من مكانها وحسب (كان «دونالدسون» وزوجته ينامان فى نفس الفراش بالطبع حينذاك. وفى ذلك الوقت من صيف عام ١٩٥٩ كانا لا يزالان زوجًا وزوجة، بكل ما يتضمنه ذلك من التزامات وعلاقة حميمة)، وفجأة احتد صوت د. «دونالدسون» قائلا : «متى؟ كيف؟»، وفى هذه اللحظة أفاقت «إلسى» تمامًا، فالأمر كان شخصيًا وعاجلا. ولكن صوت زوجها كان منفعلا، وكانت تعلم أن تهدج صوته يعنى انتصارًا ما أو إثبات براءة، وعندما وضع «دونالدسون» سماعة الهاتف مكانها، قال برقة وكأنه يتوجه بالحديث إلى ابنته «مارى ليندا» البالغة من العمر تسع سنوات وليس إلى زوجته: «أخشى يا «إلسى» أن هناك أخبارًا سيئة، فأبوك.. عند شلالات «تينتيرن».. »، كانت «إلسى» حينها قد قفزت من الفراش وهى تبتعد عن زوجها، وتهز رأسها كبقرة مذعورة وهى فى لباس نومها النايلون الأزرق الفاتح المزين بشرائط حريرية ؛ أدركت بالفعل ألا شىء سيؤذينى بعد هذا.

١٠ - يوفيل - نيويورك، ٢٩ مارس ١٩٥٧ .

كانت «إلسى» تتوقع هذه المكالمة الهاتفية.

«حبيبتى؟ أمك.. »، ثم لحظة توقف رقيقة كأصابع أبيها حين يمسك برسغها بطريقته، كأنه يشد

من ازرها أو يحذرها، أو ببساطة لينبهها أن هناك حدثا جللا، «... ماتت».

وفوجئت «إلسى» أنها شرعت فى البكاء وذرف الدموع والنشيج كالأطفال.

ومبدئيًا، كان أبوها يكره بكاء النساء، ولكنه لم يطلب من «إلسى» أن تتوقف، وتركها تبكى لبعض الوقت ثم أخبرها أنه فى المستشفى إذا أرادت أن تأتى إليه.

عرفت «إلسى» الحزن، لا، لا! لا تريد أن ترى أمها وهى ميتة، جسد بلا روح وجلد بلون العاج المصفرّ، بنفس قدر عدم رغبتها فى رؤية أمها وهى على قيد الحياة حين كانت تعترض على تصرفاتها : «أبى، لا استطيع، لا أستطيع وحسب، سأحضر إلى المنزل فى وقت لاحق».

«افعلى ما شئت يا «إلسى» »، وضحك أبوها؛ وتخيلت أباها وهو يحك أنفه بحركة خفيفة بإصبع السبابة باليد اليمنى فى إشارة أن الحديث الذى طال من اللازم قد آن له أن ينتهى.

١١ . يوفيل . نيويورك، ١٩٤٦-١٩٥٧ .

لم تكن «إلسى» على وئام مع أمها، وكان ذلك يحدث فى «يوفيل» أحيانًا، وهى أن تربط أم وابنتها علاقة وثيقة، ثم تتراجع المشاعر بينهما، وتنمو بينهما جروح لا تلتئم ولا تقدران على التسامح.

لم تكن أمها توافق على تصرفاتها، حتى على زواجها من ابن الدكتور «دونالدسون» المدعو «تيموثى» (وكان «تيم» معروفًا فى «يوفيل» فى ذلك الوقت)، وكانت السيدة «كينيلى» حانقة ومشمئزة من ابنتها الصغرى «إلسى» منذ فوجئت بها وهى فى السابعة عشرة من عمرها وهى مع صديقها «دوين كادمون» فى غرفة نوم «إلسى» تحت سطح المنزل مباشرة، يتلويان معًا وهما شبه عاريين فى فراش «إلسى» المشعث أسفل الحائط المائل ويتبادلان القبل بالطريقة الفرنسية، ولم تغفر لها السيدة «كينيلى» مثل ذلك السلوك، لأنه تصرف رخيص و«سهل» ويشوه سمعتها ويجلب «العار» لأسرة «كينيلى» ؛ وكانت «إلسى» حينها تعتقد أن أمها التى خرجت لن تعود إلى المنزل إلا بعد ساعات، ومن ثم تركت نفسها لأحضان «دوين»، وأخذتها حالة من نشوة الشهوة كأنها تغرق، وفتحت عينيها فى رعب من وراء ظهر «دوين» الذى كان وجهه متوجهًا بما يفعلان، ورأت وجه أمها المتألم يحدق فيها بعيون باردة كالثلج، وفى هذه اللحظة صفقت السيدة «كينيلى» الباب بعنف جعل «دوين» يجفل، وفيما بعد أخرجت كل منهما ما فى جعبتها، أى السيدة «كينيلى» و «إلسى» (وأين كان «ويلى كينيلى» فى مثل تلك الأوقات؟ لم يكن قريبًا، فهو يحافظ على مسافة ولا يتدخل مطلقًا فى مثل هذه الأمور النسائية)؛ وكانت أمها تتحدث معها بمرارة وسخرية أو ترفض الحديث معها على الإطلاق

بل ولا تنظر إلى وجهها كأن مجرد حضورها فى المكان يثير الاشمئزاز، وكانت «إلسى» تدفع الأشياء بقوة فى المنزل وهى مقطبة الجبين وترتجف بالغضب، «بالله عليك يا أمى، كيف يولد أى إنسان»، صوت «إلسى» مرتفع لدرجة أنه قد يصل إلى مسامع الجيران، « تتصرفين كأن الناس لا تفعل مثلما كنا نعمل أنا و «دوين»، إذًا اللعنة على كل شىء يا أمى، اعلمى أن الناس يفعلون مثلنا ».

لم يكن ممكنًا الحديث مع الأم بهذه الطريقة فى «بونيل» فى تلك الأيام، وإذا فعلت فأنت حثالة، ولكن «إلسى» كانت تصيح فى وجه أمها والسيدة «كينيلى» تصيح عليها فى المقابل وهى تصف «إلسى» أنها «عاهرة» و «ساقطة» وتقول لها إن أى «شخص محترم» لا يمكن أن يحترمها أو يفكر فى الزواج منها.

واحتضنت «إلسى» أحزانها لأسابيع وشهور وسنوات.

وحتى بعد أن تزوجت «تيم دونالدسون»، الذى كان قد ذهب لدراسة الطب فى «ألبانى» ويكبر «إلسى» بثمانى سنوات ؛ حتى بعد أن تزوجته، لم يكن مجرد صديق من أصدقاء المدرسة الثانوية أو شخص ما من الجيران، ولكنه كان «طبيب الأسرة» الذى يجنى دخلا جيدًا، لقد أخذها لتعيش معه فى شارع «تشيرش»، ولكن السيدة «كينيلى» حجبت موافقتها عن

هذه الزيجة وحجبت مشاعرها أيضًا، وتلك هى القوة الوحيدة التى تملكها الأم، وهى أن ترفض التعبير عن حبها، وابتعدت عنها «إلسى» وازدادت رفضا لها.

«اللعنة يا أمى! لقد تزوجت رجلا من طبقة أعلى ممن تزوجت أنت لذا ربما تشعرين بغيرة، فزوجى طبيب وليس تاجر أخشاب، أفهمت؟».

لم تكن «إلسى» تحب «تيموثى دونالدسون»، ولكنها كانت تتباهى بكونها زوجة د. «دونالدسون».

وبعد أن ولدت «مارى ليندا»، أصبح لأم «إلسى» حفيدة جميلة وأرادت أن تراها وتحملها وتدللها، عندئذ أدركت «إلسى» مصدر قوتها، وهى إبعاد أمها عن حياتها بقدر استطاعتها (كان والد «إلسى» موضع ترحيب دائمًا فى بيتها، وله حق الزيارة فى أى وقت بعد أن ينتهى من أعماله)، ولكن «إلسى» وأمها كانت تتظاهران بأن الأمور على ما يرام بينهما فى الأماكن العامة حيث لا يمكن أن تتجاهلا الأمر، فكانتا تتعانقان بجمود وتتبادلان القبل على الخدين، وفى حضور السيدة «كينيلى» كانت ابنتها تتصرف بطريقة هوجاء واستهتار وتضحك بصوت مرتفع وتشرب الكثير من الخمر؛ أمى، أنا أكرهك. أمى، لماذا لا تموتى.

١٢ - بحيرة «وولفز هيد». نيويورك. ١٩٤٦ .

كانت الأسر فى «يوفيل» تذهب للتنزه على البحيرة فى أمسيات الصيف، وبعض الرجال يصطاد

ا...مك ولكن ليس من بينهم «ويلى كينيلى» الذى كان
.. أن الصيد عمل ممل: «لا يقل سوءًا عن الجيش،
ولا يقل سوءًا عن الحياة»، ثم يضحك ضحكته، التى
..تز لها بطنه وتدفع من يستمع إليه أن يضحك معه.

كانت «إلسى» فخورة بأبيها الذى عاد إلى الوطن
من الحرب مصابًا بحروق ويحمل أوسمة تدل على
شجاعته، رغم أنه طرد كل ما كان من أمر الحرب من
راسه ونادرًا ما كان يتحدث عنها سوى لأقرانه من
المحاربين القدامى، وكانوا فى تلك الأحيان يتحدثون
بانفتاح دنس وقذر غير عابئين بالآخرين وتعلو
أصوات ضحكاتهم، ويحبون ليالى الصيف، فيجتمعون
ويشربون الجعة فى حانة «ليك سايد»، وغالبًا ما كانوا
يلعبون القمار بالورق أو بالنرد. كانت تلك الأوقات
أوقات مشاكسات وشغب. كانت الشمس تغرب فى
وقت متأخر صيفًا، وفى وقت الغسق كان لون السماء
يبدو كأنه ينزف وهو يتحول إلى ظلمة الليل، فترى
خطوطًا حمراء وسحبًا متكتلة مسننة وتبدو خشنة
كلسان القط، وينساب الماء فى البحيرة رقراقًا إلا من
موجات غير منتظمة وقفزات للأسماك بين الحين
والحين، وكان الرجال فى ذلك الوقت يشربون الجعة
منذ ساعات، متجاهلين التماسات زوجاتهم للحضور
لتناول العشاء، وكانت «إلسى كينيلى» وهى تقف
بالقرب من كوع أبيها تستثيره ليعطيها رشفة جعة من
كاسه أو نفخة من سيجارته : «أبى؟ هل يمكننى...؟»،
وتطلب أن تأخذ دوره فى لعب القمار لمرة واحدة، أو

دوره فى رمى النرد مرة واحدة ؛ كانت «إلسى» ترتدى لباس بحر أبيض جديدًا من قطعتين والجزء العلوى منه مربوط حول رقبتها، ولها شعر أشقر داكن معقوص بهيئة ذيل الحصان، وساقان طويلتان بلون البرنز، وطلت أظافرها بلون وردى يتوافق مع أحمر الشفاه على شفتيها؛ كانت «إلسى» حينذاك فى السادسة عشرة من عمرها ورائعة الجمال، وتستلقى بجرأة على السور مقابل الطاولة التى يجلس عليها الرجال سعيدة بالاهتمام، الذى يوليه والدها والرجال الآخرون إياها، وكان ذلك يعنى لها الكثير وتفضله على الاهتمام الذى يوليه إياها الفتيان من أقرانها، وكانت تشعر بالفخر لمظهر أبيها الجذاب : معجبة بعضلات كتفيه وصدره العارى الفسيح المغطى بشعر كثيف، الملىء بأوشام غامضة وآثار جروح. لقد كانت ابنته بكل معنى الكلمة، وكان وجهها يحمرّ خجلا وتطلق ضحكات صاخبة إذا داعبها، وتعض على شفتها وتكاد تبكى إذا تحدث معها بحدة، كان الحديث مع «ويلى كينيلى» مخاطرة، فقد كان من الصعب أن تتوقع متى سيتحدث بسخرية أو متى سينفد صبره فجأة، وقد عاد من الحرب بمشاعر من الغضب المكتوم، كأنه مصاب برعشة مفاجئة أو تقلص لا إرادى كامن فى مكان ما من جسده لا يمكنك أن تحدد مكانه رغم معرفتك بوجوده، ولن تشعر به إلا لو لمسته، ولابد لك من لمسه.

«بالتأكيد يا حبيبتى. .. ألق بهما».

ه الها «ويلى كينيلى» متحدثًا بلا مبالاة وهو يعطى
ا... ه قطع النرد العاجية، كأن القدر ليس إلا فرصة
ر...ة وقاسية لا تتطلب أية مهارة إنسانية. ستتذكر
دائما قطعتى النرد العاجية! وبينما تحوم نظرات
الرجال فوق جسدها الشاب المثير وهى فى لباس
ال حر الأبيض، ويراقبون شكلها الجانبى وأنفها
الشامخ وشعرها المنساب على ظهرها، وهى تضحك
واعية لذاتها وقلبها ممتلئ بسعادة اللحظة وإثارتها
عندما رمت النرد من بين أصابعها فتدحرج واستقر
على سطح الطاولة اللزج، وتبقى لحظة التشوق قبل
أن تجرؤ على النظر لترى ما أتى به النرد؛ وكما يقول
الأب: «سيقول النرد كلمته».

دول.. رومانسية المسيسبى

ما حدث بين «آيرا إيرلى» وابنة زوجته (ابنته) «دول»(*) ظل سرًا بينهما لوقت طويل، ولكن ما حدث لعدد من الرجال نتيجة لهذا السر معروف وأكثر شيوعًا.

(كثيرون يسألون «دول») : هل «دول» هو اسمك الحقيقى؟

وقد تدربت هى على أن تقول «نعم».

نعم، ولكن يمكن أن تنادينى بأى اسم تريد إذا كنت تريد أن تسمينى باسم أية فتاة أخرى، (وتقهقه، ثم تقضم أطراف إحدى ضفائرها التى تستلقى بدلال على أحد كتفيها الرشيقين).

(*) من الواضح فى هذه القصة رمزية اختيار الأسماء، فالاسم «آيرا» Ira اسم علم من أصل كلمة يهودية تعني «اليقظ» أو «المحترز»، أما الاسم «دول» Doll فهو يعنى بالعربية «الدمية» أو «لعبة الطفل» (المترجمان).

والحقيقة أن «دول» لم يكن اسمها الحقيقى بل كان الاسم الذى تنادى به، وكان من الصعب عليها أن تذكر الاسم الذى عُمّدت به، كما كان صعبا عليها أيضا تذكر ما حدث فى الأعوام التى سبقت بلوغها الحادية عشرة. لقد بلغت الحادية عشرة منذ مدة طويلة، ومحاولتها للتذكر تشبه محاولة استرجاع أحداث فيلم تليفزيونى قديم لم تنتبه لأحداثه حين شاهدته، لن تتذكر إلا بضعة مشاهد متفرقة. ولكن لماذا؟

لم تكن «دول» من النوع الذى يقلق كثيرًا، فقد تركت القلق للسيد «آيرا إيرلى»، زوج أمها (أبوها).

كان السيد «إيرلى» قلقًا بطبيعته، فقد بدأ يشكو من أن شعيرات رمادية متفرقة ظهرت فى شعره الداكن الكثيف، الذى كان ينسدل على حاجبه كعرف الديك، ثم تحولت الشعيرات إلى خصلات رمادية كالحة، والآن هذا الشيب الأبيض وبقعة صلعاء بحجم ثمرة الجريب فروت فى منتصف رأسه، وكل ذلك نتيجة لسلوك «دول» الذى لا يمكن التنبؤ به، عندما تنحرف بالسيناريو فجأة وتلجأ إلى وسائل وضيعة وقذرة.

يتنهد السيد «إيرلى» ويرتعد ويمرّر بيده على شعر رأسه الذى بدأ فى التساقط، ويعبث فى شعر ذقنه الخشن، ويلعب دور العجوز المرتبك أو دور الجد أو العم الأعزب فى مسلسل تليفزيونى عائلى فى خمسينيات القرن الماضى. وكأنه كان يفكر، وهو

الرجل المتعقل الموثوق به، أنه لا يستطيع السيطرة على ابنته وحالاتها النفسية المنحرفة المتدنية.

(هل «دول» فى ذلك المزاج المنحرف الليلة؟ هذا ما يسبب قلق السيد "إيرلى". كم مضى من الأسابيع منذ آخر حالة مزاجية معتلّة مرت بها «دول»؟ ويعدّ على أصابع يده : أسبوع، اثنان، ثلاثة أسابيع... ونصف؟ ليست هذه علامة مبشرة).

جلس السيد «إيرلى» داخل سيارة فخمة ماركة «لاسال» LaSalle ينتظر عودة «دول»، وصب لنفسه من «الترموس» كأسًا كان فى أشد الاحتياج إليه، كأس من المارتينى معدّ خصيصًا ليناسب مزاج السيد «إيرلى» وبضع قطع من البصل الصغير فى الشراب كان يلتقطها برشاقة بإصبعه الصغير. كانت «دول» تهزأ به لأنه يشرب بطريقة تجعلها تعتقد أنه مبتدئ فى احتساء الشراب. إنها مجرد مفاهيم شخصية التقطتها «دول» من برامج فترة الظهيرة فى التلفاز، لكن السيد «إيرلى» لا يلقى لها بالا.

يحتسى السيد «إيرلى» شرابه ويهز رأسه، لقد كان فى أشد الاحتياج لهذا الشراب.

هزت رياح ديسمبر العاصفة السيارة الفخمة الأثرية، وهبّت من السحب العاصفة، التى تشبه الأمعاء المتخثرة من فوقه وهى تمرّ أمام وخلف ضوء القمر الشاحب. وارتعد السيد «إيرلى»... أية مدينة هذه ؟ شرق المسيسبى أم غربه؟

(سيطرت فكرة طفولية على «دول»، فهى لا تحب الابتعاد كثيرا عن النهر الأمريكى العظيم، حاول أن تسألها لماذا هذا الحب للنهر؟ ستجد وجهها الصغير المشاكس يتغضّن وهى تقول: «من الذى يريد أن يعرف؟ أنت؟» هذه هى الإجابة التى بدأت «دول» تقدّمها غالبًا عندما لا تحب استجوابات السيد «إيرلى»).

(«من أنت لتصدر علينا أحكامًا ؟ ما الحق الذى يجعلك تظن أنك متفوق علينا ؟»، هكذا يتخيل السيد «إيرلى» الطريقة التى يدافع بها عن نفسه فى مكان عام ما، الأضواء المبهرة تسطع فى عينيه وربما كان مقيد اليدين والقدمين بالأصفاد).

ظهرت «دول» ! كانت مع («س» من الرجال دفع لها مقدمًا)، وبالتالى دبرت أمر وجبة العشاء لنفسها ولأبيها. وتقطع «دول» طريقها بلا مبالاة طفولية عبر رقع فوق الرصيف المغطى بالثلوج، فى حذائها الأبيض الجلدى الذى يصل إلى ركبتيها محيطا بساقيها الرشيقتين اللتين تبدوان كالأصلة، ولهذا الحذاء كعبان رفيعان مدببان يضيفان بضع بوصات لهيئتها المستدقة، وكان شعرها الطويل المضموم على هيئة ذيل الحصان منسدلا يتمايل بشكل أخاذ فوق رأسها الصغير. ويصيح بها السيد «إيرلى» من النافذة : «اللعنة يا «دول»، خذى حذرك حتى لا تنزلقى وتسقطى أرضًا».

إن «دول» فتاة صغيرة وجميلة، لكنها هشّة.

نعم يا سيدى، لدينا مال وفرناه من أسفارنا، التى ... فرقت أعوامًا حتى الآن، فنحن نحطّ الرحال يومين أو ثلاثة فى مدينة ثم نرحل، وقد تسير الأمور أحيانًا على نحو محبط حيث أتصرف بشكل سيئ ونضطر للرحيل سريعًا، ولا تسنح لنا الفرصة لقضاء الليل لنستريح. فى أغلب الأحيان نجول عبر نهر المسيسبى، وقد يكون عليك أن تسأل أبى عن استثماراته فى المدن التى ارتحلنا إليها!

فى بادئ الأمر لم تستطع "دول" أنْ ترى زوج أمها (أبوها) جالسًا فى المقعد الخلفى للسيارة حيث ينظر فى الظل، ذلك البطن الممتلئ لعنكبوت بدين عجوز. «هأنذا يا أبى! مفاجأة».

أحضرت «دول» للسيد «إيرلى» وجبة السوشى اليابانى (أف!) واشترت لنفسها «البرجر» فى خبز «التاكو» المكسيكى (لذيذ!) مع البطاطس المقلية وسلاطة «الكول سلو» وزجاجة كبيرة من المياه الغازية... «أبى، افتح الباب اللعين، هل تتوقع منى أن أفعل كل شىء؟».

وبالطبع، فتح السيد «إيرلى» الباب بسرعة.

تستمتع هذه الطفلة بأن تعيش دور القائدة (مثل أمها الراحلة).

لا يوافق السيد «إيرلى» بالطبع على عادات «دول الغذائية، إنها سيئة كذلك البرجر فى خبز التاكو

والبطاطس المقلية فى الزيت الغزير، و «دول» يمكنها أن تلتهم أردأ أنواع الطعام، لكن التمثيل الغذائى لديها يحرق السعرات سريعًا. إنها مجرد طفلة فى الوقت الحالى، ولكن ماذا بعد ذلك ؟ فى السنوات القادمة؟ وتجعّد وجه السيد «إيرلى قلقًا حين تخيل «دول» تفقد رشاقتها وتصبح بدينة، وينتفخ الجلد الناعم بملمس النوجا ويترهل ويفقد جاذبيته إلا لمعجبين أقل تمييزًا للغث من الثمين وأدنى فى المستوى الاجتماعى.

هبت رياح قوية تحمل رائحة النهر، إنها ليلة من ليالى أحد أيام الأسبوع فى مدينة ما فى الولايات المتحدة الأمريكية.

نعم، أحاطت بنا الشبكة ووقع أبى فى الشرك، فقد مضى وقت طويل. لقد أصبح أبى كالاستثمارات المالية الناجحة، التى تؤمن لك حياة مريحة، مجرد عجوز يمثل شيئًا عزيزًا فضلا عن أنه بدين ولطيف، لكنه غير مدرك أن خيوط الشبكة محيطة به.

حين تكون جائعًا فالطعام أكثر إمتاعًا، ومتعة الشراب تعرفها حين تكون عطشان. ازدرد «آيرا إيرلى» وابنة زوجته (ابنته) عشاءهما، وابتلعا مشروباتهما الأثيرة. وفى ذات الوقت، وعلى بعد أقل من ميلين فى الغرفة ٢٢ فى موتيل «إى - زى إيكونومى»(*) كان صديق آخر دفع لها مقدمًا) يثبت نظره على نفسه فى مرآة يعلوها الغبار، شعره أحمر

(*) E- Zeconomy Motel.

ا،هت وجلده شاحب تغطّيه حبوب متقرحة وحتى أمه
الى كانت تعتنى به (توفّيت) كانت مصدر إحباط له.
اه رجل حى الضمير أو أراد هو أن يعتقد ذلك.
و دق فى انعكاس وجهه على المرآة وهو يدمدم :
تل عقليا! نعرف الآن من هو. ..

يسمع رنين الهاتف الموضوع على منضدة بها آثار
ريق.

راقب «آيرا إيرلى» أصابع «دول» السريعة ذات الأظافر المدببة المطلية بلون حمرة الدم وهى ضغط بعنف على أزرار هاتفها الخلوى، ذلك الجهاز العجيب، الذى يبعث فيه الاندهاش دائما لأنه يعمل كأى هاتف عادى (تبدو كل الأجهزة الإلكترونية للسيد إيرلى" من خلال عدسة نظارته المزدوجة عجيبة ومن المتوقع انفجارها أثناء استخدامك لها).

وتضحك «دول» على أبيها، «بالطبع إنه يعمل كالهاتف العادى».

(لكن، ألم يكن الهاتف الخلوى فى الأصل جهاز راديو؟ مجرد جهاز راديو صغير؟ يظن «آيرا إيرلى» انه من الأفضل ألا يجادل ابنته ذات المزاج المتقلب).

أخذ السيد «إيرلى» الجهاز العجيب من «دول» بعد ان طلبت الرقم، الذى أملاها إياه (كانت أصابعه أكبر من أن يقوم بها بنفسه).

تنحنح وانتحل العبوس الرسمى، والأسلوب الخطابى فى الحديث :

«آلو! سيدى، أنا....».

لم تعر «دول» اهتمامًا لاتفاق زوج أمها (أبوها) مع السيد «س» بشأن المكان والموعد والفترة الزمنية. فقد سمعت مثل هذا الحوار من قبل مرات لا تحصى (ربما مئات؟). لقد حالفهما الحظ بالفعل فى هذه المدينة القديمة، التى تقع فى الغرب الأوسط على النهر، وهناك شعور بأن الكثير سوف يأتى. مضى أمس واليوم وهذا المساء، وقد رتّب السيد «إيرلى» يومًا ثالثًا من المواعيد قبل الرحيل عن هذه المدينة. تثاءبت «دول» ووضعت يدها على فمها فشمّت رائحة خبز «التاكو» و«البرجر».

لا، إن «دول» لا تتثاءب، إنها فقط تمسح فمها المدهن.

لمح السيد «إيرلى» وميض نظرة سمكة «الباراكودا» فى عينى «دول» الزجاجيتين المتسعتين، وارتبك وهو يحاول إنهاء المكالمة بإغلاق الهاتف الخلوى بحسب مارآها تفعل، أو حسب ما يعتقد أنه رآه.

«دول» ؟ ستكونين فتاة طيبة الليلة، أليس كذلك؟».

مطّت «دول» شفتيها وهزت كتفيها؛ إن لغة الجسد وإيحاءاته عند «دول» قد تعنى «نعم بالتأكيد» أو العكس تمامًا!

السيد «إيرلى» ما زال مرتبكًا وهو يتعامل مع بقايا السوشى اليابانى، وتهكمت عليه «دول» وهو يستخدم

اعواد تناول الطعام: «أعواد لتناول الطعام! اللعنة يا ... نحن أمريكيون» . شرائح من سمك التونة النيئة وحبات الأرز التى بدت لها كأنها أسراب نمل مجفف ... اللون يتساقط فى فراغ انفراج رجليه. ألقت إليه «دول» منشفة ورقية متسخة وأصدرت صوتًا قبيحًا معبرًا عن السخرية منه.

كان «آيرا» قلقًا لأنه كان يصبو للكمال، وكان قلقًا لأنه يصاب بالهلع من أن تجرى الأمور فى غير طريقها الصحيح، ويصاب بالهلع؛ لأنه شهد ويشهد يوميًا تقريبًا أمورًا تمضى فى الطريق الخطأ لأناس اخرين، وتكون أحيانًا أخطاء خطيرة (لا يستطيع السيد «إيرلى» أن يتبين كيف يمكن أن تسير الأمور فى غير مسارها الصحيح مع السيد «س» فى الغرفة ٢٢ فى موتيل «إى - زى إيكونومى»، ولكن حدسه الداخلى يترقب شرًا بعد أن لمح نظرة سمكة «الباراكودا» فى عينى «دول»).

على أية حال، فإن سياسة ممنوع اللمس مريحة، فهى استراتيجية ألمعية وضعها «آيرا إيرلى» موضع التنفيذ منذ بداية رحلاتهما، وتلك السياسة تضمن طبقة من المعجبين يدركون ما تعنيه هذه السياسة ؛ هناك أيضًا سن الحادية عشرة، سن صغيرة وفى مقتبل البلوغ لكنها فى الوقت ذاته سن مغرية، فـ«دول» تجتذب ذكورًا ينتسبون إلى الطبقة العليا من أعمار مختلفة، ولكنها تميل إلى الطبقة المتعلمة

الوسطى والمتوسطة العليا ذات المستوى الأعلى من الدخل. ونادرًا ما تتعامل «دول» مع ذكور من غير الحاصلين على مؤهل عالٍ، وتتعامل غالبًا مع خريجي الجامعات، فقاعدةً ممنوع اللمس بين أفراد من تلك الفئة إغواء وتجديد وتبعث على الارتياح.

«دول»، إنك تضيعين الوقت ومن الأفضل أن نمضي في طريقنا».

وتئن «دول» قائلة : «يا أبي! لم أنته من تناول عشائي بعد. أنت تعلم أني لا أتناول الطعام بسرعة مثلك».

«اقرئي التعليمات يا عزيزتي، ليس لدينا أكثر من خمس عشرة دقيقة».

«سينتظر، فليذهب إلى الجحيم!».

إنها تقترب من الحادية عشرة مساء، وتحول شكل القمر بشكل رائع في السماء فظهر كأنه غمزة عين مماطلة.

يقود السيد «إيرلي» إلى الجنوب، أو ما يتصوره جنوبًا، مخترقًا وسط المدينة المزدحم. إنه يجتاز متاهة من شوارع «خروج فقط» وطرقًا ملتوية وتقاطعات طرق وأنوارًا متوهجة؛ إنه يكره الطرق السريعة ولكن ليس لديه خيار آخر. تجلس «دول» بجواره تحمل بين ركبتيها زجاجة المياه الغازية الكبيرة وتحاول أن تتبين الاتجاهات من لوحة ورقية

..اها. فتاة ذكية وجذابة مثل «دول» تعانى صعوبة
..ملق بعض الكلمات المكونة من أكثر من مقطع
..١. أو تحوى حروفًا ساكنة غير مألوفة :

«المِناء Kway فى نهاية الطريق المنحدر يمينًا».

«ماذا ؟».

«المِناء...».

«تقصدين الميناء Quay، المِناء تنطق الميناء».

وتقطب «دول» جبينها وتقول: «كيف بحق الجحيم
..اعرف ذلك وأنا لم أحصل إلا على تعليم منزلى؟».

ما لا يعرفه هذا العجوز الأخرق أننى أحمل
..مرتى الصغيرة المتقنة مخفية فى حذائى، وملفوفة
..ى قطعة من القصدير لسلامتى. وما يشغل تفكيرى
..و أن أستعملها أو لا أستعملها.

ظلا على الطريق فترة طويلة منذ كانا فى "سانت
اويس" .

تقول لأبيها : "أتعرف ؟ أريد حذاء من جلد النعام
..ى عيد الميلاد، وأريد أن أنعم بالشمس فى «نيو
أورليانز».

فى موتيل «إى - زى إيكونومى» كان السيد «س»
يغسل وجهه وساعديه وإبطيه ويديه، رغم أنه لن
يلمس الفتاة (يقسم إنه لن يلمسها!). كان جلده
ملتهبًا كأنه مبثور بحب الشباب، وهذا أمر غريب
لأنه فى السابعة والثلاثين من العمر وليس فى

السابعة عشرة. لا بد أن هناك خطأ فى عمل
التمثيل الغذائى لديه، ينبغى أن يتحرى هذا الأمر
فقد أطلق سراحه قبل نهاية مدة عقوبته!

منذ عامين مضيا، كان السيد «إيرلى» وابنة
زوجته (ابنته) «دول» - وكانت تعرف حينذاك باسم
«مارجريت آن» - يقطنان فى عنوان ثابت معروف
للسلطات. وحقيقة الأمر أنه عندما كان السيد
«إيرلى» يسكن فى منزل عائلة زوجته الراحلة فى
ضاحية تاريخية قديمة لها طابع وقور فى
«مينيابوليس»، كانت هناك مشاكل فى حياتهما
العائلية، وساعد الترحال فى حلّها بشكل كبير.

لم أكن أرغب فى إبعاد هذه الطفلة الذكية
المتطلعة عن المدرسة، ولكن عزائى كان فى
تصميمى أن تتلقى تعليمًا فى المنزل، ولم يمر يوم
دون أن نزور متاحف التاريخ الطبيعى وبيوت
الفراشات ومتاحف القرى الرائدة والقبة السماوية.

فى الماضى البعيد كان «آيرا إيرلى» طالبًا فى
«أكاديمية سينسيناتى»(*) يدرس اللغة اللاتينية
والرياضيات وتاريخ العالم، وكان واحدًا ممن
يجوسون مكتبات بيع الكتب القديمة وأسواق السلع
المستعملة، وكان صندوق سيارته «لاسال» متخمًا

(*) Cincinnati Academy For Boys.

ادات عشوائية من «دائرة المعارف البريطانية»(١) ... «ملخصات ريدرز دايجست»(٢) وحتى «قاموس ...تر الكبير»(٣) . كانت «دول»، ولا تزال، تملك ...ارة فوتوغرافية تتمكن بها من إثارة إعجاب «س من الرجال» بسردها المسترسل بصوت فتاة مدرسية رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية ونوابهم غير المعروفين، وملخصات النظريات الاقتصادية (نظرية «كوندراتييف»(٤) لدورة الموجات الطويلة، والاقتصاد القياسى، وعلاقة الدخل القومى بتنمية المجتمع، والكينيسيانية الحديثة(٥) ، وأيضًا الحروب الكبرى فى أوروبا بدءًا من حرب المائة عام(٦) حتى الحرب العالمية الثانية، وكذلك الأعصاب الدماغية والشرايين.

---

(١) Encylopaedia Britannica.

(٢) Readers Digest Condensed Books.

(٣) Webster'sUnabriged Dictionary.

(٤) Nicholai. D. Kondratiev (١٨٩٢ ـ ١٩٣٥) اقتصادى سوفييتى وضع نظرية مؤداها أن الاقتصاد الرأسمالى يواجه تغيرات فى دورات قطاع الأعمال تتكرر كل خمسين عامًا (المترجمان).

(٥) نسبة إلى عالم الاقتصاد البريطانى «جون مينارد كينيس John Mynard Keynes (١٨٨٣ ـ ١٩٤٦) الذى ذهب إلى أن الإنفاق الحكومى لابد أن يغطى عجز استثمارات قطاع الأعمال الخاص فى أوقات الركون الاقتصادى (المترجمان).

(٦) كانت هذه الحرب بين فرنسا وإنجلترا، واستغرقت ١١٦ عامًا من ١٣٣٧ إلى ١٤٥٣ (المترجمان).

مـــا الشـــريان الـذى أفـــضله؟ إنه الشـــريان السباتى(*).

لقـد حـاولنا! لكن حيـاة عـائليـة فى شـارع «مـاونت كيرف» لم تكن لأمثالنا.

رحلت والـدة «دول» عن هذا العـالم حـين كـانت فى الثـانيـة أو الثـالثـة من عـمـرها، على الأقل يعـتـقـد أن السـيـدة «إيرلى» الراحلة مـاتت؛ والحـقـيـقـة أن مكان رفـاتها لم يعثر عليـه أبدًا. وقـالت «دول» سـاخطة أنهـا لا تصــدق «المـزاعم» التى تذهب إلى أن أباهـا قـتل زوجتـه (أمهـا) ومـزّقهـا إربا ووزع أجـزاء جثـتهـا على مسافة أربعين ميـلا من المسيسبى إلى الجنوب من «مينيـابوليس»، وأثقلهـا بالحـجارة حتى لا تطفو أبدا. لا، «دول» لا تصدق.

تقول «دول» إن مـا حدث لأمـهـا كان قبل وقت طويل من ظهـور مـحطات التلفـاز الخـاصـة أو الهـواتف الخلوية. أعـرف قلب أبى، فـهـو لا يؤذى شـعـرة من رأس أحد لا يستحق الأذى.

عندما سـألنى أحـدهم : «هل يسىء أبوك معاملتك، ويعـرض عليـك دمى مطاطيـة عـارية وسـخـيفـة؟» قلت: «لا، لا، لا» همـهـمت لنفـسى بصـوت مـرتفـع وتمـايلت من جـانب لآخر.

أحب أبى (فى الواقـع أن «آيرا إيرلى» هـو أبو «دول» الحقيقى وليس زوج أمهـا كما يقولون للمتعاملين معهم

(*) هو الشريان الرئيسى فى رقبة الإنسان (المترجمان).

... «س» من الرجال». وحتى عندما يتعامل السيد ... إيرلى فى دائرة معارفه الكثيرين، فإن لديه مبدأ ... خطا فاصلا عند أشكال معينة من السلوك، ... المبدأ هو إذا كنت تعمل لحساب نفسك فمن ... المحكمة أن تحترمها).

(منذ وقت بعيد؟ يقول البعض إنه كان فى بداية ... مينيات القرن العشرين، والبعض الآخر يقول إن ... كان عام ١٩٥٣، ولكن آخرين ما زالوا يجادلون ... فى أن «آيرا إيرلى» وابنة زوجته (ابنته) «دول» بدءا ... أحوالهما عام ١٩٣٠ بعد الحادثة. حيّرت هذه الفكرة «دول». فهل هى فى الحادية عشرة من عمرها لما يزيد عن سبعين عامًا؟!).

«كم عمرك يا «دول»؟» على وجه اليقين سيسأل السيد «س» فى الغرفة ٢٢ بفندق «إى - زى إيكونومى» هذا السؤال، هذا إذا كان ذلك السيد «س» قريبًا لأى سيد «ص» فى أى فندق من الفنادق المنتشرة على طول ضفاف المسيسبى. إنه السؤال الذى أسمعه طوال حياتى، ويتكرر وأصبح يثير غضبى بالفعل.

أبى يقترح علىّ أن أمازحهم، فهم بضاعة لا تقدّر بمال (إنهم معين لا ينضب).

وينصحنى بأن أقوم بالدور بإتقان، فسيتراجعون عند سن ١٠، ولا يريدون أن يسمعوا ١٢ أيضا، وبمستوى أقل سن ١٣ . هناك نوع من الإجماع على هذا.

لقد نجحت سياسة ممنوع اللمس إلى حد كبير فعلا، أو غالبًا.

فى «ماونت كيرف» حاولنا، وكانت معنا أيضًا جدة ذات وجه مجعد فى لون الكرز وعيون هلامية، هى جدتى لأمى، وقد حاولت «دول» جاهدة أن تحبها ولكنها فشلت، كنت أستنشق رائحة ذراعى السيدة العجوز ثم أكتم أنفاسى لأطول وقت ممكن وبعدها أتقيأ وأتخلص منها. وأبى الأرمل الشاب كان يتحمل حزنه بصبر. وفى يوم ما شدّ على لحيته السوداء حينها، وقال : «مارجريت آن! أنت ابنتى، أليس كذلك ؟ وليس فيك شىء منها، وجيناتى هى قدرك يا حبيبتى». وارتعد أبى بشدة، فلم يكن قد أدرك الحب الأبوى حتى تلك اللحظة.

(كم من الوقت ؟) حاولنا لسنوات أن نعيش حياة «طبيعية» أو «معقولة» أو «متفقًا عليها»، وكنا نذهب إلى الكنيسة مع أمى أحيانًا. ..

لما قد تحققه لنا من سكينة.

فى الفنادق والعربات المتنقلة دائمًا (نعم، ما زال هناك عربات متنقلة فى ريف الغرب الأوسط الأمريكى)، لم تحدّد أى مواعيد فى الفنادق ذات قاعات الاستقبال أبدًا) رغم أن السيد «إيرلى» و«دول» أقاما أحيانا فى فنادق الماريوت على الطرق السريعة، والأب والابنة ينتحلان أسماء مختلفة ويظهران بهيئات متنوعة)، فإذا أراد السيد «س» أو

السيد «ص» أو السيد «ع» السفر لملاقاتهم فى أىّ من المدن الكبيرة، وحتى إن أراد أحدهم أن يقيم فى فندق فعليه أن يحجز أيضًا غرفة فى موتيل، على شاكلة موتيل «إى - زى إيكونومى». ومن الأفضل ألا تظهر «دول» فى ردهة أى من الفنادق المزدحمة ذات الأضواء الباهرة وهى ترتدى حذاءها الجلدى الأبيض الذى تشبه مقدّمته الخنجر المعقوف والسترة الشامواه الأرجوانية، وشعرها المجدول المعقوص الذى يتمايل على رأسها المتأنق.

فتاة يتيمة الأبوين فى الحادية عشرة من عمرها تضع ظلا للجفون على عينيها، ولها شفاه مغرية بلون الخوخ وتضع على وجنتيها أحمر خدود.. يا المهزلة!

لقد هربا من مدينة «مينيابوليس» لسبب وجيه، إذ يمكنك القول إنهما قد تعرضا للحصار أو للاضطهاد. فى ذلك اليوم العسير وصل مفتش الصحة العامة دون سابق إنذار أو توقّع إلى المنزل؛ كان ذلك الموظف يملك سلطة غاشمة تعطيه صلاحية إبلاغ السلطات عن «آيرا إيرلى» وأن يهدده بالاعتقال بتهمة الإهمال الأبوى.

بالطبع، ربما كان هناك إنذارات فى شكل خطابات مسجلة من مدرسة «مارجريت آن» الموجهة إلى «آيرا إيرلى»، ومكالمات هاتفية ملحة من ناظر مدرسة «ماونت كيرف» الابتدائية لم يأخذها الأب

مـأخـذ الجـد: أين التلمـيـذة «مـارجـريت آن إيرلى» المسجلة فى المرحلة السادسة؟ لماذا تتغيب كثيرا عن المدرسة؟ لماذا يغلبها النوم عندما تحضر إلى المدرسة؟ لماذا تحصل على درجات ضعيفة جدا وسلوكها متمرد؟

لم تكن هناك أية دلائل عن تعرضها لإساءة المعاملة عندما تم فحصها.

فى الغرفة ٢٢ بالموتيل «إى- زى إيكونومى» كان المدعو السيد «س» أو السيد «فجلة»(*). وهو اسم أطلقته عليه «دول» اللعوب) يحدق فى وجهه فى مرآة الحمام التى يعلوها الغبار ويمسح بيده على شعره الأحمر الخفيف الباهت، يراقب اليأس الواضح والرغبة المجنونة المبتهجة على خلاف ما تظهره عيناه المحمرتان الهادئتان المحايدتان. إنه يفكر أن بالإمكان التراجع ويستطيع أن يلغى كل هذا، يستطيع أن يخرج وحسب.

إنه حقًا رجل طيب، لقد وقع فى أخطاء لن يقع فيها ثانية أبدًا (إنه يعتقد ذلك).

كان ما بين رجليه ينبض وإحساس بالمتعة يبعث فيه الاشمئزاز، ويتذكر: ممنوع. اللمس.

نضح الماء فى المرحاض ليتأكد أنه نظيف، ثم يدلف مرة ثانية إلى الغرفة الأخرى، ويرتب اللحاف

(*) Mr. Raddish.

..انى الباهت المترب بكلتا يديه. إنها الحادية عشرة ليلا، هل من المحتمل ألا تأتى الفتاة الأميرة؟

إنها الحادية عشرة حقًا. لكن لا يمكن إجبار "آيرا ايرلى" على الإسراع حتى لو كانت هذه رغبته. والواقع أن له عادة مثيرة للاستفزاز هى أنه يقود بسرعة تقل ١٠ أميال عن السرعة المقررة أثناء قيادته لسيارته القديمة المجددة موديل عام ١٩٥٣، يقودها بطريقة عجوز مدقق يحتقر الحياة المعاصرة. إن هذا جزء من الأسلوب الراقى للسيد«إيرلى»، وسبب من الأسباب التى تجعلك تثق به، وهو يرتدى بذلته ذات الصدار وربطة العنق، التى تنتمى لعصر آخر وعلى قمة أنفه، الذى يميل إلى الغلظة نظارة مستديرة دون إطار مزدوجة العدسات، ويمنحه شعره الأبيض وسوالفه هيئة بابا نويل، أو ربما يجعلك تتذكر هيئة العبقرى «ألبرت آينشتاين» العجيبة. تبرق عيناه الباردتان الحادتان خلف النظارة مزدوجة العدسات مثل مدرسى المدارس، وهو يبتسم تلك الابتسامة الغامضة، وشفتاه مغلقتان بإحكام تخفى أسنانا قصيرة صلبة وحادة. إن السقاة فى البارات ومديرى الفنادق وغالبية أقرانه والمتعاملين معه يصرّون على الوقوع فى هذه الغلطة، وهى أن «هذا العجوز المزعج لا يمثل تهديدًا».

ماذا بعد رصيف الميناء؟

يبدو أنه... وسط المدينة ؟ المدخل يسارًا.

هذه المدينة المجهولة متاهة من الشوارع القبيحة لكنها مألوفة للسيد «آيرا إيرلى». فقد مرّ هنا من قبل، وكانت «دول» هنا من قبل، فى زمن ما. لعله لاحظت أن وسط المدينة يماثل أى وسط مدينة فى الغرب الأوسط، مجرد نموذج متكرر دائمًا لوسط المدينة، الذى يعج بالفساد لمدينة كانت مزدهرة لمرة وحيدة فى زمن ما، إنه يشبه أنبوب امتصاص يجذب الناس إلى داخله كدوامات من المياه الملوثة بالدم تجرى ملتفّة نحو بالوعة تعوقها بعض خصلات الشعر جزئيًا.

(لماذا تفكر «دول» هذا التفكير الشرير؟ إنها تبلل شفتيها الحمراوين بلسان أحمر صغير كلسان الثعبان).

«قلت اتجه يسارًا يا أبى ! إنك تتجه يمينًا».

«لقد قلت يسارًا، أعنى أنك قلت يمينًا».

«قلت يسارا لعينًا يا أبى».

«راقبى ألفاظك والتزمى حدّك يا آنسة».

«أنا جائعة أيضًا»، قالتها «دول» بصوت عال، «وبعدها أريد آيس كريم، أملس وناعمًا ومليئًا بالكريمة اللعينة».

«قلت راقبى ألفاظك يا آنسة».

«راقب أنت ألفاظك يا أبى، إنك عجوز شرير ..».

(تنزلق «دول» إلى مزاج منحرف، وخبز التاكو مُلأ ..ين، وهى تفكر فى احتمال ألا تكتفى بشريان الرقبة فهو بالغ السهولة، كانت هذه هى مدينة .. انت لويس» وقد مضت ثمانية أشهر على الأقل ... فعلت ما فعلته بالآخر، وما سيأتى يمثل تحديًا ..ر، وستأتى لأبيها بقطعة لحم مطاطية معينة!).

(تظاهر أبى بالهلع والاشمئزاز، لكنه، وبكل التأكيد، يحتفظ بلحظات المغامرة هذه كأى معتوه اصيل).

«شارع «فرونت»، هل تراه يا أبى؟».

«بالطبع، لست كفيفًا».

فى مكان انتظار السيارات بجوار موتيل «إى - زى إيكونومى» تصلح «دول» زينتها، ومن المذهل أن فتاة مدللة ضيقة الصدر تتفوق فى طريقة تزيين وجهها وخاصة عينيها. فى الوقت ذاته كان السيد «فجلة» يضرب بعصبية على وجهه الملتهب، محركًا رأسه من جانب إلى آخر محملقًا فى وجهه بالمرآة.

لكن، هل هذا هو أنا ؟ أم أن أحد المختلّين عقليًا اتى بى إلى هنا؟.

يصاحب السيد «إيرلى» ابنته «دول» إلى الغرفة ٢٢ (وتظهر ظلال أضوائها من أسفل الباب)، ولكن السيد

«إيرلى» ينسحب بفطنة إلى الظل بجوار صفائح القمامة فيما تدق «دول» على الباب بخفة، ويفتح الباب.

ينطق الكلمات بصوت خافت، فليكن الرب معك يا عزيزتى

وأبوك قريب من هنا يراقبك.

(اللعنة ! كان السيد «إيرلى ينوى أن يجبر ابنته المراهقة متقلبة المزاج أن تريه محتويات حقيبتها، وجيوب السترة، وحذاءها الطويل المثير. كان يفكر أن يفعل ذلك لكنه نسى).

يفتح الباب بحذر واحتراس، ودعيت «دول» إلى الدخول. كانت تعض على شفتها السفلى لتمنع قهقهة مدوية، إن «دول» لا تشعر بالخوف من هذا الشخص الذى لم تلمحه من قبل. أليس كذلك؟

ليست ابنة زوجة (ابنة) «آيرا إيرلى». إنها ليست «دول».

يذكّرها هذا الرجل بالفجل فى الحقل...السيد «فجلة»!

هو أيضًا منزعج تجاهها، ومثار. إنه يقف ولا يفعل شيئًا، كانت أصابعه تتحرك بعصبية، ويكتسى وجهه بالشحوب كأنه لم ير شيئًا مثل «دول» من قبل، أو كأنه يحاول أن يقرر ما سيفعل بها، لكنه مع ذلك كان يملك حضورًا ذهنيا مكّنه من غلق الباب بإحكام.

كان يحاول الابتسام، وهو يلعق شفتيه الرفيعتين.

«دول»، هل هذا اسمك الحقيقى؟»

هزّت «دول» كتفيها قائلة بدلال : «ربما يكون اسمى، وربما لا».

«وأنتِ (السيد «فجلة» يتلعثم؟) أحد - أحد عشر عامًا حقًا؟».

تهز «دول» كتفيها وتغمغم بكلمات قد تكون : «نعم يا سيدى». فهى خليط مبهر من الصمت والخجل والخبث والمشاغبة ورموش العين المرتعشة، وفى داخلها غضب يشبه نقر موسيقى الهارد روك. وابتهج السيد «فجلة» وفغر فاه وابتسم وثنى أصابع يده الطويلة.

وقال متلعثمًا فى كلماته: «لكنك - لكنك تب. .. تبدين أكبر سنًا من الحادية عشرة على ما أظن. .. لكنك جـ. .. جميلة جـ... جدًا يا «دول»، أو أيًا كان اسمك».

وتغمغم «دول»: شكرًا لك. ثم تهز كتفيها وتخلع السترة الجلدية الأرجوانية، وتتركها لتسقط فوق الفراش، وتلك هى الإشارة المعروفة عالميًا. ثم تدفع بشعرها المعقوص المنسدل إلى الخلف وهى تراقب بجانب عينها كيف يحدّق السيد «فجلة» فيها.

طالما أن المبدأ القائم هو «ممنوع اللمس»، فماذا يهم؟.

إنه يشعر بالحزن وعبس وجهه.

قد نتساءل أحيانا ونفكر فى أن هذه الحياة ليست هى الأفضل. كان القمر مشرقا كأنه عين، يرى الجميع ولكن هل يغفر للجميع؟ ربما لا!

أفرغ السيد «إيرلى» «الترموس» من محتوياته، وقرر أن يذهب إلى بار «كسمت» الذى لا يبعد كثيرا عن موتيل «إى ـ زى» فى شارع «فرونت». لن تعرف «دول»، «سأذهب لبضع دقائق يا حبيبتى».

هذا السيد «س» مدرس جديد بالمدرسة العليا، وقد تأكد السيد «إيرلى» أنه لا يؤذى، ولا يحاول لمس أى شىء وإن كان برغوثًا.

أين جهاز التحكم فى التلفاز عن بعد ؟ نظرت «دول» إلى الغرفة الشعثة.

لم يكن السيد «فجلة» يريد إلا أن يتحدث وحسب، إلا أنه من غير المتوقع من «دول» أن تجيب على أسئلته التى لا معنى لها أو أن تسمعها أصلا. فقد أدت دورها ودارت مثل الدمية الميكانيكية: مرة، مرتين، ثلاثًا، أربعًا، كالمعتاد، لكنها بالتأكيد تبدو تلقائية! حركات الوجه ورعشة الرموش وتنويعات من الابتسامات ونظرات خفية من تحت الرموش ولسان أحمر كلسان الثعبان يرطب الشفاه واصطناع الخجل، إن كانت «دول» تعرف الخجل! إنها منزعجة من هذا الرجل الذى يقول إنها تبدو أكبر سنًا من الحادية عشرة، عليه اللعنة! من الواضح أنها تبدو أكبر من أن

تكون فى الحادية عشرة من عمرها ولكن ليس إلى هذا الحد! شعرت «دول» أنها تعرضت للإهانة، .. أمزق شريان رقبة هذا الحقير، وأشاهده ينزف إلى آخر قطرة دم مثلما فعلت فى مَنْ سبقه. ولكن هذه المرة، وبالتأكيد، لن يتناثر الدم، فالبقع على الملابس سيئة ولكن يمكن احتمالها، لكنه حين يتناثر على الشعر المجدول فهى مشكلة عويصة.

إنها ليلة كئيبة، جملة قالها ساقى البار الأصلع الذى يضم ما تبقى من شعره كذيل حصان، وهو يحاول أن يتحدث مع «آيرا إيرلى»، لكن التواصل كان متقطع الخيوط. يمسح السيد«إيرلى» بأصابعه على شعره الأبيض ولحيته كأنه يميت وعيه! «نعم..» قالها السيد «إيرلى» بنبرة راهب : «إنها ليلة حزينة حقًا، إنه قدر الإنسان».

ساقى البار ذو الشعر المعقوص، الذى يبدو أنه كان صبيًا صبوحًا فى القرن الذى مضى، يقول بلهفة: «أتعتقد أن الأمر مأساوى ؟».

ثبّت السيد «إيرلى» نظره فى شرابه، فالحقيقة واضحة فيما يقوله الساقى. ..

ربما كان الأمر محزنًا فقط يا صديقى، لكنه لن يصل إلى أن يكون «مأساويًا».

يحاول السيد «فجلة» الضحك كأنه يسعل، ضحكة سخيفة كأنه ينظف حلقه، وقال وهو متخذ هيئة الجثة القائمة التى تتغنج : «أتقولين إنهم

يطلقون عليك اسم «دول»؟ هل يعنى ذلك أن لك اسمًا آخر؟».

قفزت «دول» على الفراش الذى يغطيه لحاف قطنى قديم ونتن، وهى تصدر ضوضاء وتقهقه كأنها فى السادسة من عمرها، وذلك متوقع! إن السيد «فجلة» مشاهد مثالى، فهو يفتح فمه ويمعن النظر ويفغر فاه كأنه نائم فى الوضع وقوفًا.

تهز «دول» كتفيها ؛ هزة قد تعنى ربما نعم، وربما لا «يمكنك أن تقولى لى اسمك الحقيقى يا «دول».

حددت «دول» مكان جهاز التحكم عن بعد، الذى كانت تبحث عنه، إذ كان نصف مختفٍ تحت جريدة «يو إس إيه توداى» على المنضدة الجانبية، وبرشاقة راقصة باليه صغيرة وثبت من الفراش لالتقاطه.

«اسـ.. اسمى هو. ..».

إن «دول» لا تسمعه، فهى ترى أن هذا الشخص لا يمثل تهديدًا، إنسان بسيط كالحذاء البالى وشعره أحمر خفيف كالفرشاة القديمة، وهاتان العينان اللتان تشبهان عينى الجرو تطرفان بتكرار؛ ستشعر غالبًا بالأسى نحو البائس (غالبًا). لا تستطيع «دول» تحديد عمره وهى ليست حكمًا على أعمار الكبار : فأى شخص لديها ليس طفلا فهو كبير. .. «عجوز سخيف» أو «عجوز أخرق». السيد «فجلة» كما ترى يرتدى قميصًا أبيض مشمر الأكمام، يكشف عن شعر ساعديه، شعر متناثر فى بقع متباعدة كأنه مصاب

الحرب، ويرتدى بنطالا يبدو كأنه ينام فيه، وحذاء
قديمًا قبيحًا برباط. السيد «فجلة» له عضلات
مترهلة وكتفان منحنيان ولولا هذا لبدا طويلا مثل
«ادرا إيرلى»، لكنه يفتقر إلى الوقار والقامة
المعتدلة، كما أن السيد «فجلة» تنبعث منه رائحة
كريهة.

يا للقرف! تلك الرائحة المملة لذكر مهتاج،
إضافة إلى شعوره بالقلق والخجل، إنها رائحة شمّتها
«دول» دائمًا فى حجرات مثل هذه الحجرة منذ زمن
طويل، منذ تركت ضاحية «ماونت كيرف».

إنه وقت مشاهدة التليفزيون، لكن السيد «فجلة»
ظل يمشى بعصبية حول «دول» بحركة نصف دائرية
متمتمًا ببضع كلمات بصوت خشن يقرقع كشىء تود
ان تسحقه تحت قاعدة حذائك.

فهو يقول : «د... دول»؟ من أهلك؟».

«ام م م م..لا أدرى».

«هل ذلك الرجل الذى. ...ذلك الرجل الذى تحدث
معى على الهاتف...هو حقا زوج أمك؟»،

وترد عليه «دول» وهى تتشدق بالكلمات : « إنه زوج
امى».

«لماذا؟ هذا فظيع!».

تفتح «دول» التلفاز وهى ترد ببعض الإجابات
بنفس أسلوب التشدّق.

«زوج أمك حقًا ؟ فعل بك هذا؟».

(بعض الحلوى هو مـا تريده «دول» الآن. اللعنة، أنا أستحقها).

(هذا الرجل، لا يستحق أن تحزّ رقبته، فهو مجرد أحمق يرثى له، أو أن ذلك الشيء بين رجليه بافتراض أن لديه شيئًا ـ مبتور. ليس الليلة).

«ولكن يا عزيزتى كيف سارت ـ أعنى حياتك ـ بهذا الشكل؟».

تجيب «دول» بنفس الطريقة المتشدقة: «لا أدرى يا سيدى، سارت هكذا وحسب».

«هل تذهبين إلى المدرسة يا «دول»؟ أعنى.. هل تتلقين تعليمًا؟».

كان السيد «فجلة» يضع يديه بعصبية وعمق فى جيوب بنطاله، ويقف محدقًا فى «دول» وهى على الفراش، ويتنفس كأن به شيئًا مجروحًا.

وتقول «دول» ببعض الكبرياء إنها تلقت تعليمًا منزليًا.

«تعليم منزلى؟!» ويضحك السيد «فجلة» كأن أحدا جذبه بقوة وعصر ما بين رجليه.

يتناول السيد «إيرلى» كأسًا ثانية من المارتينى فى أكثر مواقع بار «كسمت» إظلامًا، ولا بد أن يكون حريصًا على ألا يداهمه الوقت خاصة حين تكون معنوياته فى أدنى حالاتها، فقد كان لابد أن يعود إلى

... ل «إى ـ زى إيكونومى» بعد عشر دقائق، لكن ... دقائق أخرى كانت قد مرت.

.. ساطة، كان «آيرا إيرلى» متألمًا : فابنة زوجته (...) التى يحبها كثيرًا نعتته أنه عجوز شرير أخرق. ... هذا عدلا.

«عجوز شرير أخرق، قالتها ثم ضحكت.

حسنًا، ربما كان هناك ما دعاها لتقول هذا، ... التذكارات التى أعطتها «دول» للسيد «إيرلى» ... تبعات مزاجها المنحرف فى هذا الموتيل أو ذاك، ام يغفل كل هذا فى عجالة كما هو متوقع، ولسبب ما لا يستطيع أن يغفله. إن تلك التذكارات اللطيفة كما ... اق عليها «دول» هى علامات أو رموز، ومن الصعب التكهن بمعناها لكنها تعنى شيئًا ما. ..

«أترى يا أبى ما جعلتنى أفعله ؟».

«الأفضل أن يكونوا هم وليس أنا يا ابنتى».

لو كان عجوزًا شريرًا أخرق لأظهر تلك «التذكارات» فى حالة تدخل الشرطة، إلا أن «آيرا إيرلى» شخصية متميزة، ربما يمكنك القول إنه أكثر تميزًا من «دول» الأسطورية.

لن تصل سجلات جرائم الغرب الأوسط إلى أعماق «آيرا إيرلى»، حتى الذين التقوا «آيرا إيرلى» وابنة زوجته (ابنته) «دول» ستهرب منهم الكلمات ولن يتمكنوا من التحدث عنهما.

تلك التذكارات اختزنها السيد «إيرلى» فى قوارير كبيرة مليئة بالفورمالين، هل هى خمسة أو ستة أو سبعة تذكارات؟ لقد تبعثرت تلك التذكارات فى خزائن مؤجرة من أقصى الشمال فى «ميل لاكس - مينيسوتا» إلى أقصى الجنوب فى «جرينفيل - المسيسبى» تحت أسماء مستعارة ليس من بينها «إيرلى». إنها بالنسبة له وثائق وجدانية قد يرجع إليها يوما ما عندما تصبح «دول» ناضجة بما يكفى. يبدو أن السيد «إيرلى» قد بدأ يشعر أنه ثمل قبل الأوان.

«شراب آخر يا سيدى؟» ساقى البار ذو الشعر المعقوص يسأله .

يحرك السيد «إيرلى» رأسه الشبيه برأس بابا نويل قائلا: «لا، الأفضل لا» ؛ لكنه يسمع نفسه وهو يقول «حسنًا، إذا كنت تصر على ذلك».

تمـــايلت «دول» بإثارة فى الفـــراش دون أن تخلع حذاءها الأبيض المثير، الذى يصل إلى ركبتيها، وكانت تنورتها الساتان السوداء تنحسر عن فخذيها المدملجين، ومن فوقه قميص دون أكمام بلون بنفسجى مذهب يلتف برباط حول رقبتها ويكشف عن مشروع ثديين لفتاة صغيرة مثيرين للرغبة، أو ربما كان حشوًا من القطن وضعته فى صدرها، وتلك الجدائل التى تبرز من رأسها الصغير، التى تبدو كأنها ستصيبك بصدمة كهربية لو لمستها (لقد تحقق أكثر أحلام السيد «فجلة» شرًا، ربما كان عليه أن يغتصب

م يقتل أو يقتل ثم يغتصب هذه الطفلة الرائعة، .. ينهى الموضوع فى ثورة من الشبق ثم يقتل نفسه، ولكن كيف يمكن لشخص مثل السيد «فجلة» أن يقتل نفسه عمليًا؟ لم يخلق هذا الرجل ليكون بطلا).

تشاهد «دول» برنامج مسابقات قد يكون «من .. يربح المليون»[1] ، صيحات وتصفيق ومقدم البرنامج الأحمق الذى يشبه «آيرا إيرلى» لحد ما. تشعر «دول» بالملل فتغير القناة، فيزداد إحساسها بالملل. تلك السنوات من الترحال مع زوج أمها (ابيها) لتشاهد أى برنامج تليفزيونى لأكثر من ثلاث او اربع دقائق كأنها تتنقل بين القنوات من ١ إلى ٩٩ صعودًا وهبوطا، كأنها تلعب لعبة «الدوّارة»[2]. لو كان السيد «إيرلى» حاضرًا لكان أخذ الجهاز من بين اصابع «دول» بحزم مهما اعترضت، لأنه مؤمن بالتأثير السيئ للتلفاز على المخ، لكن السيد «إيرلى» ليس هنا، السيد «فجلة» فقط الذى يبدو أنه يعشقها ولن يلمسها، فهو يحدق فيها وهى توّجه الجهاز نحو التلفاز كأنه عصا الساحر.

إن «دول» تكره الإعلانات التجارية لكنها تركز فى هذا الإعلان الخاص عن «الوقاية من أعراض ما قبل الدورة الشهرية»[3] وهمست «دول» بهذه الكلمات

---

(١) Millionaire.

(٢) Merry - go - round.

(٣) Prevention Of "Premenstrual Syndrome Pms.

الغامضة بصوت مرتفع، فقد أكد لها والدها أن ذلك لن يحدث لها أبدًا وكان يعطيها حبوبًا يوميًا، وكان يؤكد لها أن هناك طرقًا أخرى لتجنيبها تلك الظاهرة القبيحة التى يطلقون عليها البلوغ.

حـــولت القناة إلى برنامج «أطرف لقطات للحيوانات»(*) لقطة لكلب صيد له أذن طويلة، وطفل أصلع طويل الرأس يقتسمان حلوى البرتقال المثلجة، وأفراد الأسرة حولهما منفجرون فى الضحك لدرجة البكاء، وكانت «دول» تضحك أيضا ولكن باشمئزاز «يا للقرف»! فالجميع يعلم أن أفواه الكلاب مرتع للميكروبات».

فتح السيد «فجلة» قميصه وظهر صدره بالشعر الأحمر غير منتظم التوزيع ومليئًا بالبثور، منظر لا تود «دول» أن تراه. ما زال السيد «فجلة» يثرثر بانفعال، ربما يكون ثملا أو أفرط فى تعاطى المهدئات. يبدو أن «دول» تذكرت أن السيد «إيرلى» أشار إلى أن ذلك السيد «س» فى موتيل «إى - زى إيكونومى» مدرس جديد أو مدرس ثانوى، وأنه شخص مثالى.

كان يقول وهو يبتلع ريقه بصعوبة : «د. .. دول»، هل تسمعيننى؟ إننى خجل من نفسى لما أفعله، فأنت طفلة جميلة، وأنا أعلم أن لك ر... روحًا جميلة. إن ما فعله بك زوج أمك أمر مشين، فأنت تستحقين أفضل. .. من هذا بكثير».

(*) Funniest Animal Videos.

ـهز «دول» كتفيها : «م ـ ماذا؟».

ـتجاهل «دول» تلك الثرثرة بوجه جامد وتركز ـظرها بشدة فى شاشة التلفاز وهى تتنقل بين ـقنوات وتضغط على أزرار جهاز التحكم بسرعة ـرس يجرى على الحائط، وعيونها التى تشبه عينى ـيوباترا بها نظرة زجاجية طفولية باحثة تتنقل بين ـقنوات كأنها متأكدة أن هناك شيئًا خاصًا فى الانتظار، وبغضب مكتوم تفكر أنها ربما لن تكتفى ـفقط بقطع الشريان البارز فى رقبة السيد «فجلة»، لكنها ستفقأ إحدى عينيه الجاحظتين بإصبعها. فى زمن ما فاجأت السيد "إيرلى" بشريحة من اللحم بحجم قطعة نقود معدنية تحتوى على سرة سائق شاحنة جلف، وكان المحتال العجوز مندهشًا بحق، وقال لها مقسمًا إن ذلك متجاوز للصفات الوراثية المتضمنة فى حمضه النووى!

قال السيد «فجلة» : «يا إلهى ! ليتنى أستطيع أن انقذك، فتاة جميلة مثلك.. ليتنى أستطيع!».

«أشكرك، لكننى فى أمان».

(تتحقق «دول» من الوقت : «يا ربى ! لم تقترب الساعة من الحادية عشرة والنصف مساء»).

يقول السيد «فجلة»: «أستطيع أن أصلى من أجلنا، قوة الصلاة مذهلة».

«أشكرك، كل شىء على ما يرام».

وتابع متنهدًا : «إن رجلا مثل زوج أمك هذا لا بد أن يحــرق فى نار جــهنم للأبد، على الأقل لابد من إبلاغ الشرطة عنه».

تتظاهر «دول» أنها لم تسمعه، رغم أنها سمعت كل كلمة قالها.

حسنًا، دع السيد «فجلة» يقول ما يرغب أن يقوله فهذا جزء من الأجر، ويمكنه أن يفعل ما يرغب بنفسه ولنفسه، ولن تفعل «دول» أكثر من استراق النظر إليه. إذا اختنق هذا الأحمق فى بصاقه أو تحول لونه كأن دمه يغلى، فلن تنظر إليه.

ولكنها قد تقول إذا ألحّت عليه الرغبة: «سيدى، إنه موعد حمام «دول»!».

أو ستبتسم ابتسامة الفتاة الشقية الصغيرة، وهى ترعش رموشها كأجنحة الفراشة: «دول تريد أن تستحم، إنه موعد حمامها!».

فى بار «كسمت» يفاجأ السيد «إيرلى» بأن الساعة قد أصبحت الثانية عشرة إلا ربعًا ليلا، لقد ظل فى هذا المكان لمدة أكثر مما كان يخطط، واحتسى خمرًا أكثر مما كان ينبغى له. يا للعار! ماذا إذا كانت فتاتى الصغيرة فى موتيل «إى - زى» إيكونومى تبكى شفقة علىّ؟

لم يحدث مثل هذا بعد، ليس بعد تلك الليلة النحسة فى «إلدورادو - أركنساس»، عندما كان السي

ا رلى» وابنة زوجته (ابنته) حديثى عهد المغامرات.

«هل أنت عارٍ سيدى ؟ لا تختلس النظر».

ومن داخل الحمام الملىء بالبخار يصيح السيد «فجلة»: « نعم».

تدفع «دول» الباب وهى عارية أيضًا، وتعض على شفتها السفلى لتمنع نفسها من القهقهة. ويبدو أن السيد «فجلة» فعل كما طلبت منه بالضبط.

إن آخر عشرين دقيقة فى حياة السيد «فجلة» ستكون لعبة.

اخبرته «دول» أنه استحمام، لكنها كانت تخطط لعبة أخرى.

(يبدو أننى فعلت شيئًا سيئًا فى ذلك الصباح، لقد جهزت شفرة جديدة ولصقتها بصمغ من نوع ممتاز لا يمكن أن ينفصل فى قلم جاف أخذته من احد الموتيلات، وقد منعنى أبى من فعل ذلك بعد حادثة «سانت لويس». يا إلهى، هذه الشفرة حادة جدًا).

«دول» نحيفة وعظامها صغيرة كدمية حقيقية فى زمن مضى : لها ثديان صغيران لهما حلمتان بنيتان دافئتان كزهيرتين صغيرتين، وليس حول فرجها شعر اكثر من الشعيرات التى توجد أسفل مؤخرة عنقها، ولها ساقان طويلتان كأنها ستنقضّ ثم تجرى بعيدًا

على الفور بحيث لا يمكنك اللحاق بها، ليس عليك إلا أن تقوم بحركة لا تعجبها. فى هواء الحمام الرطب، كان جلدها الناعم بملمس النوجا يكتسب لونًا ورديًا، ولمعت عيناها تتعجل ما ستفعله، ورفعت شعرها على رأسها بدبابيس الشعر بإحكام وغطته بغطاء بلاستيكى رخيص متوفر فى حمامات موتيل «إى - زى إيكونومى». لابد أن «دول» فى مزاج منحرف كما يقول السيد «إيرلى»، لكنها فى الواقع تضحك.

ومثل طفلة حقيقية فى الحادية عشرة من عمرها تبكى وهى متقطعة الأنفاس، قالت «دول» : «هل مياه الحمام لطيفة وساخنة ؟».

«إنها ساخنة يا «دول»، إنها. .. ساخنة».

كان السيد «فجلة» مطيعًا لقواعد اللعبة، ولم يختلس النظر ولم ينثر الماء بكلتا يديه، ورأت «دول» صدرًا شاحبًا مترهلا وبقايا شعر أحمر ذابل؛ «ليس الماء ساخنًا جدًا يا سيدى، أليس كذلك؟».

«لا، إنها مناسبة تمامًا».

«لا أحب أن تلسعنى المياه، لكنى أريد حمامًا ساخنًا، أفهمت؟».

«د. .. دول»، إنه مناسب تمامًا، يمكنك وضع إصبع قدمك فى. ..».

«هل يوجد هنا صابون معطّر يا سيدى ؟ أريد الكثير من الرغوة».

«يوجد صابون جيد للغاية هنا، كبير بحجم كف يدى، انظرى؟».

«لا تختلس النظر، أنا أراك».

«إن رائحته جميلة حقًا يا جميلتى».

تقول «دول» مؤنبة، كأن السيد «فجلة» يختلس النظر بشقاوة من فوق كتفه: «سيدى ! انظر أمامك واغلق عينيك أيضًا».

«إننى أفعل ذلك يا «دول»، أفعل ذلك».

مسكين السيد «فجلة»، إنه يرتعد ويرتعش فى ماء الحمام فى ذلك البانيو المتسخ بستارته المهترئة، كأنها ستارة مسرح مفتوحة تكشفه أمام عيون تتهكم عليه. استجمعت «دول» غضبها وحملت الشفرة خلف ردفها الأيمن بمحاذاة الانحناء الناعم لجلدها الدافئ. حين ترى ركبتين عاريتين مشعرتين تحملان صدرًا مترهلا تتذكر «آيرا إيرلى» وهيئة الرجل، الذى يبدو متماسكًا وهو يرتدى ملابسه، لكنه حين يخلعها يبدو مترهلا وأحمق، وتتملكك الرغبة فى أن تلطمه مرارًا.

خلت عينا «دول» من أى تعبير، واكتست بلون اخضر زجاجى حاد كأنها عواكس أضواء

«سيدى ؟ هل تعدنى ؟ ألا تنظر حتى أدخل إلى البانيو؟».

فى غرفة النوم كان التلفاز مفتوحًا بصوت مسموع، إن فندق «إى - زى إيكونومى» له سمعة طيبة ولا

يتدخل الناس فيه فيما لا يعنيهم. لاحظت «دول» بدقة أن الوقت قد أصبح ٤٨ : ١١ مساءً، وهو وقت مناسب تمامًا، فإذا كان والدها ضعيف الإرادة قد ذهب لتناول الشراب، فلابد أنه فى طريق العودة الآن. كان السيد «فجلة» يثرثر بجوابه الأخير، وهو أنه يعد بألا ينظر. وتسللت «دول» إلى البانيو؛ حيث ينتظرها الرجل العارى بترقب، وضربته بثبات بالشفرة التى فى يدها. .. ضربة، اثنتين، ثلاث ضربات! وبتقنية التشريح التى تتقنها. .. رابعة وخامسة ! كلها ضربات بحساب جيد للضربة، التى تقتل (سوف يندهش رجال مباحث جرائم القتل)، بحيث يكون رأس الضحية مفصولاً تقريبًا عن جسده.

تهمهم «دول» برقة : «أرأيت ؟».

لقد تجاوزت الساعة منتصف الليل. يوقف السيد «إيرلى» سيارته فى مكان الانتظار لاهثًا ونادمًا، «أين «دول» ؟ ألم تغادر غرفة الفندق بعد؟»، كان لديه هاجس أن أمرًا سيئًا قد حدث ولن يسامح نفسه أبدًا إذا حدث لها مكروه.

انحدر القمر إلى نصفه وراء الموتيل، وحين نظر إلى أعلى رأى سحبًا متناثرة تشبه شبكة عنكبوت مقطعة ممتدة على سطحه.

«أبى..أنا لست غاضبة منك».

يغادران المدينة متجهين إلى الجنوب مبكرين ٣٦ ساعة عما كان قد حدده «آيرا إيرلى»، إنه صامت

..مر بالقلق والمهانة، أما «دول» فكانت تضحك
.ايه وهى تدسّ رزمة صغيرة من الدولارات على
. جره حين دلفت إلى السيارة لم يكن بينها بطاقات
ائ.مان. لم يسرق «آيرا إيرلى» بطاقات ائتمان أبدًا،
. هذه هى الطريقة التى قد تجعل القبض عليك
يسيرًا، أما هى فقد كانت تهمهم مع نفسها وهى تفك
. دائلها : «يا إلهى، إن فروة رأسى تؤلمنى وجذور
..مرى وكل شعرة تؤلمنى، كما أننى جائعة».

عند تقاطع الطرق عند «ميسورى» توقفا عند مطعم يقدم الخدمة على مدار اليوم، وجلسا فى ركن جانبى لا يريدان أن يلحظهما أحد. وكان السيد «إيرلى» يرتدى خوذة عمال المناجم لإخفاء شعره لكنها لا تخفى سوالفه، التى تشبه سوالف بابا نويل، وطلب جعة لأنه يشعر بالعطش الشديد، لكنه فى حالة من الضيق ولا يرغب فى تناول الطعام، أما «دول» فقد طلبت بخجل آيس كريم بالفواكه، وأخيرًا قالت وهى تمسح فمها الصغير، وهى تعلم أن السيد «إيرلى» تواق لسماع ما ستقول بلهفة : «حسنًا يا أبى، ربما يكون معى شىء لك».

«يا إلهى ! لا يا «دول» !».

«إنها بضاعة لأجلك يا أبى».

وتقهقه وتناوله شيئًا ملفوفًا فى ورق ألمونيوم من تحت الطاولة أخرجته من السترة الجلدية الأرجوانية، ويدفعه السيد «إيرلى» بعنف على ركبتيها وهو

مشمئز، ولكن بدلا من ذلك قبضت أصابعه عليه، وتساءل عما يكون، فهو شىء طرى وبض ولا يزال دافئا داخل اللفافة! «أيها الأخرق العجوز»، تقهقه «دول» : «هذه لأجلك».

«إنها سمعتنا التى أقلق عليها يا «دول»، حياتنا».

«فليذهب كل شىء إلى الجحيم، لا يمكن أن يوقفنا شىء».

ربما يكون هذا صحيحًا، يود «آيرا إيرلى» أن يعتقد أن ذلك ممكن.

قبل أن يغادرا المطعم أخرج السيد «إيرلى» الخريطة، التى تجعدت بعد أسفارهما الكثيرة وفردها على الطاولة، وكان من المعتاد فى غالب الأحيان أن تختار «دول»، رغم أنه فى بعض الأحيان كان يتدخل فى اختيارها لمصلحة العمل العامة. يحوم إصبع «دول» المطلى باللون الأحمر فوق الخارطة، «إلى أين المحطة القادمة؟».

جــوع

(١)

تلك اللحظة، وذلك الاســتــبــصــار الذى يتــأجج كالألم، حـين تتذكـر «كـريسـتيـن» وتقـول فى نفسـهـا: «لقد ارتكبت أسوأ خطأ فى حياتى»، حين تشعر كأنها خنفسـاء مـتـعـددة الأرجل انقطع مـركـزهـا العـصبى فاصيب كثير من أرجلها بالشلل.

أسـوأ خطأ. سـاعـدنـى يا رب أن أضع الأمـور فى نصابها الصحيح.

(٢)

كان على مـسـافة بعيدة حين رأته لأول مـرة، ولم تكن تعرفه حينذاك.

ورغم ذلك بدا أنهـا تعـرفـه. تحـجب عـينيـهـا عن الشـمس ومـوجـات المـحـيط الأطلنطى البـاردة تنكسـر

ويغطى زبدها قدميها الحافيتين، وكان هو مثل رسمة مظللة ممدّد وسط الصخور والرمال على الحافة المتآكلة من نحت الأمواج، ويبدو أنه كان يغسل يديه وساعديه ويرش الماء على وجهه، بعد ذلك وقف على قدميه ومطّ جسده وتناول حقيبة ورفعها على كتفه ثم التفت وتحرّك فى اتجاهها، لكنه لم يكن واعيا بوجودها حتى تلك اللحظة، هذا ما كانت تعتقده. ومشى بخطى واسعة على طول الشاطئ كأنه حيوان صغير كان حبيسا ثم أطلق سراحه، إنه يمشى على الشاطئ الخاص كأنه يملكه. على خليج صخرى منعزل بنيت «بيوت صغيرة» على قمة تل يطل على المحيط، يحيط أغلبها سياج منتظم من الأوتاد الخشبية لتحديدها. فى هذه الساعة من الصباح يكون الشاطئ مهجورا تقريبا، ولم يكن هناك سوى «كريستين» وابنتها «سِسى - التى تبلغ الخامسة من عمرها، ورجل ذى شعر أبيض يمشى مع كلبه، والآن ذلك الشاب فى بنطاله الكاكى الرطب من رذاذ البحر وقميصه الأبيض يتطاير فوق صدره العارى، وله شعر أسود كثيف يصل إلى كتفيه تطيّره الرياح كأنه ألسنة لهب؛ أهو غريب؟ أحد الجيران؟ لاحظت «كريستين» أن ذلك الشاب يعرج عرجًا خفيفًا ويفضل المشى على رجله اليسرى.

إنه طويل وشديد النحافة، وله نظرة طفل شغوف، نظرة جائعة، وتبرز ضلوعه على صدره المشدود الشاحب الضيق الذى تغطيه شعيرات سوداء ملتوية.

الأر… «كريستين» بالوجه الشاب الخالى من التجاعيد، وجه تضفى عليه العظام الرقيقة جمالا أوروبيًا، لكنها لا تريد أن تطيل النظر إليه، «أعرفه، هل أعرفه؟ يبدو أن هذا الشاب أجنبى أو غريب، أهو تركى؟ أم روسى؟ أم برتغالى؟»؛ فى «روكى هاربر» جنوب «بروفنستاون ـ ماساشوستس»(١) وفى شبه جزيرة «كيب كود»(٢)، حيث ذهبت «كريستين» وابنتها لقضاء أسبوعين فى شهر أغسطس، كان هناك أيضًا عديد من العمال من أصول أجنبية يعملون فى موسم الصيف، وشباب من الرجال والنساء من «بوسطن» و «بروفيدنس» و «نيو بدفورد» يعملون فى فنادق ومطاعم المنتجع، وخمنت «كريستين» أن ذلك الشاب قد يكون أحدهم، إلا إذا كان فنانًا (إنها لا تريد أن تظن أنه رحّالة لا يستقر فى مكان، أو أنه خطر). ليس من المحتمل أن يكون من سكان «روكى هاربر» حيث الأراضى المجاورة للمحيط باهظة الثمن بشكل مبالغ فيه، ولكن ربما يكون ضيفًا على شخص ما، مثلها.

تعتقد «كريستين» أنه راقص، «راقص مصاب مثل الكثيرين».

---

(١) Provincetown مدينة تقع شرق ولاية «ماساشوستس» على طرف شبه جزيرة «كيب كود» (المترجمان).

(٢) Cape Cod شبه جزيرة تقع فى الجنوب الشرقى من ولاية «ماساشوستس»، وتعتبر من المدن السياحية الرئيسية فى الولايات المتحدة الأمريكية (المترجمان).

إنها أحد الأفكار السريعة التلقائية التى تقفز إلى رأس «كريستين» أحيانا حين يكون مزاجها معقولا فهى ليست وحدها وليست وحيدة لكنها وحدها فى عقلها - وكان لديها رغبة طفولية أن يكون الآخرون الذين تشعر إزاءهم برابطة غامضة خفية أشخاصًا مثلها، مرتبطين معًا برباط الأسرار الدفينة (كانت تلك رغبة قاتلة فى هذه الحالة).

راقص مصاب، راقص سابقٍ مثلى.

(٣)

«سِيسى»، حبيبتى! خذى حذرك».

لكن «سِيسى» لا تسمع أمها، فهى تركض وتصرخ على حافة الأمواج المتكسرة على بعد عشرين قدما منها.

تلك الطاقة التى تملكها «سِيسى»! منذ أمد بعيد حين كانت طفلة تكبر «سِيسى» بأعوام قليلة، كانت «كريستين» تتدرب لتصبح راقصة، واستحواذ فكرة الرقص عليها جعلتها قادرة على الاستمرار فى التدريب الجسدى والانفعالى لعدة ساعات. إنها الآن فى الرابعة والثلاثين ومتقطعة الأنفاس ولا تستطيع أن تلحق طفلة فى الخامسة من عمرها.

تشعر «كريستين» أنها على طبيعتها فى هذه الساعة المبكرة، حيث لم تتعدّ الساعة السابعة والنصف صباحًا، فوجهها خالٍ من مساحيق التجميل

..ى من أحمر الشفاه، وشعرها طبيعى يتطاير مع الرياح، وكانت ترتدى بنطالا أبيض يشبه البنطال الذى يلبسه البحارة، وترتدى قميصًا بأكمام طويلة معقودًا على خصرها فوق «تى شيرت»، والرياح تدفع ما ترتديه فتجعلها مشدودة على صدرها وبطنها وفخذيها.

«لن أنظر إليه، لن أرى عينيه، سواء كان ينظر لى أو لم يكن ينظر».

لم تنظر «كريستين» إلى الشاب الذى يعرج، لكنها لاحظت أنه يحاول أن يمشى بشكل طبيعى.

وهو يقترب من «سِسى» ومنها، وتستطيع أن تتخيل أنه يقاوم الألم. هل هو تمزق فى وتر عضلة أم ركبة مصابة؟ إصاباتها هى من الرقص كانت طفيفة لكنها متراكمة، وأحست بدفقة مشاعر دافئة تجاهه، هذه الخيلاء الذكورية! ذلك الشاب، الذى يعرج له حضور قوى. .. كانت «سِسى» تركض بتهور الأطفال واندفاعاتهم العشوائية، وكانت تغلق عينيها حتى لا يصيبها رذاذ البحر اللاسع، ويبدو أنها لم تدرك أن الشاب الذى يعرج يقترب منها. وبالرغم من تحذيرات «كريستين» لها فى مرات عديدة فإنها لا تنظر إلى موضع قدميها، فهى متغافلة عن كتل الرمال المبتلة تحت قدميها والأعشاب البحرية المتشابكة والأخشاب الطافية ونفايات البلاستيك من ماركة «ستايروفوم» والأصداف وشظايا الزجاج.

جفلت «كريستين» حين تعثرت «سِسى» فى صخرة لزجة، فتأرجحت وكادت أن تسقط، وبردّ فعل فورى ركض الشاب الأعرج نحوها وهو يعرج وانحنى عليها وأمسكها من تحت ذراعيها.

انطبعت هذه اللحظة فى ذاكرة ـكريستين ، وستظل تتذكرها مدى حياتها.

لقد خرج الغريب الأعرج من حيث لا تعلم، كأنما خـــرج من بين قطرات الرذاذ اللاسع، أو من بين السحب المتناثرة فى سماء الصباح الصافية، وما يثير الدهشة أن الغريب الذى يعرج كانت عضلات ساقيه قوية، والتقطت ذراعاه القويتان «سِسى» قبل أن تسقط، حيث تدلّت بين ذراعيه للحظة قصيرة كطفلة تتدرب على الرقص، وكانت تحدّق بعينيها وتفغر فاها، وكانت مأخوذة بما حدث إلى الحد، الذى جعلها لا تستطيع الانفجار فى البكاء أو أن تتعامل بخجلها المرتبك المعهود فى وجود أغراب.

وقالت «كريستين» بانفعال أم ممتنة : «أشكرك، أشكرك شكرا جزيلا».

وأخذت «سِسى» من بين يديه. إن انتقال طفل من شـخص بالغ لآخـر أمـر طبـيـعى ومـألوف، لكن «كريستين» نفسها أحست بخجل شديد، وتأثرت بالعيون السوداء العميقة، عيون جميلة محتقنة بالدماء يعلوها حاجبان أسودان كثيفان يلتقيان فوق أنف كأنف النسر، وفكان تحيطهما شعيرات نابتة تحتاج إلى

الـ لاقة. وقال الشاب: «إنها فتاة صغيرة وجميلة، لابد انك تحبينها كثيرًا».

كان فى حديثه لكنة غريبة، أهى إيطالية أم فرنسية؟

ولم تستطع «كريستين» التفكير فى ردّ، لكنها قالت متلعثمة: «نعم، جدًا».

وتابع الشاب مسيره وهو يحاول جاهدًا ألا يعرج.

أما «كريستين» فقد قبضت على يد «سِسى» بقوة وهى توبّخها بحنان أم، وقررت أن تعود إلى بيت خالتها وزوجها فوق التل، الذى يطل على الشاطئ. عليها أن تصعد ستًّا وعشرين درجة سلم، وكان قلبها ينبض بسرعة تؤلمها عندما تصل إلى آخر درجة منه. كانت تعلم أن الشاب قد استدار ونظر إليها - أو ربما تخيلت أنها تعلم أو كان لابد أن تعلم - وبالطبع لم تنظر «كريستين» خلفها.

(٤)

من الواضح أنه لابد أننا تقابلنا بطريقة ما.

كانت «كريستين» و «سِسى» ضيفتين على خالتهما وزوجها فى بيتهما الأنيق على اللسان فى «كيب»: هو بيت من الخشب المقاوم لعوامل الجو، ومكون من عشرين غرفة موزعة على طابقين وواجهته ألواح من الزجاج، تمتد من الأرض إلى السقف تطل على الكثبان الرملية المتموجة وأعواد البامبو الطويلة

والزهور البرية والشاطئ الصخرى وأمواج المحيط الأطلنطى المذهلة ذات القمم البيضاء وأفق يبدو ملتمعًا من بعيد؛ كان هذا هو المنظر الرائع عند شاطئ «روكى هاربر» الذى يطل عليه أقل من اثنى عشر بيتًا لا تنقص الفخامة أىّ منها. كانت «كريستين» قد زارت خالتها «بتسى» شقيقة والدتها الكبرى، وزوجها «دوجلاس روبنز» الذى يعمل فى الاستثمارات البنكية بضع مرات قبل هذه المرة بدون زوجها «باركر كالفر» المشغول والمرتبط بعديد من الأعمال، إذ أنه مدير تنفيذى لإحدى شركات برمجيات الكمبيوتر الكبرى فى «بوسطن»، وكان قد وعد زوجته بالحضور إليها على متن أية طائرة تتردد باستمرار على «كيب» فى إحدى إجازات نهاية الأسبوع، ولكنه كان وعدًا لم يتحقق بعد. تتصل به «كريستين» و «سِيسى» هاتفيًا فى السابعة من مساء كل يوم، ويتصلون به أحيانا فى ساعة متأخرة من الصباح، وتقول له «سِيسى» : «افتقدك يا أبى! نحن نريدك معنا»، أما «كريستين» فهى تتحدث بشكل أكثر هدوءًا؛ لأنها تعرف أنها وسيلة غير صائبة إن توسلت لزوجها ليفعل أى شىء، خاصة إذا كانت تتوسل إليه فى أمر لمصلحته. «كريستين» و«باركر» تزوجا منذ حوالى ثمانية أعوام، و «سِيسى» هى ابنتهما الوحيدة.

(يكبر «باركر» زوجته بستة عشر عامًا، وكان مترددًا فى إنجاب هذه الطفلة، وله ولد مضطرب نفسيًا فى الثالثة عشرة من عمره أنجبه من زواج

..ايق، ويعيش مع زوجته السابقة فى «نيوهامبشير».
••، حسن طالع «كريستين» و «سِسى» أن «باركر» رقّ
..» و «سمح» لزوجته الجديدة الشابة بالحمل).

وفى «روكى هاربر» لاحظت «كريستين» نظرة ..التها المتفحصة التى تحمل استفسارًا غير منطوق، ..التها: «هل هناك ما يعكر الصفو بينك وبين ..اركر»؟» كما لاحظت الاهتمام الودود ولكن غير المرغوب فيه من زوج خالتها، «هل لديك ما تودين الحديث بشأنه يا «كريستين»؟» احتارت «كريستين» وتساءلت فى نفسها عما إذا كان شىء مما يدور بداخلها ظاهرًا بوضوح على وجهها، ففى هذه الأيام المشمسة بجوار البحر تناوبتها أحاسيس شتى، فهى تشعر بالوحدة وجائعة للصحبة، لكنها كانت قد عزمت ألا تظهر ذلك.

عزمت «كريستين» أن تظهر لخالتها وزوجها بنبرة صوت مبتهجة وابتسامة ودودة وبأسلوب مرح أن زواجها على ما يرام، إضافة إلى أنها تتصل بزوجها هاتفيا كل مساء (وهم يعرفون ذلك بالطبع)، فهى تتحدث بأسلوب شيّق ممتع لمن حولها، وتبدو مفتونة بكونها أمًا صغيرة شقراء فى غاية الجمال لطفلة فى الخامسة من عمرها، وتقول : «إن زوجى رجل مدمن لعمله، ولا يحب كلمة إجازة»، فهى شبيهة بكلمات من قبيل «فارغ» أو «متشرد»، والواقع أن زوجى فى غاية الانشغال»، وغالبًا ما كانت تضيف الجملة الأخيرة

بتعاطف معه وهى مقطبة الجبين. إنه شخص منتج ومنتعش ماديًا فى مجال عمله، ولكن هل تخصّ العلاقة الحميمة فى زواجها أحدًا غيرهما؟

الزواج علاقة غامضة. لماذا نحب، وما الذى نفعله لتحديد من نحب لنحتوى ذلك الحب معًا ونحميه، كأن الحب شعلة قد تنطفئ فى أية لحظة

إن «باركر كالفر» رجل جاد تصعب إثارته، وهو رجل أنيق عريض الكتفين وله شعر أشيب كثيف وحاجبان نافران، وإذا رأيته من مسافة قريبة ستعرف أنه رجل متميز، وإذا اقتربت منه أكثر ستراه شابًا فى منتصف العمر لا يزيد عمره عن خمسين عامًا، وقبضة يده عند المصافحة ساحقة وأحضانه قد تحطم الضلوع، ومتسلّط فى قبلاته الرطبة الشبيهة بقبلة الكلب. لكنه طيب القلب يحبه الجميع، ورياضى لا يحمل ضغينة لأحد (ولم يحمل «باركر كالفر» ضغينة لأحد وهو الرابح طوال حياته؟). وعندما يكون «باركر» و «كريستين» معًا يظنهما الناظر إليهما رجلا وابنته، وكان ذلك مصدر سعادة «باركر» وقلق وارتباك «كريستين»، وتتساءل : «فماذا تكون «سِسى» إذًا، حفيدتك؟ أو ثمرة علاقة غير شرعية؟» لكن ليس هذا الموضوع التافه هو الذى سيعكر صفو «باركر».

عندما رأى «جان كلود» صورة فوتوغرافية لزوج «كريستين»، دقق الشاب فى الصورة وتأثر وتظاهر

ا. يمسح عينيه وقال هامسًا : «هذا الرجل ! إنه
.. ه أبى. .. أبى الذى فقدته عندما كنت صبيًا
.. صغيرًا، وقبره فى «بريتان» التى لم أذهب إليها
أبدًا».

(٥)

ان أنظر إليه، لم أنظر. .. عيناه

قدم نفسه على أنه «جان كلود».

«جان ـ كلود ريفير»؟ «رانيير»؟ «رانو»؟ عرّفه آل «بيرسونز» فى «روكى هاربر» لمجموعة من الضيوف كان من ضمنهم «كريستين كالفر» باسم «جان» كلود ـ ... اسم عائلته بهمهمة، وقدّمه المضيفون على أنه «أمريكى من مواليد إيران»، وكان فى صحبة صديق لأحد أصدقاء أسرة «بيرسونز»؛ وعرّفه آل «فيلدمان» على أنه «جان ـ كلود»، بالهمهمة المصاحبة لاسم عائلته، ممثل وشاعر وراقص سابق وصديق لجماعة مخرج مسرحى فى «بروفنستاون»؛ وفى بيت آل «ستيرن» فى «ولفليت» كان اسمه «جان كلود» مع نفس الهمهمة لاسم العائلة، ممثل ومصمم رقصات وشاعر؛ وفى بيت آل «روبنز» حيث تقيم «كريستين» قدّم على أنه «صديق جديد رائع» لـ «بتسى» التى تعرفت عليه فى الأسبوع السابق فقط أثناء حفل عشاء أقيم عند أحد الجيران و«أثار إعجابها من أول وهلة». فى تلك الليلة، عرفت «كريستين» أن هذا الشاب «جان كلود» الذى يهمهم باسم عائلته ليس

فقط مصورًا فوتوغرافيًا وممثلاً وراقصًا سابقًا ومصمم رقصات وشاعرًا، بل «مترجمًا موهوبًا» أيضًا، وبفخر واعتزاز أظهرت الخالة «بتسى» نسخة من رواية قصيرة عنوانها «نائب القنصل»(١) للروائية «مارجريت دورا» (٢) وترجمها ـ جان كلود رانيير، وعلى الصفحة التى تحمل عنوان الرواية وبخط سريع باللغة الفرنسية «إلى الجميلة مدام «روبنز»(٣). مع تقديرى. «جان كلود»، وعلى الغلاف الخلفى للرواية كانت هناك صورة صغيرة وسيرة ذاتية مختصرة عن الروائية الفرنسية، التى ولدت فى فيتنام، وسيرة ذاتية مختصرة ولكن دون صورة للمترجم «جان كلود رانيير»، كتب فيها أنه ولد فى مدينة «برست» بفرنسا عام ١٩٦٥، ودرس الأدب الإنجليزى والفرنسى فى جامعة السربون، وترجم عددًا من الروايات الفرنسية التى كتبت فى القرن العشرين إلى الفرنسية، وأنه يقسم وقته بين باريس ولندن ومدينة نيويورك.

هل ما تسمعه ممكنًا ؟ نظرت «كريستين» حولها إلى حيث يقف ذلك الـ «جان كلود رانيير» الذى قدّمه زوج خالتها للضيوف، لابد أنه فى السادسة والثلاثين

(١) The Vice - Concul.

(٢) Marguerite Duras (١٩١٤ ـ ١٩٩٦) روائية فرنسية ولدت فى فيتنام، وهى أيضًا كاتبة مسرحية وكاتبة سيناريو ومخرجة كتبت رواية «العاشق» the Lover عام ١٩٨٥ (المترجمان).

(٣) Pour La belle Madame Robbins!Avec admiration.

عمره إذا كان قد ولد عام ١٩٦٥؛ من المذهل أن هذا الشاب فى السادسة والثلاثين من العمر ... «ريستين» لم تكن لتقدّر عمره بأكثر من ستة ... رين عامًا، إن لم يكن أصغر من ذلك.

وقالت بتشكك : «إنه يبدو .. صغيرًا جدًا، ... خصية».

وقالت السيدة «روبنز» ـ خالتها ـ وهى سيدة فى أواسط الستينات من عمرها : «هذا ما نحتاجه فى «روى هاربر» بالضبط».

«ولكنه ليس من سكان المكان، أليس كذلك ؟.

«إنه يقضى الصيف مع .. صديق لـ .. لشخص فى «بروفنستاون» على ما أعتقد، أو «ولفليت»».

واخبرت «كريستين» خالتها أنها كانت قد قابلت «جان كلود» بالفعل، ولكنها لم تخبرها أنها قابلته هى وابنتها على الشاطئ ذات صباح بالقرب من بيت آل «روبنز» الخاص.

وعندما قابلته «كريستين» مرة أخرى تصافحا وابتسما، وشعرت «كريستين» بتلك الرابطة الخفية تربط بينهما، ارتباط الأسرار الدفينة، «هأنذا هنا ! وهاهم هؤلاء الآخرون».

كان «جان كلود» هو الأصغر فى الغرفة والأطول والأكثر جاذبية فى مظهره، كان شاحب البشرة بشكل لا يتوافق مع نهاية الصيف فى «كيب»، وكان نحيلا

جدًا كشعلة منتصبة كما تصورته «كريستين»، وتظهر ابتسامته أسنانًا غير منتظمة كما أنها ليست نظيفة، وعندما لا يكون مبتسمًا يبدو ساكنًا وحائرًا ومضطربًا، وكتلة شعره الكثيفة كالجدائل المجعدة مربوطة خلف عنقه بحبل مصنوع من ألياف القنب، وأكسبه هذا مظهرًا صبيانيًا ومتوحشًا. كانت «كريستين» ترفه عن نفسها وتخيّلت أنه قائد فرقة الرقص وسط هذا الجمع، الذى يتكون فى غالبيته من متوسطى العمر وكبار السن من الرجال والنساء، كم هذا غريب! كانت معجبة باسم «جان كلود رانيير» الذى كان من المحتمل ألا يكون اسمه فعلا. لا أحد يعرفه أكثر منها، كانت تحب مظهره وهو يرتدى قميصًا حريريًا أبيض (استعاره أم أهدى إليه؟) وبنطالا أبيض أنيقًا، وكان حليق الذقن استعدادًا لحفل آل «روبنز»، ولكن يبدو أنه كان فى عجلة من أمره إذ كانت ذقنه ناعمة ولكن الجلد متهيّج وعليه آثار احتكاك، وكان يضع عطرًا نفاذًا ممزوجًا بماء كولونيا غالى الثمن تعرف «كريستين» رائحته. ربما يكون قد استعار هذا أيضًا من أحد أصدقائه فى «بروفنستاون».

رأت «كريستين» أن «جان كلود» وسط هذا الجمع شخص مهذب ومتحفظ ومبتسم لكنه قليل الكلام، وبغض النظر عن شعره وعبيره الجنسى النفاذ، فقد كان شابًا مثاليًا ويحترم كبار السن، وتأثرت للطريقة التى يحاول بها هذا الشاب تجاهل عرجه أو التقليل

... لأنه لا يريد شفقة أو أسئلة غير مرغوب فيها، كان يقف معظم الوقت مركزًا وزنه على رجله اليمنى، وحين يضطر أن يمشى مسافة قصيرة فهو يشد قدمه اليسرى ويحاول أن يمشى بشكل طبيعى لأن ذلك كان يتطلب منه جهدًا. تشعر «كريستين» أنه يستشعر ألمًا فى ركبته؛ حيث يتصلب فكه وتكفهرّ عيناه لكنه لا يظهر الألم، فذلك سرّه هو. ولاحظت «كريستين» أيضا أنه جائع، فحينما كانت تتاح له الفرصة، تراه يلتهم المشهيات بسرعة ونهم، حتى عندما يكون محاطًا بسيدات متوسطات العمر شغوفات به، يبتسمن له ويثرثرن حوله.

مخلوق متوحش، مستأنس مؤقتًا.

ويتظاهر أنه مستأنس.

يسأل «جان كلود» عن الفتاة الصغيرة الجميلة (باللغة الفرنسية(*))، وتخبره «كريستين» أن «سِسى» قد ذهبت إلى فراشها مبكرًا، وتأثرت أن الشاب يتذكر «سِسى» ويسأل عنها بنظرة يملؤها الحنان، فقالت له «كريستين» : «لقد فتنت «سِسى» بالمحيط فأرهقت، فهى لا تمل منه وأنهكتنى»، ولم تكن «كريستين» تقصد ما قالت لكنه كان نوعًا من التباهى بابنتها، ثم ابتسمت بتألق، وبنصف وعى أزاحت شعرها الأشقر اللامع عن وجهها؛ من الواضح أنها ليست منهكة الآن.

(*) La belle jeune Fille.

كـان «جـان كلود» يراقبـهـا عن كثب لكنه لم يكن يتحدث كثيرًا، ومن الغريب أنه كتوم وخجول، وأرادت «كـريسـتـين» أن تسـأله إذا كـان هو حـقًـا «جـان . كلود رانيير» مترجم رواية «مارجريت ديورا» أم أنه ببساطة مجرد تشابه فى الأسماء؟ أو أنه انتحل الاسم؟ كانت متأكدة من طريقة حركته أنه راقص سابق، إلا أنها ترددت أن تسـأله لأن فى ذلك شبـهـة حدوث تقارب بينهما، أو قد يشير إلى أن _كريستين_ لاحظت عجـزه الجسـدى، الذى يحاول تجاهله بشجاعة، والحديث عن ذلك سيكون بمثابة لمسه بحميمية، كأنها تدسّ يدها داخل قميصه الحريرى وتمسح صدره الرشيق...

«هل أنت جائع يا «جان كلود»؟ ما رأيك فى تناول وجبة معًا؟ سأدعوك للعشاء»، وتضحك «كريستين» بطيش وتقول: «سأدفع أنا الحساب».

ولم تصدّق «كريستين» أنها تفوهت بهذه الكلمات المذهلة، فهى ليست امرأة تتحدث بعدوانية مع أى شخص لم تلتق به إلا فى التو، رجلا كان أم امرأة، وحتى قبل أن تتزوج لم تكن لتتحدث بهذه الطريقة مع رجل لا تعرفه.

وأجفل «جان كلو» ولم يظهر على وجهه أى تعبير، وقال : «مدام «كالفر»، كنت أتمنى أن ألبى دعوتك، ولكن آسف، لا أستطيع»، كان يهزّ رأسه بطريقة صبى مراهق ارتبك كأن شركًا قد نصب له وعزم أن

... رزينًا، ثم أشار إلى سيدة بالغة الأناقة متوسطة ... ر تقف فى ركن بعيد من حجرة الجلوس لدى آل ...ز» ثم قال : «السيدة «بيرنهارت» وجهت لى ال... موة بالفعل».

(٦)

...يف يمكن تفسير مثل هذا السلوك المشين، إنها ...رجو من الرب ألا يكون قد سمعها أحد. كانت تقول ...ا قالت كأن امرأة أخرى أخذت مكان _كريستين_. ...عماها الشاب طويل الشعر كراقصة انفعلت بالموسيقى فلم تستطع المقاومة.

(٧)

راقبت «كريستين» بانزعاج، ولكن ببعض الافتتان.

«قطتى - قطتى - قطتى»، هكذا تنادى النسوة العجائز بتناغم وانسجام ورقّة كأنهن ينادين على احبائهن.

«كريستين» و «سِيسى» تراقبان سيدة عجوز كثيفة الشعر فى الثمانينات من عمرها «غريبة الأطوار وتبعث على البهجة» وهى تطعم القطط الضالة على الشاطئ تحت منزلها فى «روكى هاربر»، وتعاونها الخالة «بتسى» فى إفراغ علب طعام القطط من العلب على صفيحة من القصدير لتلتهمها جموع القطط.

يا له من مشهد، حيث تأتى القطط المتضورة جوعًا من كل اتجاه كطقس يومى.

تصفق «سِسى» بيدها وتصرخ بفرح : «انظرى يا أمى! انظرى إلى القطط».

كثير من القطط! قطط سوداء، وقطط تبدو ألوانها كألوان صدفة السلحفاة، وقطط برتقالية كلون النمور، وقطط ذات بقع رمادية وبيضاء، وقطط رمادية بلون الدخان، وأغلبها بالغ النحافة بشكل مؤلم وبعضها آذانها معقورة وعيونها صفراء متشككة كأنوار التحذير، وبعض منها لها جسم لدن وعيونها لا تثبت فى مكان بها نظرة ألم، ومن الواضح أنها قطط تخلّى عنها أصحابها. تصوّرت «كريستين» أن عليها مساعدة السيدات المسنّات، لكنها لم تكن ترغب أن تقترب «سِسى» من القطط، فبعضها يبدو حاملا للأمراض وبعضها الآخر يبدو خطرًا.

كان نهار اليوم التالى لحفل الكوكتيل ملبدًا بالغيوم، يوم عاصف من أيام شهر أغسطس، اصطحبت فيه «كريستين» خالتها «بتسى» إلى القرية بعد ليلة من النوم المتقطع، حيث تذهب خالتها أحيانا فى هذه الساعة إلى السيدة «فانديفنتر»، وهى أرملة رجل كان فاحش الثراء تعيش بمفردها على مدار العام فى أحد «أقدم البيوت الخاصة» فى «كيب»، وتذهب خالتها إليها لتساعدها فى إطعام جموع من القطط الضالة الجامحة.

تشعر «سِسى» بحالة من الفرح العارم، فقد حاولت إحصاء عدد القطط لكنها لم تفلح، لأن تلك

الحيوانات لا تستقر فى وضع ثابت وتتحرك كثعبان الماء. كائنات متعكرة المزاج تدفع كل منها الأخرى عن طريقها وتكشف عن أسنانها وتهسهس وتزمجر غضبًا بصوت عميق يخرج من حلقها، ثم ترفع مخالبها وتضرب بها. اعتادت «سِسى» على القطط المنزلية الأليفة التى تحك نفسها فى ساقى فتاة صغيرة ثم تتطلع إليها طلبًا للتدليل واللعب، ولكن هذه القطط الضالة تتجاهل الإنسان الذى يحسن إليها، وتتكمش ثم تتراجع خائفة وتزمجر وتكشر عن أنيابها، وهذا إن حاولت صديقتها المفضلة السيدة «فاندیفنتر» الاقتراب منها، وكان معظم تلك القطط عجفاء وقصيرة الشعر وجرباء وتبدو برية منذ ولدت، قطة واحدة أو اثنتان كانتا من سلالة نقية ـ هناك أيضا قطة سيامية أصيلة. .. وانتابت «كريستين» رعدة وهى تفكر فى قسوة البشر.

الجوع، شىء قبيح وشديد القسوة.

تتوسل «سِسى» إلى أمها قائلة: «أمى، هل يمكننى إطعام هذه الهريرات؟ من فضلك؟»

«ربما فى المرة القادمة يا حبيبتى»، وانزعجت «كريستين» من خالتها، ومن نفسها، لأنهما أحضرا «سِسى» معهما لترى هذا المشهد المؤسف، فهو مشهد لا يختلف كثيرًا عن أن تشاهد «سِسى» فيلمًا يتجاوز فهمها لأمور الحياة وإن حاول أبواها إفهامها، وبعد أى مشهد من هذا النوع تمطر «سِسى» أمها بوابل من الأسئلة لعدة أيام متتالية.

لكن هناك ما يثير الضحك فى هذا المشهد أيضًا، فالسيدات المسنّات الثريّات يجلسن القرفصاء على الشاطئ، ويضعن الطعام للقطط الضالة، التى لم تبد أدنى تعبير عن الامتنان أو حتى إدراك أن هناك من يحسن إليها، فالحيوانات الأليفة تعبر عن امتنانها على الأقل، حتى وإن كان زائفًا، لكن تلك القطط تنقصها المشاعر مثل سمك القرش؛ تعتقد «كريستين أن «جان ـ كلود» قد يضحك على هذا المشهد. يا لهن من نساء حمْقى! بمجرد أن تنتهى القطط من كومة طعام، تبدأ فى البحث عن طعام فى مكان آخر، وهى تدفع بعضها البعض بعنف: تخدش بعضها بمخالبها وتزمجر وتهسهس.

حين تأكل القطط وتشبع فببساطة تتصرف مهرولة بعيدًا دون أن تلقى أية نظرة خلفها.

تود «سِيسى» أن تدلل إحدى القطط الصغيرة، التى تبدو مستأنسة ولكن «كريستين» أسرعت بمنعها : حبيبتى، «لا ! لا تدللى هذا القط يا حبيبتى، فهو ليس مستأنسًا، إنه برى».

وصدمت «سِيسى» حين زمجر القط وحاول خمشها، كان قطًا برتقاليًا كلون النمر ذا أنف أبيض، ولكن لحسن الحظ أن «كريستين» كانت قريبة وأبعدت «سِيسى» عنه.

وسألت «سِيسى» وهى منزعجة : «لم لا يحبنى هذا القط يا أمى؟».

«لقد قلت لك يا حبيبتى أنه قط برى وليس مستأنسًا».

«قط برىّ»، إن «سِسى» فى عمر يجعلها تتفكّر فى مسميات الأشياء والمصطلحات الدقيقة والفروق بينها، وعادت لتسأل: «لِمَ تكون القطط برّية يا أمى؟».

«لأن. ..»، وتوقفت «كريستين» مليّا لتفكر، فهى لا تريد أن تعرف «سِسى» أن أصحاب الحيوانات المستأنسة يتخلّون عنها أحيانا، فذلك أمر مزعج لـ «سِسى» لأن كتابها المفضّل كتاب عن قطط لها أسماء بشرية وتتعامل فيما بينها كما البشر؛ وقالت لها «كريستين»: «حسنًا، إن بعضها فى الأصل برىّ، ثم تنجب هررة صغيرة تكبر لتصبح برّية أيضا».

وارتبكت «سِسى» وقالت لأمها: «ولكن لماذا؟».

لم تجب «كريستين» عن سؤال ابنتها الأصلى وهى تعرف ذلك، ولكن لم يكن لديها أى تصور للإجابة عنه، وقالت لها: «منذ حوالى مائة مليون عام مضت فى البدء كانت القطط برية يا «سِسى»، ونجح الإنسان فى استئناس بعضها مع مرور الوقت، ولكن غالبيتها لم يستأنس، ونسمّيها «غير أليفة» أو برية».

وتنطق «سِسى» كلمتى «غير أليفة» و «برية» بعناية، وتبدو مقتنعة بالإجابة، وكان الدرس كافيًا لهذا اليوم.

وشعرت «كريستين» بالراحة عندما انتهت القطة الأخيرة من تناول طعامها، وهرولت مبتعدة رغم أن

السيدة العجوز كانت تناديها «قطتى - قطتى! إلى اللقاء»، واشرأب وجها كل من السيدة «فانديفنتر» والسيدة «روبنز» بالحمرة كالفتيات، وغمرتهما السعادة وإحساس بالرضا عن كرمهما، وستعود القطط فى الصباح التالى فى الوقت المحدد تماما لتتناول وجبة دون تعبير عن الامتنان لمن قدّمها. وتهز «كريستين» رأسها بعد الموافقة، ولكن تلك الكائنات البرية جائعة، ولا شىء يهمها إلا أن تشبع جوعها.

وقالت «كريستين» للسيدة المسنّة وهى تبتسم: «إنكم أناس طيبون وأهل كرم. ..»، رغم أنها شعرت بحالة من الشفقة والامتعاض.

أبدًا، لن أفعل! أقسم. .. ليس أنا!

(٨)

أخبار مفزعة فى «كيب». ..

كان القتيل شخصًا لم تقابله «كريستين» ولم تسمع باسمه، فاسمه «أوستن دى بارما» ويبلغ الواحدة والستين من العمر، وكان تاجرًا للتحف الفنية من «بوسطن»، وكان يقضى فترة طويلة من الصيف فى بيته المطل على المحيط، ويبعد حوالى ميل إلى الشرق من «روكى هاربر»، حيث عثر على جثته، التى كانت قد تحللت جزئيًا، وأجمع جيرانه أنه كان شخصًا «غريب الأطوار» و «صعب المراس» و «مدمّرًا لذاته»، ومنذ انفصاله عن صديقه الشاب اعتزل «دى بارما»

الحياة العامة، وكان يحيا وحيدًا ويرفض رؤية الأصدقاء والجيران. وطبقًا لما قاله الطبيب الشرعى ما ... «دى بارما» نتيجة ضرب مبرح وخنق فى وقت مبكر من صباح يوم ١١ أغسطس، ولم يتم العثور على جثته حتى ظهيرة يوم ١٤ أغسطس، وسرقت أمواله وبطاقاته الائتمانية وساعة يده وغيرها من منقولاته الشخصية، وقام القاتل أو القاتلة بتشغيل جهاز التكييف فى غرفة النوم حتى لا تتحلل الجثة بسرعة. .. ارتعدت «بتسى روبنز» وهى تقول: «يا له من شىء مفزع»!، وكانت تتحدث على الهاتف مع أحد الجيران فى «روكى هاربر» وتقول: «ولكن، ليغفر له الرب، ليس فيما حدث مفاجأة. مسكين!».

لم يتوقف هاتف آل «روبنز» عن الرنين، وكان بابهم مفتوحا لاستقبال الأصدقاء والجيران، حيث كان كل من «بتسى» و «دوجلاس» يتلقيان أخبار الفضيحة ويعيدانها على مسامع الآخرين، ووصل إلى علم «كريستين» دون رغبة منها أن «الضحية المسكين «دى بارما» كان مدمنًا للكحول، وكان خبيرًا فى أنواع الطعام والنبيذ، وكان يخضع للعلاج من «اكتئاب مزمن»، وأنه فى وقت ما كان مدمنًا للعب الورق، ومؤرخًا للفن ذا شهرة عالمية، وكان فاحش الثراء لكنه على وشك الإفلاس، و «داعمًا» لشباب الفنانين، خاصة الذكور منهم، و «مشجعًا» لهم، وكان رجلا له "كثير من الأصدقاء ـ عدد لا يحصى منهم»، ثم أصبح «بلا أصدقاء»، وكان رجلا له «أعداء كثيرين

غير معروفين». كان صديقه السابق نحّات في الأربعين من عمره، ويتذكره البعض بأنه كان «غريبًا» و«يشبه الأطفال» و «يملك القدرة على البقاء صامتًا لأمسية كاملة» و «لطيف» و «عدائى» و«عرضة لتقلبات مزاجية حادة». يبدو أن الجميع فى «روكى هاربر» يفترض أن ذلك الصديق السابق مسئول عن مقتل «دى بارما»، وأن دافع السرقة كان ثانويًا بالنسبة للقتل، فلم يكن هناك دليل عن اقتحام بالقوة لبيت القتيل؛ وأيًا كان من قتل «دى بارما» فأغلب الظن أنه كان يكنّ له كرهًا شديدًا من نوع خاص.

قال «دوجلاس»، زوج خالة «كريستين»، بصوت خفيض: «لن أندهش لو كشفت التحقيقات أن القاتل شخص التقطه «أوستن دى بارما» من الطريق واصطحبه إلى بيته».

أما «بتسى» فتقول: «لا يا» دوجلاس»، لم يكن «أوستن» يخرج من بيته على الإطلاق، ولم يسمح لأخته بالدخول حين جاءت لزيارته وتحدث معها من خلال الباب الحاجز، وكان هذا قبل بضعة أيام من وفاته».

«نحن نعلم أنه لم يكن يختلط بأحد، ولكن كان هناك آخرون على وجه اليقين».

إن الشرطة تبحث عن صديقه السابق، الذى يدعى «تريم» أو «تريمر» كما علمت «كريستين»، ولم يره أحد فى «روكى هاربر» منذ شهور، كما تقوم

...ملة بالتحريات فى المناطق الشمالية من «كيب»، و...رون عن معلومات عن الحياة الخاصة للسيد «دى ...»، وعما إذا شوهد «أى غريب أو غرباء مشكوك فى أمرهم» فى المنطقة، خاصة فى صباح يوم ١١ أغسطس.

تحاول «كريستين» أن تتذكر : متى رأت «جان كلود» لأول مرة؟ كم يومًا مضى على ذلك اللقاء؟ إذا كان اليوم هو ١٥ أغسطس، وكان حفل الكوكتيل يوم ١٣ أغسطس - أم كان فى ١٢ أغسطس؟. .. ومثلما أخفقت «سِيسى» فى معرفة عدد القطط الضالة بالضبط، لم تستطع «كريستين» أن تتذكر بالتحديد، وتغلق عينيها وتستدعى أحداث ذلك الصباح حين رأت الشاب كرسمة مظللة يعرج بمحاذاة الشاطئ، ويتوقف فى بقعة من المياه الضحلة وينحنى لينثر الماء على يديه وساعديه ووجهه بقوة، ثم يعتدل ويستدير ويستمر فى طريقه ويتقدم بخطى واسعة فى اتجاهها، ويحاول إخفاء عرجه عندما يرى «كريستين» و«سِيسى» بطريقة ما؛ هل حدث كل هذا صباح يوم ١١ اغسطس؟ حوالى الساعة السابعة والنصف صباحًا؟ لم تكن «كريستين» متأكدة، فالظن أن ذلك كان فى صباح اليوم السابق. ..

لا تستطيع أن تقحم «جان كلود» فى جريمة القتل، فالآخرون ممن رأتهم ذلك الصباح على الشاطئ مثله، كالرجل ذى الشعر الأبيض، الذى كان يصطحب كلبه،

والرجل متوسط العمر الذى كان يرتدى قبعة من القش ويحمل منظارًا مكبرًا. .. كانت تتوقع شرًا.

يستطيع أن يفعلها، وأنت تعرفين ذلك

لا، لا أعرف. من السخيف أن يتجه تفكيرى إلى مثل هذا!

قام أحد رجال المباحث بزيارة لآل «روبنز: «بتسى» و «دوجلاس»، وأجرى معهما حوارًا قصيرًا، ثم أثناء حديثه مع «كريستين»، اصطحبت «بتسى» ابنتها «سِسى» إلى الشاطئ وأخبرت «كريستين» رجل المباحث أنها لا تريد أن تسبب لطفلتها الصغيرة أى انزعاج، وكانت متوترة وصوتها حاد: «أحاول أن أبقيها بعيدة عن معرفة أى شىء عن. .. ذلك الحادث المروع»، وتعبّر «كريستين» عن أسفها للتسبب فى إحباط رجل المباحث لعدم معرفتها بأى تفاصيل قد تفيده، فهى لا تعرف السيد «دى بارما» أصلا، لأنها فى زيارة لخالتها وزوجها لمدة أسبوعين، ولم تر شخصًا «غير مألوف»، وصحيح أنها تتمشى مبكرًا على الشاطئ هى وابنتها «سِسى»، لكنها لا تتذكر شيئًا خاصًا مرتبطًا بصباح يوم ١١ أغسطس، أو أى غرباء قد يثيرون الشك، «أو أى شخص يثير الريبة على الإطلاق».

كان رجل المباحث، اللماح المحبّ لعمله، راضيًا عن ملحوظات «كريستين»، وهمّ للخروج وصاحبته «كريستين» إلى الباب عبر المدخل الفخم فى بيت آل

«روبنز»، الذى ينفتح على منظر السماء والبحر والشمس المشرقة... وتوقعت «كريستين» تعليقًا من رجل المباحث على ما يرى، أىّ تعليق مهذب أو متوقع أو حتى تعليق عادى، لكن الرجل لم يقل شيئًا، فقد كان يألف السكان الأثرياء المقيمين، ويعلم أن الرومانسية لا تشغل حيزًا كبيرًا فى حياة أولئك الأغنياء إذا اقتربت وتعرفت على أسرارهم المأساوية" الخاصة. وتكرر «كريستين» أنها مجرد ضيفة هنا فى «كيب»، وكأن ذلك سيجعل رجل المباحث يستبعدها من التحقيق.

ومن الطبيعى أن يكون التساؤل، كما فعلت «كريستين»، عما إذا كان قد تحدّد بعض المشتبه فيهم بالفعل، وأخبرها رجل المباحث أن ما يعرفه هو ما رآته فى التلفاز أو ما سمعته فى الأخبار حتى الآن، وتسأل «كريستين» إذا ما كان هناك... بصمات ؟ أى فى مسرح الجريمة؟ وابتسم الرجل معجبًا بسؤالها، فالسيدة «كريستين» شابة جذابة وينم سلوكها عن عقلانية ممزوجة بدلال الأنثى، وتبدو وهى ترتدى الـ «تى شيرت» الواسع والبنطال القصير أصغر سنًا، وقال لها : «بالتأكيد يا سيدة «كالفر»، دائمًا هناك بصمات»، ولكن «كريستين» لا يوقفها صدّه وسألته بتلقائية وهى تتبعه إلى الخارج :«أكان هناك آثار اقدام أيضًا؟ فالمنطقى أن يكون هناك آثار كثيرة من الأقدام على رمال الشاطئ بعد الخروج من البيت، وقد مرّت عدة أيام قبل اكتشاف الجريمة. ...»، ولم

يجب رجل المباحث، لكنه توقف وانتظر، فما قالته «كريستين» لم يكن سؤالا محددا، وسمعت «كريستين» نفسها وهى تقول أثناء إبعادها لشعرها عن وجهها «أعتقد أنك كنت ستلاحظ إذا كان هناك شىء غير معتاد ظاهر فى آثار الأقدام».

ابتسم رجل المباحث مستغربًا ونظر إلى «كريستين»، كان رجلا متوسط الطول ذا شعر أبيض سابق لأوانه كزوجها وفى نفس عمره تقريبًا، لكنه يفتقر إلى قوة حضور «باركر» ولكن ذلك قد يكون اعتقادًا خاطئًا، ونزل بعينيه لينظر إلى قدمى «كريستين» الظاهرتين من صندلها، ورفع عينيه ببطء إلى وجهها.

«لماذا تسألين هذا السؤال يا سيدة «كالفر»؟».

«مجرد فضول، لا يوجد سبب محدد».

وراقبت «كريستين» رجل المباحث وهو يبتعد بسيارته العادية، وشعرت بالاضطراب والعصبية، وتساءلت عما إذا كان صوتها قد تهدّج، وعما إذا كان رجل المباحث قد لاحظ ذلك.

ولكن من خلال نبرة صوته يخبرها حدسها أن الشرطة لم تعثر على شىء ذى أهمية فى موقع الجريمة، وعلى الأقل لا توجد آثار أقدام غير عادية على الشاطئ، ولا علامة تدل على وجود رجل أعرج لأن أثر قدمه سيظهر بوضوح على الرمال، أليس كذلك؟ وحتى إن حاول الشخص الأعرج تجاهل

«...» فسيمكن اكتشاف عدم انتظام أثر الخطوات
على الرمال، وستتمكن عين الطبيب الشرعى الخبيرة
من اكتشافها من بين عشرات من آثار الأقدام.

إذاً فقد فعلت خيرًا إنها لم تذكر اسم «جان كلود»
لرجل المباحث، فهى تعرف أنه لا يمكن أن يرتكب
مثل هذا العمل الوحشى، فلماذا تورّطه؟

إنها تعتقد أن رجل المباحث سيستجوبه على أية
حال، إن لم يكن قد استجوبه بالفعل، كما استجوبوا
كل فرد فى المنطقة.

إلا إذا كان قد رحل، إذا كان مذنبًا فلا بد أنه
رحل

وإن كان قد رحل، فلن أراه مرة ثانية.

عندما لحقت «كريستين» بابنتها «سِسى» على
الشاطئ، احتضنت «سِسى» ركبتى أمها ونظرت إلى
أعلى إليها قائلة : «أمى؟ لِمَ أنت سعيدة هكذا؟».

وضحكت «كريستين» وقبلت ابنتها، وامتلأ قلبها
بالحب والدفء والفرحة، لأنها ببساطة ما زالت على
قيد الحياة، «أمك سعيدة دائما يا حبيبتى، لأنها
معك، ألم تلاحظى ذلك ؟».

(٩)

إذا كان قد رحل. إذا، رحل

لن أراه مرة ثانية.

فى وقت متأخر من ذلك اليوم فى ميناء «بروفنستاون» بينما كانت توقف سيارتها فى ساحة الانتظار، رأت «كريستين» فى زقاق ضيق قريب منظرًا مثيرًا للصدمة: شاب عارى الصدر بالغ النحافة والشحوب ينقّب فى صفائح القمامة خلف مطعم للأطعمة البحرية، ولهذا الشاب شعر مجدول ذو لون أحمر باهت ينسدل على كتفيه؛ إنه مجرد صبى. ما زالت «كريستين» تشعر بطعنة الصدمة فى تلك اللحظة إلى أن أدركت أنه ليس هو.

(١٠)

«أليس هذا الكافيار رائعًا!».

تتلمظ المرأة الشحيمة اللحيمة بشفتيها اللامعتين بأحمر شفاه رخيص يسخر من تجعدات وجهها المكتنز، وخاتم من الماس يبرق فى يدها المرقطة وفص مربع من الزمرد يلمع فيه، وكان من الصعب على «كريستين» أن تحدّد لها عمرًا ولكن من الجلىّ أنها لم تعد شابة يافعة، وربما تكون فى عمر خالتها «بتسى روبنز»، ومن الممكن ملاحظة أثر الجمال، الذى كان: شعر أشقر بلون الفراولة غير الناضجة مصفف بإتقان فوق حاجبيها المرسومين بقلم خاص... كانت واحدة من عشرات الضيوف فى بيت أصدقاء للخالة «بتسى» وزوجها يقع فى جنوب «ولفليت»، حيث اصطحبا «كريستين» إلى حفل كوكتيل آخر على ظهر مركب من الخشب الأحمر ترسو على

الـ..املىً، حيث كانت تعلوهم سحب متفرقة بدأت تعتم رمادية إيذانا بدخول ظلمة أول الليل.

الكافيار، تلك السلعة التجارية الروسية الرائجة، ..اع الآن بأكثر من ستين دولارا للأوقية. إن «كريستين»، التى لا تحب الكافيار، تعرف ذلك.

تقول المرأة بحماس مبتذل : «فى المعتاد مع مثل هذا الكافيار، تكون الكميات المقدّمة محدودة بالطبع! ولكن الكميات هنا وفيرة. لا يمكن أن تتوقف عن تناول الكافيار وعليك دائما أن تكبح نفسك، ولكن ليس الليلة. يا إلهى!».

تقف «كريستين» مرتبكة وهى تحمل شطيرة من الكافيار على منديل ورقى فى يدها، وتدير رأسها فترى «جان كلود» بعينيه الضيقتين الجائعتين وفكه المغلق بإحكام.

إنه يكره هؤلاء القوم أيضًا

ولكن ليس أنا! ليس أنا.

تبادلا النظرات والابتسامات خفية ورقيقة لا يلحظها من قد يراهما، لم ير أحدهما الآخر منذ أيام، ومع ذلك كانا كأنهما لم يفترقا، شىء ما حميم يجمعهما.

التهمت المرأة التى تشيد بالكافيار شطيرة منه ومسحت فمها الملطخ بمنديل ورقى، وعندما رأت «جان كلود» اتسعت عيناها وابتسم ثغرها المطلى

بأحمر الشفاه، وقدمّت له طبقًا فضيًا مليئًا بشطائر الكافيار، وكانت «كريستين» على يقين أنه سيرفض التناول منه، رغم أنه جائع جدًا، وسيمتنع قائلا «أشكرك يا سيدتى».

«سيدتى! هل أنا أمك يا عزيزى؟».

ويرد «جان كلود» بفتور: «لا يا سيدتى، لست أمى».

إنه وسيم للغاية، شعلة منتصبة، ما أراه ليس أقل من ذلك.

فى خلوة خارج غرفة المعيشة، فى ممر مظلم فى مؤخر المنزل الممتد، تتقدم «كريستين» فى الظلال غير واثقة من موضع قدمها إلى حيث تنتظرها يداه.

وعلى مسافة قريبة على ظهر المركب ذى الخشب الأحمر كان الآخرون يتحدثون ويضحكون ويصخبون.

يقبّل «كريستين» قبلات سريعة ورقيقة كخفقات أجنحة الفراشات، ويطرح عليها أسئلة: «هذا ما تريدين؟ هكذا؟ هل تريدين هذا؟».

يلتف ذراعا «كريستين» حول رقبته فى حالة استسلام من لا يقاوم، وظلت تقنع نفسها أن ما يحدث لا يعنى شيئًا لهذا الشاب الرحّالة، إنه دافع اللحظة ولن يتذكر اسمها بعد ذلك، فهى مجرد سيدة متميزة، أو إحدى الشابات، أو والدة الفتاة الصغيرة.

عضّت «كريستين» على شفتيها حتى تكتم صرخاتها .

«يا إلهى!»...

تتوهج سريعًا كالشعلة، ثم تخبو.

(١١)

كانت المرة الثانية بموعد مسبق.

ممارسة الحب مع «جان كلود» والالتحام به... ومشاركته فى تدخين الماريجوانا للمرة الأولى بعد تسع سنوات. ..هل يمكن هذا؟، تمسك بقبضتها شعر الرجل الكثيف وتحب الشعر المجعد زيتى الملمس، وتحب ذراعى الرجل محيطة بها فتشعر بعضلات كتفيه وظهره النحيل وصدره الرشيق، تحب إحساسها بهيكله العظمى من خلال جلده. تتراوح ممارسة الحب معه من حادة وسريعة ثم تتحول فجأة إلى ممارسة رقيقة، وتظل تتراوح حتى تتشبث به فى كل جزء منه: الأيدى والأذرع والأفخاذ، وتشعر حينها ان جلد وجهها يتمدد حتى يكاد يتمزق عنه.

أين يقيم «جان كلود» الليلة؟ فى مكان ما على امتداد الشاطئ، مع أصدقاء الأصدقاء. .. أصدقاء جدد فى منتهى اللطف والكرم. إنه رحّالة حقًا، بلا بيت ولا يريد بيتًا، فهو على سفر لشهور أو لسنين. هل له أبوان؟ لا. هل له أسرة؟ يضحك لتظهر أسنانه الشبيهة بأسنان الأطفال. ما اسمه الحقيقى ؟ هل

هو «جان كلود»؟ هل هو «رانييـر»؟ يضحك ويقول: «نعم، لا بد للإنسان من اسم، أليس كذلك؟ وأى اسم سيؤدى الغرض، وكل الأسماء كذلك». لاحظت «كريستين» أن لكنته أقل وضوحًا وأقل تناغمًا الليلة، إنها لكنة قريبة من لكنة أهل الجنوب الأوسط، ويقول لـ «كريستين» إنه لا يمكنه أن يستقر فى مكان واحد لفترة طويلة، وإذا حاول أحد أن يستبقيه تصيبه حالة من الاختناق ولا يتمكن من النوم ولا تأتيه الأحلام، ولهذا يناديه المحيط العظيم: فهو متغير على الدوام ولا يمكن التنبؤ بتقلباته، جميل ولكنه قادر على التدمير.

اعترف لـ «كريستين» أنه كان راقصًا حين كان صبيا.

صبى جميل: هذا ما نعته به من هم أكبر سنًا، لكن ذلك كان منذ أمد بعيد.

أرادت «كريستين» أن تخبره أنه ما زال وسيمًا، وأنه لابد أن يعرف هذا.

أصاب نفسه فعلا حين كان فى السادسة عشرة من عمره، حادثة مؤلمة غيرت مجرى حياته أصابت وتر «أخيل» فى قدمه اليسرى، ولم يشف منها أبدًا.

«الآن أعرج كما ترين، وسأظل أعرج دائمًا. سيذكرنى العرج بحتمية فنائى».

وأرادت «كريستين» أن تعترض وتدّعى أنها لم تر ما يقول، لكنها بالطبع رأته وهو يعرف ذلك.

إن «كريستين» تثق فى حبيبها، وهى أيضًا أصيبت
.. ا.. صة حين كانت فى الثالثة عشرة من عمرها،
.. تعرضت لعدد من الإصابات الثانوية، لكن
.. رها التراكمى جعل استمرارها فى الرقص أمرًا
.. حيلا؛ وهكذا تغير مسار حياتها أيضًا، وأرادت أن
.. ..

واخبرت «كريستين» «جان كلود» أنها لم تكن
موهوبة فعلا، ولم يكن لديها موهبة حقيقية، ليس
.. (كما تعتقد).

ويهز «جان كلود» كتفيه متشككًا، «ربما...».

ويشرع فى ممارسة الحب معها مرة أخرى،
وفوقهما ينساب الهلال مخترقًا السحب المبعثرة،
وكان المنظر شبيهًا بشبكة خيوط عنكبوت مضيئة.
هدأ الموج وانحسر المد، والأمواج متتالية ومتلاحقة؛
يمتص ثدييها فيتدفق إحساسها كأنها ممتلئة باللبن،
ويمارس معها الحب ولم يعد واعيًا بها، لا باسمها ولا
بملامحها، وتوقفت هى عن التفكير فيه، «المترجم»
الشاب الذى يعرج، الذى يخجل من عاهته.

صرخت «كريستين» بشدة، وقبضت بأصابعها على
شعره.

نعم، هذا ما أريد.. أحبك.

لا، إن «كريستين» شابة واقعية، أم وزوجة أقسمت
على ألا يخدعها أحد، وألا تقع فى غرام هذا الشاب

الجميل. لم يحدث أن اتخذت لنفسها حبيبًا بعد أن تزوجت ولم يكن لديها رغبة أن يكون لها عشيق، ولم تكن لديها النية أن تكون خائنة، أيا كان المعنى الدقيق للكلمة، فإذا لم تكن تحب «جان كلود»، وإن لم تكن عاقدة النية على الوقوع فى حب «جان كلود» أو الاستمرار فى رؤيته بعد أن تغادر «روكى هاربر»، فكيف تكون خائنة لزوجها؟ لن تتعدى المسألة أكثر من كونها غير مخلصة لـ «سِسى». فذلك الشعور المتدفق نحو «جان كلود» لا يخُص أحدًا سوى «جان كلود» نفسه وسواها.

قبضت «كريستين» على شعر «جان كلود»: فى نوبة شبق عارمة تغلق قبضتها على شعره القوى المتموج.

مضى وقت طويل منذ أحست «كريستين» ذلك الإحساس المتأجج كالشعلة، ويستمر التأجج أكثر وأكثر. ..

«يا إلهى».

إنها متعة قوية فى أثرها، لكنها محزنة.

ظل «جان كلود» مع «كريستين» طوال الليل، وأبقاها يقظة وقلقة. إنه يصغرنى كثيرا بالطبع، قالتها «كريستين» لنفسها بعد أن عادت بهدوء إلى غرفتها فى بيت مضيفتها الفسيح المطل على المحيط، كانت النوافذ مفتوحة تستقبل نسيم البحر البارد، الذى بدا كأنه ينفخ على الهلال الذى بدأ يخبو. أعرف وأفهم، لن يتذكر حتى اسمى. وبعد أن

.. مست الرمال عن صندلها وملابسها وشعرها، وا..هت من الاستحمام لتتخلص من رائحة ممارسة الحب المبتذلة العذبة، ومن عطر حبيبها النفاذ، ...ت باب حجرة ابنتها المجاورة لغرفتها، واستمعت إلى أنفاس ابنتها المنتظمة. انتابها إحساس جارف بالحب لابنتها «سِسى» بعد مغامرتها مع «جان كلود»، «لا استطيع تحمل المغامرة، لو فقدت «سِسى»...» ..يطلب «باركر» حضانتها حتمًا، وسيكون له هذا الحق أخلاقيًا إذا اكتشف أمر «كريستين» كأم غير أمينة وزانية.

استلقت «كريستين» على الفراش مفتوحة العينين، ام تفكر فى مثل هذه الأفكار؟ لن يكون هناك طلاق لأن «باركر» لن يعرف شيئًا عما حدث، ولن يعرف احد، فسترحل هى وابنتها عن «روكى هاربر» خلال بضعة أيام، وستنتهى علاقتها بـ «جان كلود». إن «باركر» هو من أحب، زوجى. إنها مرهقة جدًا وبدأ النعاس يداعب عينيها، ولا تزال متعة التدفق الرتيب تصاحبها وتحسّ بها عميقة فى رحمها، مثل الحزن.

(١٢)

«هل سمعت يا «مويرا» الأخبار السارة ؟!».

تتحدث «بتسى» فى الهاتف بصوت خفيض وهى متحمسة، وتدخل «كريستين» المطبخ بحثًا عن قهوة طازجة، لكنها تتوقف لتسمع أخبار خالتها السارة،

وكان منطقها أن الأخبار السارة يجب التشارك فيها على عكس الأخبار السيئة.

«اتصلت «جانيت فيلدمان» للتو لتقول إن الشرطة اعتقلت صديق «دى بارما» الليلة الماضية على الحدود الكندية، إذ كان فى طريقه إلى «مونتريال» مع أصدقاء، ربما كانوا شركاءه، ولكنى لا أعرف أى تفاصيل أخرى بعد. لم تكن مفاجأة لى، فقد اعتقدت دائمًا أن ذلك الشاب قادر على.. حسنًا، عمل أى شىء»؛ ثم لحظة توقف، وتابعت «بتسى» متنهدة : «إنه حقا شىء فظيع، والأمر المريح هنا أن القاتل قد ألقى القبض عليه، ويمكننا جميعًا الآن أن نتنفس الصعداء...».

أدركت «كريستين» أنها ترتجف، لكنها كانت تبتسم أيضًا.

كنت أعرف. لا يمكن أن يكون «جان كلود» بالطبع.

وبينما تستمر خالتها فى الحديث على الهاتف، تلوح لها بيدها وتشير إلى إناء القهوة فوق الموقد. فهذه أخبار سارة جدًا، وهذا صباح جميل، وسماء صافية كالزجاج اللامع، وأمواج متلاحقة تتدفق على الشاطئ كالموسيقى.

خلال يومين ستعود «كريستين» و «سِسى» إلى منزلهما فى «بوسطن»، وإلى «باركر» أيضًا، وستكون «كريستين» فى أمان.

(١٣)

المرة الثالثة، لقاؤهما، وممارستهما الحب. ..

«جان كلو»، أنت رائع الجمال».

«أنت الأجمل يا «كريستين».

هذا تبادل للمداعبة، وتقصد فيه المداعبة، ...لق «جان كلود» اسمها متقطعا «كريس ـ تين» ...وت حنون خفيض سيستمر صداه فى ذاكرة «كريستين» لساعات أخرى.

تعض «كريستين» على شفتها السفلى لتمنع نفسها من الصراخ، إنها لا ترغب أن تحب هذا الرجل، ولن تسعى إلى حبه، وهى متأكدة من هذا.

بدأت تشعر بفزع ما من العاطفة المركّزة التى تشعر بها نحوه.

أسرّت «كريستين» لنفسها بحزم أن الأمر برمّته عبث! إنها نشوة جسدية وحسب.

إنها أم مرّت بتجربة الإنجاب، وذكريات إحساس الإنجاب وما تلاه من اهتمام ورعاية هى التى ستصاحبها مدى الحياة.

إنها لم تخبر «جان كلود» حتى ذلك الحين أنها «سيسى» سوف تغادران قريبًا، ربما لن تخبره طلقًا... لكنها مهمومة أنها ستضطر إلى إنهاء العلاقة، وأنها قد تضطر للبوح بالكثير وتتسبب فى إزعاجه وإحراجه، وستتغضن ملامح الوجه الشاب ذى

الأربعة وثلاثين ربيعًا جراء بكائها وسوف يبدو قبيحا؛ لا أستطيع المغامرة بذلك، ولا بأى جزء منه!

كم كان ذراعا «جان كلود» قويين، وتلك العضلات الرشيقة القوية لفخذيه وساقيه، وظهره الناعم دون الشعور بضلوعه من أمام، وهيكله العظمى المتماسك، وحين يتباعدان لينظر كل منهما للآخر تضىء عيناه ذات الرموش الطويلة بلمعان كلمعة الرخام. ..

«أنت الأجمل يا «كريستين».

وغالبا ما تصدقه «كريستين».

(١٤)

لا أستطيع، لا أستطيع أن أخاطر بمشاعرى.

لم يكن لقاؤهما الأخير لممارسة الحب، ولم يكن حتى لقاءً خاصًا، وبالطبع لم يكن «جان كلود» يعلم أن هذا هو اللقاء الأخير.

نزلت «كريستين» إلى الشاطئ أسفل منزل آل «روبنز» حيث يجلس «جان كلود» على الرمال ويلعب مع «سِسى»، وجمع شعره المتموج خلف عنقه كذيل الحصان وخلع قميصه، وكان لباس البحر، الذى يرتديه ملتصقًا بجسمه؛ إن فيه براءة الصبية ويستطيع أن يجعل جاذبيته الجنسية تظهر كأنها مصادفة دون اهتمام كبير منه.

شعرت «كريستين» بالقلق وهى ترى «جان كلود» و«سِسى» معًا، ففى الأيام الماضية أصبحت «سِسى»

ا... يرة للشاب الوسيم حلو المعشر، الذى يمشى «انحراف» (كانت «سِسى» تفهم بما يكفى لأن تعرف أنها لا يجب أن تتحدث عن هذا الأمر فى وجود «جان كلود»، والواقع أن «سِسى» مرهفة الحس تجاه الإعاقة الجسدية والحرج الاجتماعى بأنواعه، ولم تطلق «كريستين» وصفًا للطريقة، التى يمشى بها «جان كلود» وتفضيله لاستخدام القدم اليسرى، ولا تريد أن تستخدم كلمة «أعرج»، فمن الفظاظة أن تطلق الكلمة على شخص فى حساسية «جان كلود»، وقد يسبب له جرحًا غائرًا لو علم بذلك).

تنفجر «سِسى» فى الضحك، يا لها من قلعة متقنة تلك التى تبنيها فى الرمال هى و«جان كلود»! كانت «كريستين» سعيدة، وربما أصابتها الدهشة من التركيز الطفولى الذى أبداه «جان كلود» تجاه هذه المهمة، وكذلك دقتّه وصبره الدءوب. كان يتعامل مع «سِسى»برقة تليق بالفتيات الصغيرات، وكان ذلك يسبب لـ «كريستين» إحساسًا بالامتنان والانزعاج أيضًا، لأن «سِسى» قد تنزعج عندما تضطر أن تترك صديقها الجديد «جان كلود»، على الأقل فى البداية.

رمق «جان كلود» «كريستين» حين اقتربت، بينما كانت «سِسى» تجرف الرمال النديّة بجاروف بلاستيكى مما يستخدمه الأطفال، ولم يكن هناك احد غيرهما فى المكان حيث كان آل «روبنز» فى مكان آخر. كانت نظرة «جان كلود» لـ «كريستين»

جريئة وحميمة وجائعة، وجو من الطمأنينة يسود بينهما، وهى تقريبًا طمأنينة ملكية المكان، وهو ما كان واضحًا فى أسلوب تعامله، فهو شخص مرغوب فى وجوده فى بيت آل «روبنز» وآخرين من سكان «كيب»، وتعرف «كريستين» أن الجميع يتنافس على وجوده حين يقيمون حفلاتهم. تتعثر قليلا فى الرمال وتضع على شعرها الأشقر المتهدل قبعة من القش وترتدى قميصًا مفتوح الأزرار فوق لباس البحر الأبيض، وهى تفترض أنها امرأة جميلة إذا لم تكن هناك منافسة مباشرة مع نساء جميلات وشابات أصغر منها جمالهن يخطف الأبصار. «أهلا ومرحبًا»، قالها «جان كلود» بصوت ناعم مشروخ، وتلاحظ «كريستين» وتر قدم حبيبها المبسوطة على الرمال، والجزء العلوى الضيق من جسمه، الذى يغطيه شعر كثيف، ويزداد بشكل بارز على الصدر والذراعين والساقين، وشعرت بوخز رغبة جنسية، وأحست أنها على وشك الإغماء من الشمس الساطعة، تعرف أنها ارتكبت خطأ لكنها ستصلحه، ولكن ليس الآن. .. ليس بعد.

ستغادر مع «سِيسى» غدًا.

يبتسم «جان كلود» بطريقة موحية لـ «كريستين» بينما كانت تنزل التل، وهى الآن على الشاطئ تقترب من ابنتها ومن حبيبها، وحملت ابتسامته المعرفة المرتبطة بممارستهما الحب فى الليلة السابقة،

والمعرفة باحتياج «كريستين» الجنسى وصرخاتها وولوعها ويأسها، كل هذه المشاعر اختزلتها ابتسامة «جان كلود». إنه يضحك.

«كريسـ ـتين، حبيبتى! انضمى إلينا، هيا!».

حبيبتى! احمرّ وجه «كريستين» خجلا، ولا تعرف «سسى» المقصود بكلمة حبيبتى، ولكنها سمعت، الطفلة ذات السنوات الخمس مبتهجة بصديقها الجديد وتسمع كل حرف يخرج من بين شفتيه.

وبابتسامة خبيثة، مسح «جان كلود» الرمال الدافئة بجوار «سِسى»، فى مساحة انفراج رجليه وقريبة جدًا من أعلى ساقيه!

(١٥)

لابد أن له حبيبات أخريات، أنا لا أعنى له شيئًا.

قررت «كريستين» أن تغادر «روكى هاربر» دون أن تودع «جان كلود»، ودون أن تترك له عنوانًا أو رقم هاتف.

وبهذه الطريقة لن يتسنى لها أن تعرف إذا كان يريد رؤيتها ثانية. .. وما هو شعوره نحوها.

اعتصرها الألم مما فعلت، ولم يكن فى حياتها ما يؤهلها لما حدث. كانت تقف على ظهر المركب ذات الخشب الأحمر المطلة على الشاطئ والمحيط، ترنو بنظرها إلى المكان، الذى رأت فيه «جان كلود» للمرة الأولى يبزغ بعرجه من قلب الضباب؛ تحرك شىء ما

على قدميها فجفلت وابتعدت، هل كان سرطان رمال صغير؟ أم خنفساء كبيرة؟ وركضت إليها لتستطلع الأمر: «إنه مصاب يا أمى».

اكتشفت «كريستين» أنه خنفساء سوداء تشبه الصرصور له أرجل عديدة، ويبدو أن شيئًا ما قد حدث له، إذ يبدو أنه قد حدث قطع فى المركز العصبى جعل أرجله تتلوى باهتياج.

اشمأزت «كريستين» ودفعته بقدمها من على ظهر المركب إلى الرمال على بعد عشرة أقدام إلى الأسفل، وتكرر لها «سِسى»: «لماذا يا أمى، إنه مصاب».

لقد كان خطأ، لكنه انتهى الآن.

شعرت «كريستين» بالراحة؛ لأنها عادت ومعها «سِسى» إلى «بوسطن» بعد خمسة عشر يومًا فى «كيب»؛ فقط خمسة عشر يومًا وتبدو كأنها مدة أطول بكثير.

عادت إلى المنزل الضخم المشيد بالطوب الأبيض من عهد الاستعمار الإنجليزى فى شارع «واشبرن»، وتأثرت «كريستين» تأثرًا بالغًا وانفجرت فى البكاء عندما رأت أن زوجها «باركر كالفر» قد وضع ورودا حمراء طويلة فى كل غرفة تقريبًا احتفالا بعودة «فتياته»، واحتضنت «باركر»...

«افتقدناك كثيرًا يا حبيبى».

وفى صباح اليوم التالى تجولت فى غرف المنزل فى الدور العلوى والدور السفلى، وهى راضية عن الأسلوب التى وزّع بها الأثاث؛ إنها ترى أن حياتها مريحة وذات ذوق راقٍ وآمنة.

أهكذا سأمضى ما تبقى من حياتى؟

رأت حشرة كبيرة، عنكبوتًا أو خنفساء، فى ركن من السقف العالى، وأصابتها صدمة واشمأزت حتى اقتربت ورأت أنها مجرد بقايا شبكة عنكبوت أغفلتها القائمة على تنظيف المنزل.

كانت «سِسى» مشاكسة ومضطربة فى الأيام القليلة الأولى بعد العودة، فقد افتقدت المحيط والشاطئ واللعب فى المنتجع مع الأطفال الآخرين، وجذبها أبوها وأجلسها على رجليه وقبّل خديها المتورّدين، وسألها ثانية عما إذا كانت قد افتقدته، وردّت عليه «سِسى»: «نعم يا أبى افتقدتك جدًا» وكانت تقهقه وتتملص من يديه وتصرخ فرحًا وهى تهرب منه : «ولكنى أفتقد المكان الذى كنا فيه أيضًا يا أبى! وأفتقد «جان كلود»».

«سِسى» تنطق الاسم «جن كلو».

وتساءل «باركر» عمن يكون «جن كلو»، وقطبت «كريستين» جبينها كأنها تحاول التذكر، وفكّرت أن تقول إنه طفل الجيران أو حتى كلب، لكن «باركر» وزوجته سيزوران آل «روبنز» فى الخريف وقد تربكها

كذبتها، وتقول «جان كلود»! إنه مجرد رجل فرنسى من أصدقاء خالتى، فلها كثير من الأصدقاء».

(١٦)

اتصلت «كريستين» بخالتها فى «روكى هاربر» لتشكرها على حسن ضيافتها مرة أخرى.

ولأن «كريستين» مرحة ولبقة كما تعرفها خالتها، فقد سألت عن أحوال عدد من الناس، الذين قابلتهم فى «كيب»، وسألت بشكل عابر عن «جان كلود» باعتباره «صديقك المترجم».

وقالت لها «بتسى» إنها لم تره كثيرًا فى الآونة الأخيرة، وأنه كان يقيم مع صديق له فى «روكى هاربر»، وهو الآن مع صديق آخر فى «بروفنستاون»، ثم قالت: «أنت تعرفين كيف تكون أحوال الرجال مثله».

وتسألها «كريستين» : «رجال مثل ـ ماذا؟»

«رجال شواذ جنسيًا». ..

لكن «جان كلود» ليس شاذا!.

وسمعت «كريستين» نفسها وهى تسأل ببراءة: «هل «جان كلود» شاذ ؟ لم أكن أعلم».

وقالت «بتسى» ضاحكة: «نعم يا عزيزتى، بالطبع «جان كلود» شاذ جنسيًا، ولكنى أعتقد أنه مزدوج جنسيًا أيضًا، أظن أنها الكلمة الصحيحة، أى يمارس علاقات جنسية مع رجال ونساء أيضًا، ومعرفة ذلك

مسورة على أناس مثلى أنا و«دوجلاس»، ونتفهم أن طريقتهم فى الحياة".

ارادت «كريستين» أن تنهى المحادثة، لكنها لا تستطيع أن تقطعها بطريقة مفاجئة.

واستمرت «بتسى» فى الحديث وقالت وهى تخفض صوتها: «أصبح من المؤكد أن المسكين «أوستن دى بارما» كان شاذًا، و قيل إن صديقه السابق ذلك الخسيس «تريم» مزدوج جنسيًا أيضًا. يا لها من ميتة بشعة أن يموت مخنوقًا! أن يخنق الإنسان إنسانًا يحبه»، وتوقفت «بتسى» لبرهة وتنهدت، ثم تابعت: «أشكر الرب أن «تريم» هذا فى السجن الآن، وقد أنكر كل شىء بالطبع وأصر أصدقاؤه أنه كان معهم فى وقت حدوث الجريمة، واستطاع إثبات عدم وجوده فى مكان الجريمة، لكنه لم يستطع تخطى جهاز كشف الكذب، وسمعت أنه مدمن للهيروين، وقد أدرج فى قائمة الممنوعين من السفر وقدّرت كفالته بحوالى نصف مليون دولار ولن يدفعها أحد، وبرغم ذلك فالشرطة تواجه صعوبة العثور على دليل دامغ يؤكد صلته بالجريمة، ونعتقد جميعا أنه يجب الاستعانة بمزيد من رجال المباحث المتمرّسين، فنحن متخوّفون أن يطلق سراحه مثل كثير من القتلة، وحينها لن يشعر أحد منا بالأمان».

وتدبرت «كريستين» أمرها وقالت: «لكن رجلا مثله لن يؤذيك يا خالتى «بتسى»، فهو ليس فى علاقة عاطفية معك».

عندما انتهت المكالمة شعرت «كريستين» بالخواء والاكتئاب.

كم كانت امرأة جميلة منذ أسبوع واحد فقط!

(١٧)

أسرّت «كريستين» لنفسها : «أنا أحبه» .

الرجل الذى تزوجته وأبو طفلتها التى تعشقه، إنه رجل طيب وعطوف. .. ويكسب، كعادته دائمًا، كثيرًا من المال لنفسه وللآخرين (عندما ولدت «سِسى» أمّن «باركر»على نفسه، فى خطوة متهورة، بمبلغ مليونين من الدولارات)، وهو يحبها.

كثيرًا ما تحكى «كريستين» لـ «باركر» عن الأسبوعين اللذين قضتهما فى «كيب»، لأنها لا تريد إثارة شكوكه، لكنها لا تستطيع مقاومة تذكّر تلك الأيام. حدّثته أنها و «سِسى» افتقدتاه وأن العمل المتواصل بلا انقطاع سيعود بالضرر عليه، وتقترح عليه الحصول على إجازة قصيرة لبضعة أيام، رغم أنه شهر سبتمبر، وأن يذهبا إلى «روكى هاربر». .. ويرد «باركر» ليطيب خاطرها : «حسن، ربما أستطيع ذلك، إذا كان الأمر يعنى لك الكثير»، وتسأل «كريستين»: «ربما ماذا؟»، ويجيبها : «ربما أحصل على إجازة عندما تستقر أمور العمل خلال أسابيع قليلة».

أنت من تركنى أذهب وحدى، إنه خطؤك وأنت الذى تسببت فيما حدث.

تود «كريستين» أن تشعر برغبة جنسية تجاه «باركر»، وبعد أن عادت إلى المنزل انتابها إحساس انها لم تغادره أبدا، كأنما دفن جسدها فيه ولم يخرج أبدا.

وتذكرت القطط الجائعة وهى تهرع نحو الطعام منحّية إحداها الأخرى عن طريقها، وتأكل بسرعة ونهم ولكن دون متعة، هو بالنسبة لها مجرد طعام يسدّ الجوع.

فى الحقيقة أن «باركر كالفرش أيضا رجل يكتنفه الغموض، فلم يهتم أن يخبر «كريستين» بالكثير عن زواجه الكارثى السابق، ولم يتحدث معها بإسهاب قط عن انفطار قلبه على ابنه الذى يعانى من الاضطراب العاطفى، رغم أن «كريستين» تعرف أنه يتحدث مع ابنه أو مع الأطباء المعالجين (ومع ذلك لم يقم «باركر» بزيارة ابنه فى مؤسسة العلاج أبدًا، والابن لا يرغب أن يرى أباه، حيث يصبح شديد الانفعال وعنيفًا لدى رؤيته لوالده)، كانت زوجته السابقة غامضة أيضًا، قال لها «باركر» مرة: «كانت مجرد غلطة يا «كريستين»، فقد تزوجنا ولم نزل صغارًا، ولم اكن قد قابلتك بعد»، لا تريد «كريستين» أن تعتقد أن زوجها يمازحها كما يمزح مع «سِسى» عادة.

إنه يريد أن يحمينى، ولابد أن أترك الأمر عند هذا الحد.

ولكن «باركر» له جانب فيه قسوة وتعنت بما هو غير متوقع فى شخصيته، فهو لطيف ولبق فى

المناسبات الاجتماعية خاصة مع النساء، وتعرف «كريستين» أنه مختلف تمامًا كرجل أعمال. عندما كانا يعيشان معًا فى بداية علاقتهما فى «بيكون ستريت براونستون»، تعرض «باركر» للضرب فى إحدى الليالى خارج محطة قطار «بوسطن» حين كان عائدًا من رحلة إلى «واشنطن»، لأنه رفض أن يترك حقيبة يد كانت «كريستين» قد أهدتها له، حيث ضربه شابان على رأسه وسقط مضرجًا فى دمائه على الرصيف المغطى بالثلوج، وتشبث بالحقيبة بكلتا يديه عندما قام المعتديان بجرّه بضع ياردات قبل أن يتركاه ويهربا.

وحين علمت «كريستين» بالأمر لم تصدق : «لم فعلت ما فعلت بنفسك يا «باركر»؟ تضحي بحياتك من أجل حقيبة؟»، احتج «باركر» ورأسه مضمد بالأربطة: «إن المسألة مسألة مبدأ وليست مجرد حقيبة يا حبيبتى»، وقالت له «كريستين» إنها سوف تشترى له كل الحقائب التى يحتاجها ولكن بشرط: «أرجوك لا تتصرف بمثل هذا الطيش مرة أخرى».

ووعد «باركر» أن يفعل ما طلبته منه «كريستين»، قد يفعل.

لكنه بعد الضرب المبرح الذى تعرض له، حصل «باركر» على رخصة حمل سلاح «للحماية المنزلية»، وكانت «كريستين» تخاف منه، فهو مسدس صغير «كاليبر ـ ٢٢» ذو يد خشبية لامعة ارتعبت من مجرد

ا... ها ناهيك عن حمل المسدس، ووبخها «باركر» قائلا: «يومًا ما ستكونين مدينة بالامتنان للسلاح إذا ... وحدك فى المنزل واقتحمه أحدهم أو حاول ... حامه، عندها، وسأكون مطمئنًا أنه معك».
... افظ «باركر» على المسدس محشوًا بالرصاص، ... لها كيف تضغط على صمام الأمان لإيقافه أو لا... تعماله. كان المسدس محفوظًا فى أحد أدراج المنضدة الجانبية ونادرًا ما أشارا إلى وجوده، ولكن «كريستين»، وبنوع من الانبهار الطفولى، تفتح الدرج من حين وآخر لترى ما إذا كان مازال موجودًا فى ...انه، لكنها لم تمسكه بيدها ولو مرة واحدة.

لكنها اعتقدت أنها قد تستخدمه لو تطلب الأمر، فى حالة ما إذا تعرضت حياتها أو حياة «باركر» الخطر.

وبعد أن ولدت «سِسى» انتقلا إلى هذه الضاحية المجاورة حيث تقل إلى حد كبير حوادث السطو والاقتحام وجرائم التحرش والاغتصاب والقتل، فكل المنازل كبيرة ومحمية بنظم مراقبة إلكترونية وحراسات خاصة؛ وفى المنزل الجديد تغير مكان المسدس وحفظ فى خزينة مغلقة فى غرفة النوم الرئيسية بحيث لا يمكن أن تكتشفه «سِسى»، وفى ذلك الوقت كانت حادثة الضرب التى تعرض لها «باركر» فى «بوسطن» فى طى النسيان تقريبًا.

والواقع أن «كريستين» لم تر المسدس لعدة سنوات، وتأمل أن يكون «باركر» قد تخلص منه، لكنها لا تنوى فتح الخزينة لتكتشف بنفسها.

لماذا تخشى «كريستين» من المسدس بهذا الشكل؟ ليست لديها أدنى فكرة.

إذا حدث واستعمل المسدس فلا بد من وجود ضحية، ولا بد من وجود من يضغط على الزناد. من سيكون؟

إنها تحاول ألا تفكر فى «جان كلود».

الأيام تمر بطيئة، فأخيرا انقضى أسبوع، لم عشرة أيام منذ عودتها هى و «سِيسى» من «روكى هاربر»، وسوف تبدأ «سِيسى» قريبًا فى الذهاب إلى المدرسة لتلتحق بالصف الأول، وسيكون ذلك سببًا فى انشغال «كريستين».

ترى «باركر» أحيانا يمعن النظر إليها بفضول، ربما يكون قد سألها سؤالا لم تسمعه، أو أنها قالت له شيئا ولم يسمعه تماما.

لقد بدا التقدم فى السن واضحًا على «باركر» فى هذا الصيف، وكأن خيانة «كريستين» له قد أنضبت طاقته، ولا تدرى ما الذى سبّب ما تغيّر فيه، فلم يعد شعره الأبيض كثيفًا وبراقًا كما كان منذ أشهر قليلة مضت، وازدادت الخطوط العميقة فى وجهه المتورّد ورقّ الجلد حول عينيه وفكه الأسفل؛ وتفرّست فيه

..ريستين» وشعرت برعب كالطعنة، ورأت فجأة وجه
. ان كلود» الوسيم، وجلده المشدود وقامته
المشوقة وعينيه العميقتين المثبتتين من طرف خفى
عليها.

«حبيبتى! تعالى وانضمى إلينا!».

(١٨)

فى بدايات شهر سبتمبر، وبعد عودة «كريستين»
بإثنى عشر يومًا حدث ما لم تتوقعه.

دق جرس الباب، إنه هو!

كانت «كريستين» وحدها فى المنزل ولم يكن لديها
خيار إلا أن تفتح الباب، وأطالت النظر بذهول فى
الشاب، الذى ارتسمت على وجهه ابتسامة متوترة
وأسرعت إليه بتهور كأنها تدفعه إلى داخل المنزل
قبل أن يراه أحد، وفى نفس اللحظة دخل هو بسرعة
واغلق الباب وقبض على كتفيها بقوة آلمتها حين بدأ
فى تقبيلها.

لم تكن قبلة ودية، كانت قبلة تؤلم.

إنها قبلة ستستمر لساعات، بالنظر لتنويعات
القبل التى لا تحصى.

«لم تودعينى يا «كريستين»، هل اعتقدت أن
بإمكانك الرحيل وحسب؟ الرحيل عنى ؟».

واعتذرت له «كريستين» وهى تتلعثم بكلمات خافتة
وضعيفة وغير مقنعة، وضحك عليها «جان كلود» وهو

يقف على قدميه ويشدّ جسمه بتلك الطريقة التى توضّح تفاصيل الجسد اللدن العارى، وأخذ يطوف فى غرفة النوم بينما كانت «كريستين» تستلقى مرهقة فوق الفراش المجعد الرطب، على ملاءة بنفسجية اللون من الكتان، وكانت تمعن النظر إليه، حبيبها، «لى عشيق. هل يعقل هذا؟» لم تكن «كريستين» تظن أنها ستتجاوب جنسيًا مع «جان كلود» فى مثل هذه الظروف، لكنها بالطبع تجاوبت، لا يمكن أن يحدث، وبالطبع تفكر ببعض عقلها أنها كانت تعرف أنه آت إليها، وكانت تتمنى حضوره ولا تحتمل حياتها بدونه، وبجزء آخر من عقلها كانت قد بدأت تشعر بالقلق لأن «سِسى» ستصل من المدرسة خلال أربعين دقيقة.

عبّر لها «جان كلود» عن رغبته فى رؤية «سِسى» مرة أخرى، لكن «كريستين» تعتقد أن تلك فكرة غير صائبة.

«ألم تفتقدينى؟ أنت والطفلة الصغيرة ؟».

«بالطبع يا «جان كلود»، «سِسى» تتحدث عنك طوال الوقت، ولكن...».

«لمَ يكن ليعرف».

وتجوّل «جان كلود» بتململ فى غرفة النوم بحركة راقص، كان معجبًا بالأثاث، وتملكه الفضول حول ما يوجد فى هذا الدولاب (أشياء تخص «كريستين») وذاك الدولاب (أشياء تخص «باركر»)، وانتقى ربطة عنق من مجموعة «باركر» الخاصة ونظر إلى شكلها

…ابه وهو يرتديها فى مرآة طويلة وبدا إعجابه بنفسه لا يخلو من وقاحة، وقال لـ «كريستين» وربطة العنق …دلى من عنقه: «أشكرك على هذه يا حبيبتى».

وافترضت «كريستين» أنه يمزح، وقالت: «لا …تقد أن ذلك تصرف صائب يا «جان كلود»، «باركر» …وف. ..».

«باركر» لن يعرف، لديه منها أكثر مما ينبغى»

وألقى «جان كلود» ربطة العنق الحريرية المقلمة بلون أزرق فى اتجاه ملابسه المبعثرة.

أرادت «كريستين» أن تعترض ولكنها ضحكت بدلا من ذلك.

لم يجانب «جان كلود» الصواب، فلن ينتبه «باركر» لفقد ربطة العنق، التى كانت «كريستين» قد أهدته إياها، واحدة من ضمن كثير منها.

وبعدها حاول «جان كلود» فتح الخزينة المغلقة، وأخبرته «كريستين» أنها تحفة صينية ورثها «باركر» عن عائلته وأنها مغلقة دائمًا وفقد مفتاحها. ثم يسأل عن سجادة صغيرة، ويقول هازئًا إن هذه أيضًا تحفة صينية أخرى، ودفع بأصابع قدمه تحتها كقطة رشيقة تثنى مخالبها، «هذا المنزل وهذه الحياة، ألم تكن لديك النية لدعوتى إليه يا سيدة «كالفر»؟» لكنه ليس غاضبًا أو ممتعضًا، ولكنه منبهر بما يرى من رفاهية، وكان وجهه النحيل متوهجًا، وكان شعره

الطويل ينساب متموجا على كتفيه بعشوائية يتألق تحت شعاع الشمس، شعر جسده النحيل وعضوه الذكرى يلمعان، وجلده متورد تدبّ فيه الدماء، كان يتحرك فى غرفة النوم و«كريستين» تراقبه دون أن تنتبه فى بادئ الأمر أنه لا يرتكز على قدمه اليسرى.

وتلعثمت «كريستين» بسذاجة: «هل شفيت. .، قدمك يا «جان كلود»؟ إصابة الرقص. ..؟».

وضحك «جان كلود»، وقال: «حبيبتى ! هذه أمور تأتى وتذهب، هل كنت تعتقدين أن «جان كلود» سيظل عاجزًا مدى الحياة؟».

ثم غمز لها بعينه، وتحدث إليها ببرود وبتهكم بلكنة «بوسطن» وهو يغلق فكيه، ودخل بتبجح إلى حمام «باركر» الخاص ولم يأبه لضرورة أن يغلق الباب تمامًا، وبدأ فى التبول غير مبالٍ بأى لياقة.

وفى تلك اللحظة، تأكدت «كريستين» : «لقد ارتكبت أسوأ خطأ فى حياتى»، كالخنفساء متعددة الأرجل التى قطع مركزها العصبى، وأصاب الشلل كثيرًا من أرجلها.

وفيما بعد، بعد أن غادر «جان كلود» وعادت «سِسى» من المدرسة، حاولت «كريستين» التركيز فى روايات ابنتها عن يومها فى المدرسة، لكن تفكيرها كان مشغولا، ساعدنى يا ربى لأضع الأمور فى نصابها الصحيح.

(١٩)

ان تستطيع، ولا تستطيع، لن تراه مرة أخرى.

وتقول فى صوت متردد: «نعم، بالطبع يا «جان لود»، أريد أن أراك مرة أخرى أيضًا، ولكن. ..».

«أريد أن أرى «سِسى» أيضًا».

كان عنيدًا على الهاتف مثل الأطفال، وهددها أنه يعرف مكان مدرسة «سِسى»، حيث راقبها من سيارته على حافة الطريق.

ازدردت «كريستين» ريقها بصعوبة، وحدثت نفسها بأن ما قاله ليس تهديدًا، وليست سوى ملاحظة أو خبر، وربما كان مختلقًا. يبدو أن «جان كلود» مزعج وأقل ثقة فى نفسه.

وفى غرفة أخرى كانت «سِسى» تتحدث مع أبيها الذى وصل لتوه إلى المنزل، و«كريستين» تتحدث بصوت هامس: «لا أستطيع ترتيب ذلك يا «جان كلود»، كيف يمكننى. .. حياتى...».

«وماذا عن حياتى أنا يا «كريستين»؟ لن تبعدينى عن حياتك».

أبلغها «جان كلود» أنه سيقضى شهر سبتمبر فى «كيب»، حيث توفرت له الإقامة فى بيت بالقرب من «بروفنستاون» سافر صاحبه إلى إيطاليا، وتوفرت له أيضا سيارة «جاجوار» تحت تصرفه؛ أخبرها بتلك المعلومات اللافتة للنظر دون اهتمام كأنها أشياء بلا

قيمة، كما لم يشر إلى شخصية الصديق وصاحب الفضل فى ذلك، رجل أم امرأة.

تذكرت «كريستين» : عشيق، أو عشاق.

كان السؤال يدور بخلدها، ولكن «كريستين» لم تسأل إذا كان «جان كلود» عاشقًا من عشاق القتيل.

ثم قال لها وقد نفد صبره : «لابد أن نكون معًا يا حبيبتى، أنت تريدين ذلك أيضًا».

واعترضت «كريستين» قائلة : «لا أستطيع الحضور إلى «كيب»، فالوصول إليها يستغرق عدة ساعات، و«سِسى» تذهب إلى المدرسة الآن، وحياتى. ..».

«إذًا دعيها تترك المدرسة لمدة يوم، وسأحضر إليك».

«ليس هنا، ليس فى هذا المنزل».

توقف لبرهة، وظل «جان كلود» صامتًا تمامًا.

بالطبع فى هذا المنزل، إذا كانت هذه رغبته. ..

لكن «جان كلود» يقول: «أين إذًا ؟».

وتمتمت «كريستين» باسم أحد فنادق «بوسطن» الفخمة؛ مكان عام.

لن أفعل، لابد أن يفهم.

حياتى ليست ملكى الآن حتى أتناساها وألقى بها.

هنا كانت «كريستين» تلبس نظارة سوداء، وتخفى شعرها تحت قبعة وتتقدم إلى ردهة فندق «فور

...رونز» وتحجز فى مكتب الاستقبال، ولم تجرؤ أن ...خدم كارت الائتمان للدفع واضطرت كرها أن ...د المبلغ نقدًا.

تتحدد طبيعة العلاقة الغرامية بوضوح عندما ..رك أنك من يدفع الثمن.

لكن ذلك أفضل، فلقاء العشاق فى الفنادق الفخمة أمر عملى وواقعى، فالفنادق الفخمة لا تجعل من ممارسة الحب عملية وضيعة، فالوسادات مترفة وأغطية الفراش من قماش الساتان الفاخر، ووميض الحمامات البيضاء يتصل فى حلقات من الأضواء تشبه أنوار عيد الميلاد.

وصلت «كريستين» أولا ووصل «جان كلود» بعدها بساعة، مرّ فى خاطرها أنها تخافه وتكرهه، لكنهما اندمجا بجوع ونهم حين التقيا، وتذكرت «كريستين» القطط البرية، التى تهرول إلى الطعام، ثم توقفت عن التفكير.

أنا أحبه، خرج الأمر عن السيطرة.

بعد الجولة الأولى من ممارسة الحب، وبعد أن ذهب «جان كلود» إلى الحمام، قامت «كريستين» بإحكام إغلاق الباب ووضعت سلسلة الأمان.

وللمرة الثانية يمشى «جان كلود» بشكل طبيعى دون أى علامة للعرج، كان يمشى عريانا دون خجل كأنه طفل.

تقرر «كريستين» أنها تفكّر فيه بسخافة، لا يمكن أن يكون قاتلا أو أن يقوم يخنق أحد، ليس «جان كلود».

وضع أصابعه على حلقها يتتبع شريان الرقبة أسفل الفك، وتشاركا فى سيجارة ماريجوانا أحضرها «جان كلود» معه من «بروفنستاون»، وانطلقا إلى حيث اللاوعى، وتملكهما إحساس مراهقين طائشين هربا من المدرسة. ارتعشت «كريستين» من المتعة بينما كان «جان كلود» جاثمًا بوزنه فوقها، وتشعر بجسدها يتفتح له وهما يتباعدان عن بعضهما، وكانت تضحك رغم خوفها، فهى تشعر بالفزع ولكن يديها تلاطف ظهر الرجل النحيف وتتشبث به وبأجنابه وبردفيه اللذين يتحركان كالمضخة ببطء، وتلف ساقيها حوله وتعتصره بفخذيها وهى ترفع رأسها لتتبادل معه القبلات، وبدا وجهها متوترًا وملتويًا وقبيحًا بما ارتسم عليه من شبق، وضغطت بشفتيها على شفتيه بشراهة وتداخلت ألسنتهما، والتفت أصابعه برفق حول حلقها ثم بقوة ثم برفق مرة أخرى عندما تبدأ هى فى الاختناق والمقاومة، «أنت تعرفين ما يمكن أن أفعله إذا أردت، وما يمكن أن أفعله لا يمكنك منعه»، وينثنى ظهر «كريستين» كالقوس وهى فى حالة من الخوف، ومن الشهوة. إنها لا تريد أن تتوقف أبدًا، وتفكر فى حالها لو لم يكن هناك شخص آخر فى حياتها يرغبها، لو أن زوجها يختفى فستنعم دائمًا بما تفعله

... وستحب «جان كلود» دائمًا كما الآن، فى كل
... ما تفعله الآن.

... «كريستين» بدموع ساخنة تتدفق كحمض
... وهى على شفير الهذيان.

... حدث لم يكن فى تلك المرة بفندق «فور
...رونز»، ولا المرة التالية فى «ماريوت»، ولكن فى
الأ...بوع التالى بفندق «سويس أوتيل بوسطن»؛ فبعد
...ارسة الحب والانتهاء من احتساء زجاجة شمبانيا
...املة تقريبًا من المينى بار، انحنى «جان كلود»
...مرفقه على «كريستين» ووضع بطن كفه على رقبتها،
...انه يهدئ من روع حيوان مهتاج، قائلا: «كم تبلغ
...رمته يا حبيبتى؟ «باركر» هذا؟».

(٢٠)

هنا، لم يبرح «جان كلود» مخيلة «كريستين».

إنه الوقت الدافئ الرطب من سبتمبر فى «بوسطن». عندما كانت «كريستين» تتحدث مع الآخرين، فهى تحدث «جان كلو» فى مخيلتها، حتى عندما تعطى انطباعًا أنها تمارس حياتها بشكل «طبيعى» وأنها «عادية»، وهى تبتسم أوتتحدث اوتصغى السمع أو تهتم بحوار، فإن «جان كلود» هو من يشغل بالها، كأنها امرأة حامل بما لا يعرفه أحد.

«كم تبلغ قيمة الرجل؟ عقاراته؟ بوليصة تأمينه؟».

«لا أدرى يا «جان كلود»».

«إذًا خمنى يا حبيبتى»! .

كانت مشتتة التفكير وهى توصل «سِسى» إلى المدرسة، فلم يكن فى تفكيرها إلا «جان كلود» وذلك الحوار وتساؤلاته ومطالباته، كأنه حلم مستمر على التفسير، ولكنها لم تكن هى الحالمة، فهى فيه لا حول لها ولا قوة، فالرجل فيه يلاطفها ويعانقها، ويضع كف يده على حلقها برفق، ويمنحها متعة الرعشة العميقة لممارسة الحب معه، وبين فينة وأخرى تجيب على «سِسى»بآلية إجابات مبهمة: «نعم يا حبيبتى»، «لا، لا أدرى»، ورأت - أو تخيلت أنها رأت - فى مرآة سيارتها الجانبية سيارة جاجوار خضراء لامعة تتبعها على مسافة قريبة منها.

لقد رأت «كريستين» هذه السيارة أكثر من مرة، أو تخيلت أنها رأتها.

ورغم ذلك فهى لا تعتقد أن فى الأمر تهديدًا، فلا يمكن أن يفكر «جان كلود» أن يؤذيها أو يؤذى «سِسى».

إنها لم تخبر «جان كلود» أن «باركر» قد أمّن على حياته بمليونين من الدولارات، وقالت إنها ليست على بيّنة بهذه الأمور وهى ليست الشخص، الذى يرغب فى معرفة مثل تلك الأمور ولا تريد معرفتها.

«إذا حاولى أن تعرفى يا «كريستين»، نحتاج أن نعرف».

ماذا إذا...؟!، إذا حدث مكروه لـ «باركر» وأصبحت «كريستين» أرملة شابة وحرة... إن «سِسى»

تحب «جان كلود» جدا، وما زالت تسأل عنه باسم «جان كلو»، وتحب أباها أيضًا، ولكن الأطفال يستطيعون التأقلم (كما قال «جان كلود»)، وأسرع تكيفًا مع التغيير من الكبار. فعندما اختفى والد «جان كلود» من حياته، توقف الإحساس بافتقاده بعد فترة.

ولكن ما الذى يمكن أن يحدث لـ «باركر كالفر»؟إن «كريستين» تحبه وترفض التفكير فى أنه قد يحدث له مكروه، أو يصاب.. أو يموت.

لا يمكن أن تفعل ذلك حتى فى سبيل إسعاد عشيقها الجشع، أو حتى إسعاد نفسها.

ربما بالاعتداء، اعتداء وليد اللحظة : يطلق المعتدى النار على ضحيته ويهرب.

هناك طريقة أخرى، حين تكون «كريستين» و«باركر» معا وحدهما على الشاطئ فى «روكى هاربر» او اى مكان منعزل، يقترب منهما غريب ويهاجمهما، ويقع الهجوم على «باركر» الذى يصاب إصابة قاتلة، وتكون «كريستين» هى الشاهدة المذعورة التى تخرج من الهجوم سالمة، وقد يكون السلاح المستخدم فى الهجوم سكينًا أو صخرة ثقيلة، ويغطى المعتدى يديه بقفازات.

لم تستطع «كريستين» أن تستوعب ما تسمعه...

«يدان؟ هل تعنى.. يديك يا «جان كلود»؟».

«ألا تحبين يدىَّ يا حبيبتى؟ أعتقد أنك تحبينهما كثيرًا».

ورفع «جان كلود» يديه كصبى شرير لفحصهما وإبداء الإعجاب بهما، ومدّ أصابعه الطويلة، وللمرة الأولى رأت «كريستين» عدم تناسق أصابعه الطويلة وحجم كفيه الكبير مثل قدميه، فهى غليظة وقبيحة.

«لا، هذا مستحيل، لا».

رفعت «كريستين» صوتها، ونسيت أين هى ونسيت من يجلس بجوارها فى السيارة.

وبصوت مرتعب قالت «سِسى»: «ماذا يا أمى؟ ماذا؟».

(٢١)

نعم، سوف ترينى مرة أخرى يا «كريستين»، سترينني كثيرًا.

أنا امرأة متزوجة وأم، وأحب عائلتى. ..

أنت تحبين «جان كلود»، أنا و «سِسى» سوف نكون عائلتك.

اكتشفت «كريستين» فى داخلها أنها حقًا تحب الأمور الخفية وتحب المغامرة والإحساس بالخطر، كان هذا هو قدرها.

يتقدم الرجل الراقص فى اتجاهها برشاقة ذكورية دافعها هو الشعور بالقوة والإلحاح الجنسى، «سوف ترينى مرة أخرى، كثيرًا».

تشعر «كريستين كالفر» بالتميّز وسط أمهات ا ادات، لكنهن لسن صغيرات فى السن، فى مدرسة «سسى»، وبعض هؤلاء النسوة صغيرات السن جدًا و مميلات جدًا، ومن الواضح أنهن زوجات لرجال حققوا نجاحًا بارزًا فى أعمالهم، ولكن «كريستين» هى المرأة، التى تتخذ عشيقًا فى الخفاء، والمرأة الوحيدة بين هذا الحشد السعيد والأصوات المبتهجة التى ليس لديها أدنى فكرة عما سيحدث لها أو بسببها فى المستقبل القريب.

«أمى! هل أنت حزينة؟ لماذا أنت حزينة ؟».

«لست حزينة يا «سِسى»، لماذا تقولين ذلك ؟».

«يبدو عليك الحزن يا أمى»، وتنحنى «سِسى» بجوار أمها وتتظاهر أنها تمسح بأصابعها خطوط القلق من جبين أمها، خطوط القلق التى لم تتنبه «كريستين» لوجودها.

(٢٢)

تنام «كريستين» نومًا متقطعًا، وتستيقظ قبل الفجر وهى بجوار زوجها النائم، وتدرك أن هذا الرجل هو الجدير بثقتها وليس الآخر، و«باركر» أيضًا يثق بها وهى على يقين أنه يأتمنها على حياته. إنها تستمع إلى أنفاسه، أحيانًا ما تسمع صوتًا حادًا وحشرجة فى حلقه، تهزه باستراتيجية زوجة وتديره لينام على جنبه وليس على ظهره، وبجانب عينها

(ترفض أن تنظر) تتخيل فى الجانب البعيد من غرفة النوم هيئة تنتظر فى الظلال .

ما من سبيل للطلاق، فلماذا تطلب الطلاق من «باركر كالفر» الذى تحبه؟

ما من سبيل للطلاق لأن «كريستين» تعرف أنها ستفقد حبيبها نافد الصبر أثناء إجراءات إتمام الطلاق، ولن يتبقى لها تأمين على الحياة ولا ميراث هائل.

مستحيل! لن يحدث شىء من هذا.

مثل هذه الأشياء لا تحدث لزوجين متوافقين مثل السيد «كالفر» وزوجته اللذين يسكنان فى ٢٨٨ شارع «واشبرن - بوسطن».

استيقظ «باركر» كأنما أقلقته أفكار «كريستين» المتدفقة، وقبلته هى كشعور بالذنب حين رأت جفنيه يرتعشان، فقد كان نصف نائم لكنه شعر بسعادة. فقد أساء فهم اهتمامها - وبادلها القبلة، وكانت «كريستين» تأمل ألا يرغب فى ممارسة الحب معها. .. كانت تعرف الفارق الشاسع بين ممارسة الحب بين زوجين اقترنا منذ زمن بعيد وممارسته بين عاشقين، فليس فيه إثارة أو تجديد أو إحساس بالخطر، وليس هناك مخاطرة أو مفاجآت، فقد أصبحا زوجين متحابين مثل «كريستين» و «باركر» أصدقاء، بعكس «كريستين» و «جان كلود» اللذين لم يعرفا عن بعضهما إلا النذر اليسير، وأنهما عاشقان.

، لاطف «باركر» زوجته «كريستين» بحنان وهو لا
ي!!، شبه نائم، ويهمس لها أنها جميلة. كانت كلماته
، الوءة ومريحة، نوع من الطقوس تريد «كريستين» أن
ت..فه، وحاولت أن تستجيب بطريقة طبيعية وعادية
ا، لاطفته، إن «باركر» يريد ممارسة الحب، ولن
ت‍ء‍اه يشعر أنها غير راغبة فيه، وكانت قد أخبرت
، جان كلود»: «ربما لا أكون عاشقة له، لكنى أحبه!»،
ومع ذلك، وفى ذروة ممارسة الحب غير المتوقعة
ه‍ه‍ما فى الصباح الباكر، شعرت «كريستين» أن
عقلها ينجرف عن هذا الزوج الطيب التقليدى وهى
بين ذراعيه، وحاولت أن تستحضر القدرة على
التظاهر بالاستمتاع (يعلم الله كم حاولت)؛ وسألها
«باركر» وهو متضرر أكثر منه منزعج : «هل تشتت
عقلك بشىء يا «كريستين»؟»، وتمتمت «كريستين»
بقولها «لا! لا!»، وتقطعت أنفاس «باركر» وأصبح
جسمه دافئًا، و «كريستين» تتلوى بضيق تحت وطأة
وزنه الثقيل، فهو أثقل كثيرًا فى وزنه من «جان كلود»،
وبحركة غير ملائمة وضعت كف يدها على صدره
اللحيم وشعرت بدقات قلبه المتزايدة.

إنه عجوز، رجل عجوز، أما حبيبى فهو شاب.

وانفجرت «كريستين» فى البكاء.

«ماذا يا «كريستين»؟ أخبرينى».

وهكذا قالت له وهى بين ذراعيه :

سمعت نفسها تقول إنها تفتقد المحيط، والجمال البكر في «كيب»، وأنها تشعر بإحباط عندما تتخيل الأوقات الرومانسية التي كان من الممكن قضاؤها معًا في الشهر الماضي، بينما كان هو وحيدًا في «بوسطن» مشغولا بعمله، ولم يحصل على إجازة واحدة لعدة أشهر: «كأننا لسنا فاحشي الثراء بالفعل!»، وكان «باركر» أثناء حديثها يربت على كتفيها وشعرها، فقد فاجأته عواطف «كريستين» الجياشة، فلم يحدث أبدًا أن تبادلت معه الحديث بمثل هذا الصدق، وأخبرته «كريستين» أن «سِيسى» تفتقده أيضًا، ونادرًا ما تراه، وكان الوقت الذي قضياه في «روكي هاربر» كئيبًا بالنسبة لـ «سِيسى» لأن أباها لم يكن معها؛ وكلما استطردت «كريستين» في الحديث اقتنعت بصدق ما تقول، فحقيقة الأمر أنها تتميز غضبًا من «باركر»، لو كنت جئت معنا، إذا كنت اهتممت بأسرتك، لم يكن ليحدث أيّ مما حدث، ولم أكن لأقع في براثن شخص خطر. ولكن حماس «كريستين» كان طفوليًا، وكانت تتحدث ببراءة: «في وقت مبكر من الصباح كنت أنا و «سِيسى» نمشي على الشاطئ، ومحاولة إعادتها إلى البيت كانت صعبة! فأنت تعرفها، ولكني أحيانًا كنت أمشي وحيدة لعدة أميال على الشاطئ في اتجاه الشمال أو بعيدًا عن الشاطئ على الكثبان الرملية، وكنت أجد نفسي أفكر فيك يا حبيبي، وفي زواجنا، وكم أحبك وكم أدين لك، وأقلق عليك أحيانًا، أقلق على صحتك وعلى عملك

الم... تمر بلا انقطاع. كنت محتاجة إليك فى «روكى ماور» لتكون معى فقد كنت وحيدة»، وتأثر «باركر» الامها تأثرًا بالغًا، واحتضنها بقوة وتمتم: «حبيبتى - ريستين»، لم أكن على علم بكل هذا».

وأغلقت «كريستين» عينيها وشعرت بارتياح لضمّها إليه! هو من سيحميها، وهو من سينقذها.

رأت «كريستين» نفسها تمشى على حافة الشاطئ، والغوص بقدميها العاريتين فى الرمال الندية ويعبث الهواء بشعرها تملؤها السعادة والارتياح. وعلى مسافة قريبة، معتمة بالضباب ورذاذ البحر، تظهر صورة مظللة لرجل شاب يعرج خفيفًا طويل الشعر وغريب لم تقابله من قبل، وكان يحمل شيئًا على كتفيه، هل كانت حقيبة ظهر؟ لأول مرة انتبهت «كريستين» أنها لم تتساءل عما بداخل تلك الحقيبة.

وجلس الشاب الغريب القرفصاء على الشاطئ، وغسل يديه وذراعيه ووجهه، وانتبهت «كريستين» أنها لم تتساءل مم كان ينظف نفسه.

كان «بياركر» يقول بشغف: «لماذا لا نذهب إلى «كيب» فى نهاية الأسبوع يا حبيبتى؟ أشعر بذنب كبير وبالحماقة بعد ما أخبرتنى به. سأحصل يوم الجمعة على عطلة وسيكون لدينا ثلاثة أيام، ثلاثتنا، وقد انتهى عيد العمال وبدأ موسم الإجازات، وأفضل ألا نقيم لدى أقاربك هذه المرة، فلم لا نقيم فى فندق؟ سأحجز لنا مكانًا يطل على المحيط فى

«بروفنستاون»، ما رأيك يا حبيبتى؟ هل يبدو ذلك رومانسيًا؟».

وحركت «كريستين» شفتيها بسعادة قائلة: «نعم يا «باركر»، لا أستطيع تخيل ما هو أكثر رومانسية من هذا».

(٢٣)

فليساعدنى الرب لأضع الأمور فى نصابها الصحيح.

وذهبت عائلة «كالفر» إلى «كيب كود» فى الأسبوع الأخير من شهر سبتمبر، وحدث أن «كريستين» أخذت «باركر» لجولة على الشاطئ فى وقت الغسق فى ليلتهم الثانية قبل تناول العشاء، وكانا قد استمتعا بغذاء فاخر قبلها ببضع ساعات فى «بروفنستاون» حيث يقيمان فى فندق صغير يطل على المحيط الأطلنطى.

وبرغم عزوفهما عن الإقامة لدى آل «روبنز»، فإن الزوجين المسنّين يقومان برعاية «سِسى» أثناء الليل، ليتمكن «باركر» وزوجته من قضاء أمسيات رومانسية وحدهما.

كانا يمشيان وأياديهما متشابكة كالمحبين الشبان تهب عليهما نسمات قوية من الهواء الرطب.

وحين تراهما قد تتعجب: هل هذه ابنة ذلك العجوز الأنيق قوى البنية؟

تمشى «كريستين» بخفة وهى تبتسم، ومعروف عنها أنها تأتى بحركات متكررة دون انتباه، فقد نظرت إلى ساعة يدها لترى الوقت عندما تركا الفندق، ولكنها لن تنظر إليها ثانية.

كان الهواء باردًا بعد أن أمطرت السماء، لكنه كان منعشًا بشكل رائع، وكان المنظر العام جميلا، وكذلك شكل الأمواج المتعاقبة والزبد الأبيض يغطى قمتها. كان «باركر» يرتدى سترة ذات لون كاكى من قماش الجينز وقبعة على رأسه، وكان مبهورًا بجمال المنظر فى «كيب كود»؛ كان سعيدًا أنه على قيد الحياة، وكان سعيدًا أنه جاء إلى هنا أخيرًا، كما كان ممتنًا لـ«كريستين» أنها اقترحت هذه الرحلة.

سأتولى هذا الأمر يا حبيبتى.

أنت تعلمين أن هذا هو ما تريدينه أنت أيضًا.

كانت «كريستين» قد أخفت فى جيب الجاكت المسدس «كاليبر - ٢٢» الصغير والمنمق والثقيل، فقد وجدت «كريستين» مفتاح الخزانة الصينية وفتحتها، وها هو معها الآن.

يومًا ما ستكونين ممتنة جدًا للسلاح، وسأكون مطمئنًا لأنه معك.

وفحصت «كريستين» المسدس وحاولت تجريب استخدامه وهو فى أصابعها المهتزة، أكان محشوًا بالرصاص؟ هل سيطلق الرصاصات؟ لم تطلق من

ذلك المسدس طلقة واحدة منذ سنوات، على الأقل حسبما تعرف.

إنها فرصة لابد أن تقتنصها، فلا خيار لها.

ستقول بصوت متقطع، فيما بعد، لتفسير ما حدث أنها كانت تخشى أن يهاجمهما أحد فى هذه الرحلة إلى «كيب كود» فى مثل هذا المكان المنعزل، وفى موسم يقل فيه الرواد، وستقول أنها مازالت تذكر جريمة القتل، التى وقعت فى «روكى هاربر» ولم ينته التحقيق فيها بعد، وستقول إن «باركر» اشترى المسدس بعد أن هاجمه البعض فى «بوسطن» منذ تسع سنوات مضت، وأنها لم تكن لتنسى الحادثة أو الصدمة، وستقول إن «باركر» لم يكن يعرف أنها أحضرت المسدس معها وإلا كان سيعترض، وكان سيحاول إقناعها أن مخاوفها لا أساس لها من الصحة.

فى ظهيرة ذلك اليوم، تناولت عائلة «كالفر» طعام الغذاء معًا فى مطعم للمأكولات البحرية على رصيف ميناء «بروفنستاون».

كان «باركر» فى مزاج عاطفى، ويشرب النبيذ احتفالا بمناسبة وجوده مع فتاتيه الجميلتين «كريستين» و «سِسى»: «فلتعرفا أنكما أسعدتمانى كثيرًا».

ضحكت «كريستين» واحمر وجهها خجلا، وارتبكت «سِسى» وأخفت وجهها واسترقت النظر إلى أبيها من بين أصابع يدها.

وذهبت «سِسى» مع الخـــالة «بتـــسى» والعم «وجـلاس»، وهى غالبًا تشاهد الآن فيلم فيديو نردها أو مع كليهما، أو تقرأ بصوت عالٍ أحد كتبها ن القطة المتكلمة، أو ربما يتناولون عشاءً خفيفًا فى رفة الطعام المطلة على الشاطئ. عندما أخبرت «كريستين» «جان كلود» أنها ترتب لذهاب «سِسى» إلى ال «روبنز» فى الليلة الحاسمة، أخبرها أنه كان يفكر فى ذات الأمـر، أين ستـذهب «سِسى» تلك الليلة؟: «اترين كم تتشابه أفكارنا يا حبيبتى؟» كان قد قالها بنفس النبرة الباردة المتهكمة التى يتميز بها سكان «نيو إنجلاند».

لم تكن «كريستين» فى حاجة إلى أن تحث «باركر» على الخروج للمشى، إذ يبدو أنه كان منتشيًا بالهواء البارد قابضًا على يدها بقوة، وكانت هى تفكر فى كلمات «جان كلود»: سأكون منتظرًا، أحضريه ثم قفى بعيدًا ولا تتكلمى، وستعرفين عندما ينتهى كل شىء. كانت هناك كائنات ذات فراء تجرى بخطوات مسرعة فى ظلال التلال الرملية، وظنّ «باركر» أنها فئران، لكن «كريستين» قالت: «لا، إنها قطط برية وهذا مكان تجمّعها، ويعيشون قريبًا من هنا، وبعضها جميل جدًا».

وعلى مرمى البصر كان الشاطئ يبدو مهجورًا، فالرمال ندية ومتحجرة وآثار زبد الأمواج واضحة على الشاطئ، والسماء ملبدة بسحب ثقيلة منذرة

بسقوط أمطار، وكانت الأمواج العالية ترتطم بالشاطئ وتغطّى الصخور الكبيرة برذاذها بصوت كالانفجار؛ ودموع تتسال على خدى «كريستين».

وقال «باركر»: «أنت تشعرين بالبرد يا حبيبتى، من الأفضل أن نعود».

وتقول «كريستين»: «لا، لا نستطيع أن نعود».

ملاك الحنق

حين رأيتها للمرة الأولى، عرفت أنه سيكون لى معها شأن...

كانت تعبر المتنزه وتدفع بعربة طفل أمامها، حيث كان قد تم استدعائى إلى ذلك المكان بسرعة قبل أن تتوقف أجراس الكنيسة عن الرنين، وكان من النادر أن ألبى أية إشارة الآن لأنى أصبحت راشدًا، اذهب! اذهب إلى حيث يحتاجك الآخرون يا «جيلياد»، وفى رقعة تغمرها حرارة الشمس حيث قطعت أشجار الدردار، رفعت يدها لتحمى عينيها وهى مقطبة الجبين وتغمض عينيها نصف إغماضة، ونبهتنى حركتها إليها والتقت عينانا وابتسمت هى، فقد ادركت أنى لست غريبًا.

لم أتتبعها حينذاك ولم أحاول متابعتها أبدًا، لكنى كنت منجذبًا فى أثرها كقصاصة من ورق تذروها

الرياح؛ وأحنيت رأسى وتابعت المسير فى المتنزه الحقير، الذى يسمونه حديقة «باتريوت» العامة، وأصابنى الخجل واعترتنى البهجة ونظرت إلى أسفل، وشعرت بالارتياح لأنى أعرف أننا سنتقابل مرة أخرى، وسيعرف كل منا الآخر دائما.

وإذ رأيتها فى اليوم التالى، عرفت أنه سيكون لى معها شأن. ..

رأيتها مترددة وهى تحاول رفع مقدمة عربة الأطفال على درجات سلم المكتبة التى كانت من حجر رملى تآكل بعضها، ويبدو أن أحدًا من المارة لم يلحظ هذه الأم الشابة، وتسللت كالقط حتى وقفت إلى جوارها وعاونت ساعديها الرشيقين فى رفع العربة فنظرت إلى بذهول وامتنان وقال لن: «أشكرك!» ونظر إلى الطفل القابع فى العربة، واتسعت عيناه الزرقاوان كأنه تعرّف علىّ. إنه يعرف أيضًا، ولم أستطع الكلام بسبب إصابة فى حلقى، كما لم أجرؤ على التركيز فى وجهها، ولم أبتسم كما يفعل الآخرون بسهولة لأنى لم أثق فى فمى الذى يرتعش فجأة ويلتوى كأنه كائن حى، ولكونى طويلاً جدًا فوقفت ألوّح لهما ببلاهة، فماذا لو انزلقت وتعثرت وآذيتهما بدون قصد منى؟ ومثل رجل أعمى، أسرعت بالدخول إلى المكتبة قبل أن تدخل هى ولم أنظر ورائى (أعرف أن وجهى قبيح مشوه بالبثور والحروق)، وكنت ألهث ككلب أجهده الجرى، وكنت أشغل نظرى فى عناوين بعض الكتب

المسموعة وكتب الشباب، ورأيت رفا امتلأ بكتب جديدة ولامعة الأغلفة، ولكن الكلمات التى كتبت عليها أحبطتنى لأننى لم أستطع نطقها بصوت مرتفع، وسمعت ضجيجًا فى أذنى لأن أخصائيى المكتبة قد يعرفون علىّ. لم أدخل مثل هذا المكان مذ كنت فى المدرسة الثانوية عندما كانوا يفرضون علىّ أن أذهب، ونساء مثل هذه كنّ يطلن النظر إلى وجهى، اشد كنّ مدرساتى وكن ينظرن بكراهية قبل أن أفقد صوتى، وحتى حينذاك كنت خجولا، إنك لا تحاول يا «جيلياد»، لأنى ذات مرة أمسكت الكتاب قريبًا من وجهى، لكنى أغلقت عينىّ بإحكام، وأطبقت أسنانى على بعضها البعض وأظهرتها:

إذا لم تحاول فكيف ستقرأ؟

وإذا لم تقرأ فكيف ستكبر؟

وإذا لم تكبر فكيف ستعيش؟

رأيت فى الحلم أنى ذاهب إلى ثلاث نساء تحملن ثلاث سكاكين، وأيدى السكاكين منحوتة من خشب صلب داكن اللون، وفى داخل الخشب قلب صغير ينبض، وعندما تقبض على يد هذه السكاكين وتحكم اصابعك عليها تشعر بنشوة رهيبة وقوة تنصبّ فى ساعديك وتنتقل إلى قلبك.

لقد سميت «جيلياد»على اسم مكان مقدس (*).

(*) Gilead Mount : جبل الجليل الذى يقع فى الشمال الغربى من الأردن، وهو أيضًا اسم المنطقة التى تقع إلى الشرق من نهر الأردن والبحر الميت (المترجمان).

أمى هى التى أسمتنى «جيلياد»، كان وجه أمى منيرًا كشمس ساطعة.

«جيلياد»، يجب ألا تخبر أحدًا أبدًا»، لم تكن أمى تحتاج أن تأمرنى بذلك، فأنا لم أخبر أحدًا حتى الآن، ولن أفعل.

أرتدى فوق رأسى قبعة بيسبول، وعلى القبعة رسمة وجه مبتسم.

إنه وجه أصفر مستدير مثل قرص الشمس، عليها نقطتان هى العينان، وابتسامته كبيرة وعريضة ويجعلك تبتسم لرؤيته. لقد امتدحتنى د. «كوتون» لأننى «متفائل». فى المرة التالية عندما رأيت المرأة فى حديقة «باتريوت» لم تبتسم لى مثلما فعلت من قبل، واستدارت مبتعدة وهى تدفع عربة الطفل بسرعة؛ لا يمكنك أن تقول لامرأة تتنحى بعيدا عنك «أحبك»، ولا يمكنك أن تقول لها «لقد جئت لحمايتك»، أو «أنا «جيلياد» الذى يحبك».

فى مقابل المنزل البسيط المبنى بالطوب الذى تسكن فيه كان هناك كلب ينبح، كلب ضخم من سلالة عريقة، ويبدو أنه خليط من سلالة كلاب الراعى الألمانى والدوبرمان، وكان طوقه مربوطًا بسلسلة بطول حبل غسيل ليتمكن الكلب من الانطلاق فى اتجاهين، وكان غاضبًا ويريد أن يتخلص من الطوق ليؤذى الأم وطفلها وهما فى طريق العودة لمنزلهما، وقد لاحظت ذلك وأنا فى زقاق على الجانب الآخر

من شارع «سينيكا»، وشعرت بالحنق يملؤنى وأنا أرى مثل هذا المشهد. كنت حينذاك أعمل فى مكتب البريد (خلف المبنى حيث تأتى الشاحنات) وكان عملى ينتهى فى الخامسة مساء، وأثناء ساعات التفريغ والتحميل كنت أفكر فيها، وفى معنى تحيتها وتلويحها لى بيدها فى المتنزه : فقد ابتسمت لى فى المرة الأولى كأنها كانت فرحة بلقاء شخص تعرفه.

كان يبدو أنها نسيت فيما بعد، لكنى كنت أعرف حقيقة الأمر.

حين أكون فى فراشى أثناء الليل، كانت تأتى إلىّ لا لتتحسس جسدى لارتكاب الخطيئة كما فعلت بعض النساء والفتيات، لكنها تأتى لترعانى أثناء نومى، وأحيانًا كانت تحمل طفلها على ذراعها وتفتح ملابسها لترضعه ولكنى لا أرى شيئا حينها، وأصاب بما يشبه العمى لأنه ممنوع علىّ أن أنظر، ولا أستطيع الحركة ولا بد أن أظل بلا حراك؛ كنت أسمع تمتمة باسمى : «جيلياد»، «جيلياد»، ولكننا لم نتبادل كلمة واحدة.

وذات يوم، حين رأتنى لم تبتسم، وضاقت عيناها وارتسم فيهما خوف وكراهية تجاهى، وانطلقت كلمات صادمة من شفتيها لم أستطع استيعابها :

ماذا تريد منى؟

هل تتبعنى؟

اتركنى وشأنى من فضلك.

أطلب منك أن تتركنى وشأنى.

كانت عيناها جميلتين لكنها محاطة بالسواد، وجلد وجهها يشبه فاكهة معطوبة. كانت تعبر الطريق وكنت أتبعها (من على بعد وليس بالقرب منها)، وتعثرت هى فى المنحنى وراقبتها لأتأكد من أنه لم يصبها أذى، لكنى لم أتبعها بعد ذلك لأنى فهمت أن الوقت لم يكن مناسبًا. كانت وحدها دون الطفل، وأزعجنى أن أراها وحيدة وأنا أعرف أنها أم وحيدة ترعى طفلًا، وتخيلت ما تواريه ملابسها: ثديان جميلان تخفيهما عن العالم ولكن ليس عنى؛ كانت ترتدى ملابس رجالية: قميصًا وبنطالاً من الجينز وتحمل حقيبة ظهر، ودخلت أحد المبانى الجرانيتية التى تستغل الآن للتعليم المفتوح وخدمة المجتمع، وترتدى فى قدميها صندلا يطقطق وهى تصعد السلم، وشعرها الكستنائى معقوص كذيل حصان يتأرجح على كتفيها، وأدارت وجهها عنى بغضب مضطرم؛ كانت تبدو صغيرة كتلميذة فى مدرسة رغم أنها امرأة مكتملة وأم، وكنت أتمنى أن أنادى عليها كما تنادى على طفل لتغيظه وتداعبه، تخافين منى؟ من «جيلياد»؟ لماذا؟

كان اسمها على صندوق البريد «جرايدى»، لكنى كنت حريصًا أن أنطق هذا الاسم بصوت مسموع، ولم أعرف إذا كان هذا الاسم لرجل أو لقب لزوجها أو أنه

اسمها هى، فهل أنطق بالصوت المسموع اسمًا اشخص أحبه، أم أننى أنطق اسما لشخص عدو لى، ام أستطع أن أتبين الأمر.

كانت امرأة دقيقة العظام ولكنها ليست ضعيفة، لم تكن ضعيفة الإرادة كما لم تكن ضعيفة الجسم، رغم أنى عندما اقتربت منها على سلم المكتبة لاحظت أن طولها يصل بالكاد إلى كتفى، وتقل عن وزنى بحوالى مائة رطل.

كان «جيلياد» يوصف أنه صبى كبير، شبابه واضح فى الوجه والقلب، وكان شعرى يغطى جبينى ويصل إلى عينىّ ولونه كلون القمح ووصفه أنه حريرى (هكذا وصفته النساء)، وعيناى شديدتا الزرقة (لذلك ابتسم لى طفلها، فقد عرفنى)، لذلك أحيانا ما تنظر إلى الفتيات فى الشارع ويبتسمن، وعندما اقود الشاحنة النصف نقل قد تشير إلى إحدى الفتيات بإصبعها لأقوم بتوصيلها على سبيل المزاح، لكنى لا أتوقف أبدًا، وعندما ذهبت إلى مكتب د.«كوتون» فى مبنى الخدمات الصحية بالمقاطعة رأيت فى عينيها دهشة، ونظرت إلىَّ نظرة لا تتوقعها من امرأة فى أواخر الأربعينيات أو الخمسينيات من عمرها

لقد قضى قاضى محكمة الأسرة بأننى لابد أن أضع نفسى «تحت رعاية» د. «كوتون» «بدلا من الحبس» فى «مركز رعاية «رد بانك» للرجال»، وأعتقد

أن د. «كوتون» صديقة لى، وتناديني باسمى «جيلياد» بصوت يبعث فيك الطمأنينة كأنك تهدئ حصانًا هائجًا لا تريده أن يفر أو أن يهتاج، حصان مجروح وقادر على أن يجرح. ولم تحاول د. «كوتون» أن تلمسنى حتى تهدئ من روعى عندما ينتابنى الغضب، ولكنى أرى رغبة فى عينيها لأن تلمسنى وتمسح على شعرى الطويل، وعلى جلدى الذى ينتشر فيه الطفح الجلدى، وعلى أصابعى وأظافرى متسخة الأطراف التى لم تتوقف عن النقر على حافة مكتبها المعدنى.

كان موعد لقائى مع د. «كوتون» يتم يوم الإثنين كل خمسة عشر يومًا فى مبنى الخدمات الصحية من الخامسة والنصف حتى السادسة مساء، وذلك فى الدور العلوى بعد مكاتب الخدمة الاجتماعية والمساعدة العامة وتقدير الضرائب وكاتب المقاطعة وشهادات الوفاة وتراخيص الزواج ومكافحة القوارض والحشرات، وفى خلال سبعة أشهر كانت د. «كوتون» تتحدث عن «الصدمة» و«التكيّف» و«الجراحة التجميلية»، وكنت أستمع لها وأبتسم بأدب ولكنى لا أقول شيئًا، فلن يدخل «جيلياد» مستشفى مرة أخرى فى حياتى أبدًا (حيث لا أستطيع أن أتذكر أنى ذهبت إليها حين أخذونى فى سيارة إسعاف كما قالوا لى)، وأن «يجعلونى أنام» ويقطعوا حلقى بسكينة مرة أخرى؟ لن يحدث هذا لى أبدًا.

وسألته د. «كوتون»: «متى ستحدثنى عن أمك يا «جيلياد»؟، لقد مرت سنوات الآن ولن تستطيع تلك المرأة أن تؤذيك مرة أخرى»، وشعرت بغضب حاد يسرى بداخلى، لأن هذه العجوز القبيحة الساقطة تتحدث عن أمى بمثل هذه الطريقة كأنها تعرفها وتعطى لنفسها الحق فى هذا الحديث عنها، وظللت انقر بأظافرى بعصبية لأمنع نفسى عن النهوض من على مقعدى والاتجاه إليها وأن أمسك بعظم كتفيها واظل أهزها بقوة !، أهزّها حتى تدور عيناها فى محجريهما وينكسر عنقها، وقالت هى: «أنت تحتاج ان تتحدث عن أمك وعما فعلته معك، لتستطيع أن تتجاوز الأمر يا «جيلياد» ».

كنت أبتسم مثل الوجه السعيد المرسوم على قبعتى، وأحنيت رأسى كأنى لا أفهم لأنه لم يسبق لى الكلام عمّن فعل بى ذلك، وليس لدى أحد أى سبيل حقيقى لمعرفة ذلك إن لم أتحدث أنا عنه، ولكنى لن اتحدث لأن ذلك سيعطى انطباعًا خاطئًا عن أمى التى أحبت ابنها وكانت تريد أن تحميه، وسأخلط بين الشخص الذى كانت عليه فى تلك اللحظة مع الشخص الحقيقى الذى يكمن فى روحها.

وسألتنى د. «كوتون» وهى مقطبة الجبين: «جيلياد»! هل تسمعنى؟ أنت فى الثالثة والعشرين من عمرك ولم تعد صبيًا صغيرًا»؛ كان وجهها يشبه القفاز المجعد.

كان وجهى الملىء بالندوب وذلك الغضروف، الذى فى حلقى كعقدة مربوطة تمنعنى من الكلام، وعندما أغضب يتلوى فمى ككائن حى وينتفض رأسى وكتفاى، وكان الصبية فى مثل سنى يضحكون علىّ ولكن الفتيات لم يضحكن أبدًا، فالفتيات والنساء يجفلن عنى ولكنى أرى الشفقة فى عيونهن أيضًا، وكان الاعتقاد أننى ربما أعانى من مرض «الصرع» أو «السكتة الدماغية» أو «الربو»، وكان دمى يحمل «سمومًا كيميائية»، واعتقدت أمى أنى قد ورثت لعنة الدم منها ومن أهلها، والآن بعد أن توفيت فقد مات ذلك السر معها.

وبالتأكيد رأيت «جيلياد» فى المرآة، أحمر الوجه ويحاول الكلام، إنه مشهد يجمع بين القبح والرثاء، ولم أوجه اللوم لأحد قط لأنه جفل منى عندما رأى مثل هذا المشهد، ولكنى لست غاضبًا، فقط أريد أن أقول للجميع، «جيلياد» ليس غاضبًا ولن يغضب أبدا.

إن غضبى يكون من أجل الآخرين من أهل البراءة والمنبوذين، فأنا ملاك الحنق الذى يحمى من يحب.

أرجوك لا تتبعنى...

سأطلب الشرطة...

رأيتك وأنت تتبعنى، أرجوك لا تفعل.

فى هذه المرة كان الأمر مجرد مصادفة وأقسم على ذلك، فقد كنت فى وسط المدينة ورأيتها، ولم أستطع أن أمنع نفسى من تتبعها، ولكنها عندما رأتنى

وقفت كأنها قد تلقّت لكمة، ونادت علىّ بصوت أجش شىء مكسور، وسألتنى عما أريد منها ولماذا بحق الجحيم أتبعها؟ وقالت إنه من الأفضل أن أتوقف وإلا ستتصل بالشرطة. كانت غاضبة فتراجعت عنها وأنا أسحب قبعتى على جبينى كنت خجلا أنها أنكرت معرفتها بى، كانت تعرفنى ولكنها تنكرنى، لماذا؟ أنا «جيلياد»، وأنت تعرفيننى؛ كأنها أصيبت بالعمى ولم تعد ترانى، ولم أستطع أن أفهم. ودخلت إلى متجر يبيع بتخفيض، وذهبت أنا عبر الزقاق إلى الباب الخلفى (الكل يعرف أن هناك بابًا خلفيًا)، وعندما غادرت هى من الباب الخلفى ورأتنى وقفت ثانية ونظرت إلىّ كأرنب مذعور، وحاولت أنا أن أبتسم لأهدئ من روعها، وحاولت أن أوضح لها الموقف ولكنها كانت قد بدأت بالصراخ والتهديد بأنها ستبلغ الشرطة لإلقاء القبض علىَّ وأن اللعنة علىّ، ولذلك تراجعت وابتعدت واكفهر وجهى وشعرت بسخونته من الخجل.

إنها أم صغيرة! ولكنها تجهد أحيانًا من رعاية الطفل، ووالده ليس قريبًا منها وهى وحيدة مع طفلها الذى كانت تغنى له أحيانا لينام، ولكنه لم يكن ينام احيانا ويظل يصرخ. كان قلبى يعتصر ألمًا من أجلها: ايتها الأم الصغيرة، أنا هنا لأساعدك فلا تبعدينى عنك.

عندما لا تكون ستائر منزلها منسدلة تمامًا ولا تصل إلى عتبة النافذة، أو حين يكون هناك خيط رفيع مفتوح منها، عندئذ أستطيع مشاهدتها،

وأبتسم حين أراها وأعلم أنها لن تستطيع رؤيتي، حيث أمكث في الزقاق خلف منزلها لساعات لأرعاها بعين ساهرة، ولم يكن بي حاجة إلى النوم. كانت تسكن شقة بالدور الأول في مبنى رقم ٩٢٩ شارع «سينيكا»، وهو منزل بسيط مبني بطوب داكن أثرت فيه العوامل الجوية، ولدي أسبابي حين أقول إنها قد انتقلت إلى هنا حديثًا، فكما أرى هناك كثيرًا من الصناديق التي لم تفرغ في كل الغرف، كما لا يوجد كثير من الأثاث، ولفترة قصيرة كانت تضع الهاتف على الأرض وبجواره مقعد بلا ظهر، وكانت هي تتحدث في الهاتف أحيانا ولكن نادرًا ما كانت تتلقى اتصالا، وفي بعض الأحيان عندما كانت تتحدث في الهاتف كانت تبدأ في البكاء وتضرب بقبضتها على فخذيها، وكنت أريد أن أوقفها عن إيذاء نفسها وأطيب خاطرها لكني لم أجرؤ على ذلك.

وفي المنزل المقابل لها يسكن رجلان كانا يكبران «جيلياد» بسنوات قليلة، هما أصحاب الكلب، الذي كان ينبح كثيرًا كاشفًا عن أسنانه عندما يمر أي شخص بجواره، وكانا يتعاملان مع الكلب بقسوة ولا يدخلانه عندما يخرجان، وعادة ما كانا غير متواجدين في المنزل.

وفي يوم ما، لاحظت أنها تدفع عربة الطفل بهدوء وسرعة حتى لا توقظ الكلب، ولكن الكلب استيقظ ونبح بشدة مكشرًا عن أنيابه اللامعة، وعند عودتها

كانت حريصة أن تصل إلى بيتها من الجانب الآخر، ولكن الكلب منتظر كأنه كائن يصيبه الجنون حين يشتم رائحة دم، فكان ينبح بشكل متواصل ويلقى بنفسه عكس اتجاه السلسلة التى تربطه فتفزع هى ويصرخ الطفل؛ وبهدوء فكر «جيلياد»: ملاك الحنق مطلوب فى هذا الموقف.

بعد خمس وثلاثين ساعة عثر على الكلب ميتًا...

قتل أثناء الليل، واكتشف أصحابه جثته الساكنة الدامية فى الصباح الباكر يحيط برقبته الطوق المتهرئ المتصل بسلسلة، ومع حرارة أول النهار تجمع حشد من الذباب الأزرق اللامع حول جثته، وكانت عيناه مفتوحة وشاخصة، وتحطمت جمجمته وخرج منها جزء من مخه، ونزفت دماؤه على أرض ترابية لا عشب عليها.

لا بد أن الضربة الأولى على رأس الكلب كانت قوية لدرجة أن أحدًا لم يسمع صرخة إصابته المميتة ولم يسمع أحد أى مقاومة منه، والظاهر أنه تم ضربه عدة ضربات متتالية بأداة ثقيلة تشبه الإطار الحديدى، وهذا ما رجّحه رجل الشرطة حين أتى للتحقيق.

لم يعثر على أداة القتل، ولم يعثر على الشخص الذى حطم جمجمة الكلب. كان مالكا الكلب شابين ذوى لحى، وعلى ساعد كلّ منهما وشم ولهما عيون

حذرة، وكان من الشائع فى دائرة جيرانهم أنهما يتاجران فى المخدرات، وقاما بقتل كلبهما تخلصًا من نباحه الجنونى، ورغبة منهما فى عدم الاضطرار إلى إطعامه.

تركت لها فى صندوق البريد بطاقة عليها الوجه السعيد، وفى داخل الظرف بضع شعرات جافة خشنة من شعر الكلب.

ابتسمت د. «كوتون» عندما رأتنى مبتهجًا، فقد كنت أصفّر وغسلت شعرى ومشطته إلى الخلف وتركته منسدلا شكل جناحين على جانبى وجهى، كما حلقت ذقنى أيضًا؛ وقالت د. «كوتون»: «جيلياد»! تبدو اليوم وسيمًا». ولكنى واجهت بعض المتاعب فى مكتب البريد، فقد أبلغوا د. «كوتون» أنى أتغيب عن العمل لبضع ساعات أحيانا، فسحبت قبعة البيسبول التى أرتديها على جبينى وأنا أشعر بالخجل من النظر فى عينى المرأة، كأنها ستقرأ أفكارى وستعرف قصة الكلب، وقد اضطر لإيذائها حتى أدمر تلك المعرفة؛ لا أريد أن أؤذى د. «كوتون»، فهى امرأة عجوز وتحسن معاملتى.

وأطلقت أصواتًا كصوت الخنزير، واستعنت ببعض الإيماءات وأشرت إلى فمى وأنفى وحلقى لأشرح لدكتور «كوتون» أننى كنت مصابًا بنزلة برد شديدة، وسعلت وأصدرت صوتًا كالعطس، وقالت الطبيبة إنها ستتصل بهم لتبلغهم، ولكنى كنت غاضبًا لأنها

اجبرتنى على الكذب، و«جيلياد» رجل لا يقول إلا الصدق.

ربما يكون من الأفضل أن أترك وظيفتى فى مكتب البريد، وأن ألتحق بوظيفة ذات علاقة بالشحن والتفريغ فى شركة «سيرز».

لم يكن من الصعب أبدًا بالنسبة لى أن أجد عملا، فقد كنت قوى البنيان، وتعرف هذا بمجرد النظر، كما كنت مغرمًا بالطاعة ولا آبه للعمل الشاق إذا تعامل معى صاحب العمل بلطف وفسّر لى مهام عملى بالتحديد.

سيوفر لى العمل فى شركة «سيرز» عشرين سنتا إضافية فى الساعة، أى أكثر مما كنت أتقاضى فى مكتب البريد، كما أنها شركة من شارع «سينيكا»، وقد يكون فى ذلك دلالة.

وبسبب ما فعلته فى الكلب كان لدى سبب كى أعتقد أنها ستتعامل معى الآن بلطف، وكان لدى قناعة أنها سوف تطلب منى أن أذهب إلى بيتها لأقف على باب المنزل وتطلب هى منى الدخول، وسيضحك الطفل حين يرانى وسيلعب فى أصابعى؛ طفل بعيون زرقاء، ابن «جيلياد» (كنت قد حلمت بهذا، وكنت أتذكر هذا الحلم أثناء النهار)، ولكنى عندما اتصلت بها من هاتف عمومى فى محطة الأتوبيس، حدث ما لم أكن أتوقعه.

فى ذلك الوقت، كـان قـد نمـا إلى علمى أن «جـرايدى» ليس لقب زوجـهـا، ولم يأت رجل إلى المنزل رقم ٩٢٩ فى شـارع «سـينيكا» فى السـاعـات التى كنت أراقبه فيها. كان اسمها الأول هو «كاترينا» كما علمت، وتدربت على نطق الاسم «كا ـ ترينـ ـ ا» محـركا شـفـتىَّ بعناية أمـام المـرآة؛ وبدلا من ذلك، وعندمـا رفعت سـمـاعـة الهـاتف أتانى صـوتها يقـول: «مـارش؟»، كان كصوت فـتاة صـغيـرة يحـدوها الأمل ومـتلهـفـة: «مـارش؟ أهذا أنت؟». وسـحـبت نفسًا من الهـواء لأستطيع أن أقـول اسـمـهـا «كـا ـ ترينـ ـ ا» لكن الكلمات علقت فى حلقى ولم تخـرج، وعـرفت هى أن المتحدث ليس «مـارش» وليس أى شخص آخر سوى «جيلياد» الذى يحبها وقتل كلبًا من أجلها، واستطعت أن أسمعها تتنفس بغضب وحدة، وكان الطفلُ يصرخ فى الخلفية؛ كانت صدمة لى عندما بدأت كاترين فى النشيج فجأة وهى تقول: «اتركنى وشأنى، لماذا تفعل هذا بى؟! لم أطلب منك أن تؤذى الكلب المسكين، كيف أمكنك أن تفعل ما فعلت؟! إنك مجنون، اتركنى وشـأنى! سـأتصل بالشـرطة»، وأصـابنى مـا تقـول بالدهشة، ولم أستطع حتى أن أطلب منها الصفح، ولم أستطع الكلام إلا بأصوات متقطعة كأنى غريق، وألقت هى سـمـاعـة الهـاتف بعنف كـأنهـا تريد أن تحطمها.

لكنى لم أعتبر أن «كاترينا» ليست ممتنة لى، ولم أعتقد أنها فشلت أن تحبنى، فلقد رأيت وجهها فى

المتنزه ذلك اليوم، والموضوع ليس إلا مسألة وقت وحسب، وسأصبر؛ وطارت أفكارى إليها: أيتها الأم الصغيرة، أنا أحبك، لقد جئت إلى هذا العالم باسم «جيلياد» لأحبك.

مرات ومرات أسمع صوتها يهتف بأمل وشغف على «مارش»، وتساءلت عمّن يكون «مارش» هذا!

«مارش»؟ أبو الطفل؟!

ونطقت ذلك الاسم مرارًا وتكرارًا بصوت مسموع، حتى أصبح نطقه كصوت حاد لزجاج يتهشم يثير غضبى، وتمنيت لو أن الرجل يقف أمامى مثل ذلك الكلب الجبان الشرير، الذى اختنق بطوقه ولم يجد مكانًا ليحتمى فيه.

وانتظرت منها خلال الصيف أن تدعونى ولم تفعل، واحتفظت دائمًا بمسافة منتظرًا إشارة منها، لذا كان ما فعلته صدمة لى: ففى يوم من الأيام استدعت الشرطة وحضروا بالفعل وأدركت أن ما كانت تقوله حقيقى، وأنها أبلغت عنى كما قالوا لى وهم ينظرون إلى وجهى بتبلد وسخرية، ونادوا على اسمى «جيلياد» وهم يلوون أفواههم فكان اسمى يخرج قبيحًا منها.

وأخذت الطفل إلى مركز رعاية الطفل فى الدور الأرضى من الكنيسة فى شارع «سيسيرو» كما تفعل كل إثنين وأربعاء من كل أسبوع فى وقت مبكر فى الظهيرة، ثم ركبت الأتوبيس المتجه إلى وسط المدينة

(إلى مبنى التعليم المفتوح كما أعلم، ولكنى لم أتبعها في ذلك اليوم حيث كنت أعمل طوال النهار فى شركة «سيرز»)، وحين دقت الساعة السادسة مساء كنت أنتظر على سلم الكنيسة فى المطر، كنت أجلس القرفصاء وأضع رأسى بين ركبتى (كنت متعبًا في ذلك اليوم)، وفجأة ظهر أمامى رجلان من رجال الشرطة فى زيهما الرسمى وتكلما معى بصرامة يريدان أن يعرفا لقبى وطلبا أن يريا بطاقة هويتى، وأخبرانى أن لديهما شكوى من امرأة بأنى ألاحقها وأتصل بها هاتفيًا، وأن علىَّ أن أتوقف عن ذلك وإلا سوف يقبض على، واندهشت وأسقط فى يدى ولم أستطع المقاومة، فمن الصعب أن تقاوم رجال الشرطة وهم يحملون أسلحة، وقد يقومون بضربك على رأسك حتى تشج ويركلوا ضلوعك وفيما بين رجليك؛ ولم يكن لدى وقت لأفكر فى «كاترينا»، وفى أسباب طلبها للشرطة وهى تعرف أنى أحبها ولا أقصد إيذاءها أبدًا، وحاولت أن أفسر لرجلى الشرطة الأمر، ولكن الأصوات التى تخرج من فمى كانت غريبة ومبهمة، ورأيتهما ينظران إلىّ وجهى برثاء واشمئزاز. لقد كنت أحاول أن أقول لهما إنى أحب كاترينا وأنها تعرفنى، وأننى لا يمكن أن أسبب لها أى أذى، لكن كل هذه الكلمات خرجت كأصوات مبهمة وحشرجة غير مفهومة، وبدأت فى الاهتزاز والارتعاش كمن أصابه الشلل، حتى أن أحدهما قال: يا للهول! ما الذى يحدث له؟ ثم أمسكونى وأقامونى وأنزلونى

الدرج وأكرهونى على المشى كالعرائس المعلقة بالخيوط، ومع أنى كنت قويًا، لكن اثنين من رجال الشرطة فى نفس طولى وأثقل منى وزنًا كانا أقوى منى، ولم أقاومهما عندما دفعانى على أحد جانبى سيارة الشرطة، حيث اعتقدت أن «كاترينا» تشاهدنى وسينفطر قلبها من الأسى على. وحاولت تفسير الأمر وأنا جالس على المقعد الخلفى لسيارة الشرطة: إنها لم تفعل ذلك، إنها صديقتى، هكذا قلت لرجل الشرطة، الذى التفت إلى ليراقبنى من خلال السلك الفاصل، وأظن أن ذلك الشرطى قد فهمنى وبدا خجلا أنه قد اضطر أن يؤذينى، ولكنه ضحك مع زميله، الذى يجلس بجواره وقال له إن المرأة لا تريد أن تفعل بى شيئًا «لا ـ شىء»، وأننى إن لم أكن حريصًا فسيضعوننى خلف القضبان مع المجانين حتى أتعلم أن أهتم بشئونى، وأن أبتعد عن المرأة ولا أهاتفها: «اتفقنا يا «جيلياد»؟ أنت لست من نوع المجرمين، اتفقنا؟».

ونكست رأسى وابتسمت، اتفقنا!

واتصلت بها على الفور من هاتف عمومى، فقط لأهمس لها: «أحبك وأعتذر لك يا كاترينا»، وسرعان ما وضعت سماعة الهاتف قبل أن تقول أى كلمة.

كنت سأعتذر لها لأنها لم تخبر الشرطة أن «جيلياد» هو الذى قتل الكلب من أجلها، فقد كان هذا سرًا بيننا ورمزًا.

وظللت لثلاثة أيام وثلاث ليال بعيدًا عن منزلها كما أمرنى رجال الشرطة، ولم أر «كاترينا جرايدى» لأتبعها رغم احتياجى الجارف لأن أراها، الذى وصل إلى حد أننى لم أكن أستطيع التنفس، لأنى كنت أخشى عليها أن يصيبها مكروه هى أو الطفل ولا أكون موجودًا لحمايتها. سألتنى د. «كوتون» مندهشة عندما رأتنى: «جيلياد»؟ ماذا حدث لك؟»، فلم أغتسل ولم أحلق ذقنى وملابس العمل التى أرتديها متسخة! وحين عرفت أنها علمت «بالشكوى» كما أسمتها، فكأنها طعنتنى بسكينة حادة وغرستها فى قلبى، ألا يخفى سر على هذه المرأة؟. إن رجال الشرطة وأخصائيى الخدمة الاجتماعية يتبادلون المعلومات، ولا يمكن إخفاء سر فى هذه المقاطعة! وأرادت د. «كوتون» أن تتحدث عن «الشكوى» و«المرأة الشابة» و«الشرطة»، وعما إذا كان هناك سوء فهم، وأومأت لها بسرعة أن نعم، هناك بعض سوء الفهم، وشعرت بدموع الألم والغضب تفر من عينى، فلم أفعل شيئًا ألام عليه، قالت لى د. «كوتون» بحرص شديد أنه إذا لم ترغب امرأة شابة فى الحديث معى أو أن ألاحقها أو أن أتصل بها هاتفيًا فبالطبع لا يجب أن أفعل ما لا ترغب هى فيه، وقالت لى الطبيبة إن «جيلياد» ليس هو الشخص الذى يتصرف بوقاحة مع امرأة؛ وأغلقت عينى متذكرًا أمى وكيف أنها كانت تعرف دائمًا ما يستطيع «جيلياد» أن يفعله، لا شىء يفعله «جيلياد» كان يفاجئها، ولن تفاجأ الآن لأن

الشـرطة قـد أتت إلى وأن بطنى وجـوانب جـسـدى مغطاة بكدمـات صـفـراء من أثر دفـعـهـمـا لى على السيارة، ولن تطلب أمـى أى تفسير لما حـدث حتـى تعرف، فلم يحدث أن سـمـعت منـى أى تفسيـر لأى شيء؛ لم تفـهـم د. «كـوتون» ذلك وكـانـت أمـى تحتـقـرها. وانحنيت فى مقـعدى وسـحبت قبـعة البيسبول على جبينى لأخفى عينى، التى احتقنت من إحساسى بالخجل، ولكنى قلت لها: «نعم، عرفت».

لم أخـبـرها أننى و«كـاترينا جـرايدى» قـد عـرفنا بعضنا منذ زمن بعيد قبل هذه الحياة، وأنها تعلم هذه الحقيقة فى قلبها ولكنها نسيت، ولكنها ستـعـرفـهـا مجددًا يومًا ما.

لم أخـبـر د. «كـوتون» أيا مـن هذه الأشـيـاء لأنى لا اريد أن أؤذيها، وإذا عـرفت مـا لا ينبغى لها أن تعرفه فـقـد أفـعل، فلن أخبـرهـا عن أمى وعن السكين ومـا فعلت بى لأن ليس لها الحق أن تعرف، إن ذلك لحماية د. «كوتون»، فـأنا وعـاء للرحـمـة كـمـا أنا وعـاء للحنق، وأنا من يحتـرم النسـاء ويحـمـيهن ولا يمكن أن أتسبب فى أذى لامـرأة أو أن أخيـفـهـا، لا سـيـمـا سيدة مثل د. «كـوتون» وفـى مـثل سنهـا، ولكن إن حـدث خطأ فلن يكون خطئى أنا، فـقـد أضـربهـا بقطعـة مـعدنيـة على جبينها فيتوقف فمها الثرثار عن الكلام، وقد أقبض على حلقها الهرم المتجعد بكلتا يدى وأعتصره حتى يخرج مـخـهـا المـمـتلئ بالمعلومات الطبيـة من ناحية

وتخرج أحشاؤها من الناحية الأخرى، وقد أستخدم الإطار الحديدى لأحطم جمجمتها كآنية زهور، الجمجمة التى يخفيها شعرها الخفيف المجعد، المصبوغ بلون داكن، وقد أركل بمقدم حذائى الضخم تلك الفتحة المشعرة بين فخذيها؛ قد أفعل أىّ من ذلك لتتوقف عن صب الكلمات المسمومة فى أذنى وليس لأى سبب آخر لأنها صديقتى، وأبقيت على نفسى ثابتًا فى المقعد حتى لا أهتز يمينًا ويسارًا، حيث كانت مدرّساتى يوبخننى على فعل مثل هذا حين كنت صبيًا، وقلت لها: «نعم يا د. «كوتون»، أنت على حق».

وطلبت رقم هاتفها الذى أتذكره، وانتظرتها حتى ترفع سماعة الهاتف! كنت أرتعش وأنفاسى متلاحقة، وظل جرس الهاتف يرن مرارًا حتى انفصل، وطلبت الرقم مرة أخرى وظل جرس الهاتف يرن ولكن أحدًا لم يجب؛ هذا هو الوقت الذى من المفترض فيه أن تكون «كاترينا جرايدى» فى المنزل، وحاولت الاتصال بها مرارًا ولم يرد أحد، فذهبت إلى الشارع، الذى تسكن فيه ووقفت أمام منزلها أنظر إلى النوافذ المظلمة لوقت طويل، وشعرت بحزن فى قلبى، إنها ليست فى المنزل.

فى اليوم التالى والذى يليه لم يكن لها أثر، ووقفت خلف منزلها فى الزقاق أنظر إلى النوافذ ولا أرى أحدًا، ولكن شيئًا لا يشير إلى أنها قد رحلت،

■ال مقتنايتها ومقتنيات الطفل مبعثرة فى أرجاء المنزل ولم تفرغ الصناديق تمامًا من محتوياتها، لذلك لم أعتقد أنها رحلت إلى مكان آخر رغم أنه احتمال قائم، ولم أستطع تفسير غيابها حتى تلك اللحظة. كدت أموت رعبًا أن أفقدها بسبب أنى جبان، وإن عادت إلى فستكون تلك علامة لئلا أفقدها ثانية بسبب الجبن، فلن يحدث ذلك ثانية.

هل دخلت امرأة بهذا الشكل حياة «جيلياد» قبل ذلك؟ لا، لم يكن هناك امرأة يموت «جيلياد» أو يقتل من أجل أن يحميها، فهناك كثير من الفتيات وبعض النساء ابتسمن له وطاردنه، غير مصدقات، أو غير عابئات، بأن «جيلياد» شخص «بطىء» و«غريب»، لأنهن رأين فيه رقته وطيبته وقوته التى تحميهن، وشعرى المشرق كالشمس وعينىّ وفكّى العريض، وفى الكنيسة أحيانا ما كان شعاع من الشمس يسقط علىّ وأنا أجلس على المقعد كأن الرب يباركنى بشكل لا تخطؤه عين؛ هناك أيضًا حلقى المصاب وطريقة كلامى التى تدعو للشفقة، فلا يمكن أن يتحدث «جيلياد» بصلافة عن أى أحد لأنه لا يستطيع الكلام، كما أنه لا يقرأ ولا يكتب، وقد تعتقد أنه طفل الرب النقى المبارك.

بعضهن كن يتلمسن رسغى، وبعضهن يتحسسن شعرى أو يمشطنه ويبعدنه عن وجهى، وأبقى أنا حينها ساكنًا يملؤنى الخجل.

أخيرًا، عادت بعد ستة أيام وست ليال من الغياب، وركعت للرب شكرًا أنها عادت لى سالمة هى والطفل، طفل «جيلياد» لأن الشبه فى لون العيون واضح لن يخطأه أحد، ولن تتركنى هى أبدًا وأقسمت أنا على ذلك. لقد اعتقدت أنها غادرت بحثًا عن رجل آخر، ولكنها عادت لى الآن، وامتلأ قلبى بالرقة والصفح ا «كاترينا» التى عادت إلىَّ بملء إرادتها.

بعد ما حدث مع رجال الشرطة أصبحت أتصرف بحرص أشد، فقد كنت أعمل فى الصيد أحيانا حين كنت صبيًا، وأعرف حرص الصياد على ألا يراه أو يشمه أحد، ولذلك، وإذا أبلغت عنى «كاترينا» مرة أخرى لأنها رأتنى أو اعتقدت أنها رأتنى، فلن أكون فى شارع «سينيكا» أو أىّ شارع قريب منه حين يصلون إليها، ولو طلبت الشرطة ليلا أحيانًا لدى سماعها لصوت كخشخشة الرياح فى منزلها أو أصوات فى المنزل المقابل أو لشخص فى الزقاق خلف منزلها معتقدة أن ذلك هو «جيلياد»، فلن يكون هو، لأن الشرطة ستجدنى نائمًا فى فراشى (حيث سيجدوننى إذا حضروا إلى عنوان منزلى)، وإن تكرر ذلك فلن يزعج رجال الشرطة أنفسهم بالحضور فى كل مرة تستدعيهم فيها.

وفى نهاية الخريف وبدايات الشتاء أصبح من الواضح أن «جيلياد» لا يمثل تهديدًا وليس رجلاً يؤذى أحدًا، فهو شخص يمكن أن تصفه أنه «غير مؤذ»،

مع مرور الوقت توقفت «كاترينا» عن استدعاء الشرطة فلم يعد لها جدوى، وعمدت إلى تغيير رقم الهاتف ولا تسجله فى الدليل، ومع ذلك وبعد أسبوع أو بضعة أيام أحيانا، يكتشف «جيلياد» الرقم الجديد ويتصل بها هاتفيًا لمجرد أن يسمع صوتها الملهوف المفعم بالأمل قبل أن يتسلل إليه الخوف والرعب، فتلعنه وتسبه : «عليك اللعنة، اتركنى وشأنى» ثم تصفق سماعة الهاتف بعنف، عرفت ساعتئذ أنها لا تقصد ما تفعل فلم أغضب ولم أتألم، وتذكرت كيف أذتنى أمى بدافع الحب الذى تكنه لى ولهدف محدد، وستأتى الساعة التى تدرك فيها «كاترينا» وتفهم أن «جيلياد» يحبنى ويحب طفلى، وقد أتى «جيلياد» إلى العالم ليحبنا.

كنت صبورًا وسأنتظر، حياة «جيلياد» منذ ميلاده حتى الآن انتظار وراءه انتظار.

تغيّر توجه «كاترينا» إزائى حين حل الشتاء، فبينما كانت تهرب منى أوتختفى أو تشكونى للآخرين قبلا، فهى الآن تنظر إلى (فى الشارع أو فى المتنزه أو فى أماكن انتظار السيارات أو فى المتجر) وتقف وتمعن النظر إلى وقد يلتوى فمها أحيانا بابتسامة غريبة، ولا أعلم إن كانت ابتسامة سخرية أو ابتسامة ازدراء. كان فمها شاحبًا كجلد أصابه التشقق، وانطفأ البريق فى عينيها، لكنهما بالنسبة لـ «جيلياد» ستظل عيناها جميلتين كما رآهما لأول مرة فى

حديقة «باتريوت». .. ولكنهما غائرتان. كان شعرها طويلا ومبعثرًا ويحتاج لغسله. كانت أحيانا تضرب الأرض كما تفعل لتبعد كلبا غير مرغوب فيه، وقد تضحك بصوت يشبه صوت الجاروف أثناء إلقاء الحجارة وتقول : «أتعتقد أنى عمياء ولا أراك؟ لا، بل إنى أعرف اسمك، «جيلياد»، أيها البغيض المثير للشفقة. أحذرك وأقول لك اتركنى وشأنى، وإلا قتلتك».

وقد تكور قبضتها وتضرب على فخذها وهى تقول تلك الكلمات الفظيعة، كنت أحمرّ خجلا من عمى بصيرتها!

وذات مساء فى ساحة موقف السيارات خارج متجر «٧ ـ ١١»، وبصوت هادئ، اقتربت منى لحوالى عشرة أقدام حيث وقفت بلا حراك واضعًا يدى فى جيوب السترة وقد أحكمت قبعتى على رأسى، وقالت: «سأكون صريحة معك يا «جيلياد»، فأنت تلاحقنى وأنا لا أحب ذلك، وتحاول أن تقول إنك «تحبنى» بينما أنت لا تعرفنى مطلقًا، ولا تعرف أبسط الأشياء عنى. اسمع أيها الأحمق، إن عرفتنى فستشعر بالأسى من أجلى، فأنا فوضى وهذا هو أنا، ولست شخصًا يريد رجل ملاحقته إلا إذا كان فاشلا، أفهمت؟ هل اخترقت عقلك المظلم؟ أبو طفلى لا يحتمل النظر إلى وجهى، وأنا على ثقة أنه لا ولن يلاحقنى، ولم يكن يريد إنجاب طفل منى وأنا

اصررت على إنجابه، وتتصّل منى ومن طفله وهكذا
ملت أنا، لذا فلتذهب إلى الجحيم، فأنت مثير
الرثاء أكثر منى، أفهمت أيها الأحمق؟»

ثم انفجرت فى البكاء ودخلت مسرعة إلى المتجر
قبل أن أنطق بكلمة واحدة.

وفى ديسمبر، أطلقت النار على ساقى. ..

وسقطت فى الزقاق خلف منزلها وأنا أتألم ككلب مصاب، وجاءت إلى على الفور وهى باكية : «يا إلهى، يا إلهى...أنا آسفة.... يا إلهى»، وأمسكت بالسياج لأحاول النهوض ناظرًا فى الدماء الداكنة التى ترشح على بنطال العمل، الذى أرتديه، فقد خدش العيار النارى سمّانة ساقى اليمنى ومزق أنسجتها. كان مسدسًا صغيرًا «كاليبر٢٢»، أرته لى فيما بعد، قد يتسبب فى إصابة بالغة لو أطلق على مسافة قريبة جدًا، فالطلقة النارية لا تؤلم بل تندفع فيك كالمطرقة، وتلك هى الصدمة التى تبعث فيك الدهشة، ولكن الألم الفعلى تشعره فيما بعد. وبسرعة أخبرت «كاترينا» أننى بخير، أو حاولت أن اخبرها ولكن الكلمات تلعثمت وتحشرجت فى حلقى قبل أن أنطقها، والشىء المدهش بدا أنها تفهمنى، للمرة الأولى استطاعت أن تفهمنى واستطعت أن أشعر بدفء يديها على جسدى، «كاترينا جرايدى» بجانبى. .. وتلمسنى، وساعدتنى لأنهض وسمحت لى أن أتكئ عليها، وكانت تقول إنها ستستدعى سيارة

الإسعاف لتأخذنى إلى المستشفى فقد كانت تخشى أن أنزف الدم حتى الموت، ولكنى طمأنتها أننى بخير وأن الإصابة ليست بالغة. قالت إنها خجلة مما فعلت، فقد كانت تشرب الخمر وستعرف الشرطة الآن وسيتم سجنها ومن ثم ستفقد طفلها؛ لقد كانت تشرب الخمر ولكنها أفاقت الآن فزعة مما قد يحدث، فالمسدس ليس مرخصًا لأنها اشترته من مكان لم يحصل على ترخيص لبيع الأسلحة، يا إلهى... كم كانت خائفة من إلقاء القبض عليها وفقد طفلها.

توسلت لى ألا أخبر أحدًا، وأخبرتها أنى لن أفعل ولن أخبر أحدًا أبدًا.

أخبرتها أنى أحبها. ولن أخبر أحد أبدًا.

وأدخلتنى إلى مطبخها الدافئ من حرارة الفرن المشتعل، وشمرت لى البنطال ناحية الساق المصابة ونظفت الجرح وربطت حوله منشفة بإحكام. لم تخترق الطلقة ساقى فقد سقطت على الأرض خارجا، وكانت هى تتمتم: «يا إلهى، يا إلهى» كأنها امرأة تصلى أثناء نومها، وناولتنى بعض الجعة من العلبة التى كانت تشرب منها، كما أعطتنى ثلاثة أقراص من الأسبرين لأبتلعها وابتلعت هى قرصين. كنا نرتجف ونرتعش ونحن ننظر إلى بعضنا لا نعرف ما الذى حدث تمامًا، لقد أصيب «جيلياد» بطلق نارى بينما كان فى الزقاق الواقع خلف بيت «كاترينا» التى

أطلقت عليه النار من النافذة، لكنه الآن فى هذا المطبخ الدافئ يشرب الجعة وقد ضمدت جراحه. إنه موقف لا يخلو من طيش! مثير للدهشة ولا تستطيع أن تمنع نفسك من الابتسام، فالأمر يستحق أى كمية من الدماء والألم، والطفل ذو العيون الزرقاء نائم أثناء كل ما حدث وظل نائمًا لم يستيقظ. وبعد خمس دقائق جاءت دورية شرطة إلى شارع «سينيكا»، وطرق الشرطى الأبواب ليسأل عن بلاغ أحدهم بإطلاق رصاص فى المنطقة، وارتدت «كاترينا» معطفًا للمطر فوق لباس النوم الذى تناثر عليه الدم وذهبت إلى الباب الأمامى حين طرقوه، وأنا فى المطبخ لا أجرؤ أن يخرج صوت أنفاسى، وسمعت صوتها خائفًا كفتاة صغيرة وهى تقول: «إطلاق نار؟ اتعنى الآن؟ يا إلهى، أنا أسمع إطلاق رصاص طوال الوقت فى هذه المنطقة، لكنى لم أعد أسمعه ولم اسمع شيئًا الليلة، أعنى لا أعتقد أنى سمعت شيئًا لأنى كنت نائمة وطفلى نائم. أود لو أستطيع مساعدتكم لكنى لا أظن أن ذلك فى استطاعتى».

وبعدها بقليل أخرجتنى «كاترينا» من الباب الخلفى من حيث أتيت، وبدأت أشعر بالألم لكنى لم أبه به، فقد غمرت الفرحة قلبى لأن الله منحنى هذا النعمة التى لم أكن أتوقعها، وفى مقدورى أن أصفح عن المرأة التى أحبها.

«لقد أطلقت عليك الرصاص، ألا تكرهنى يا «جيلياد»؟ ألا تكرهنى؟ لقد أطلقت عليك الرصاص!»، قالت لى ذلك وهى فى حالة من الاستغراب والدهشة

أثناء فحص الجرح الذى مازال مفتوحًا ولم يلتئم فى ساقى وكوّن قشرة فى بضعة أيام، وبدا لى كأنه جرح نتج عن قطع بسكينة مسننة. والحق أنى لم أهتم بالألم، فالألم يمكن احتماله كما تحتمل البرد القارس، لأنك تعلم أنك ستدفأ بعدها.

قالت:«توقعت أن تكرهنى. لا أستطيع أن أفهمك».

وخفضت عينى وشعرت بسخونة الخجل تسرى فى وجهى، ولم أكن قادرًا على الحركة تقريبًا فى هذه اللحظة القدسية.

قدمت لى «كاترينا» العشاء فى تلك الليلة، لم تطلب منى الدخول من الباب الخلفى، ولكنى دخلت من الباب الأمامى هذه المرة، ووقفت على أرضية المدخل المتكسرة، ورأتنى من وراء ستارة النافذة.

وضعت فى طبقى بعض المكرونة والجبن مع بعض قطع السجق التى أبعدتها بحرص بالشوكة لأنى لم أعد آكل اللحوم. كنت أعمل فى مذبح للحوم فى «بورت أوريسكانى» لمدة ثلاثة أشهر حين كنت فى الثامنة عشرة من عمرى؛ تفرّست فىّ «كاترينا» وقالت: «فيك طهارة ونقاء يا «جيلياد». تقبل الدخول إلى بيتى بعد أن أطلقت عليك الرصاص».

وأعطتنى جعة مثلجة وسنشرب الجعة معًا، والطفل «روبن» جالس فى مقعده ينظر إلينا بعيونه الزرقاء ويلوح بيده البضة، وكان طفلا نهمًا، فقد كانت

«كاترينا» تطعمه عدة مرات يوميًا ويكبر بسرعة كما قالت، وكان هو مصدرًا لكل سعادتها.

قالت لى إن أباه تمنّى موته وهو فى رحمها لتجهضه ثم تلقى به فى القمامة.

ثم قالت: «ربما لا أستحق هذا الطفل، وربما لا أستحق الحياة».

وقلت لها إن هذا غير صحيح، فلم أكن أحب أن اسمع مثل هذا الكلام.

فقالت «لولا «روبن»! أفكر فيما قد يحدث لهذا الطفل لو أنى مت، ولكنى على يقين أننى لن أموت وسأعيش لوقت طويل».

وتحدثت معها حينها كما قد يتحدث معها الرب، وخرجت منى الكلمات بصعوبة لكننى قلتها، واستمعت هى لى بصبر بينما كنت أشكل الكلمات بفمى محاولا ألا أتلعثم أو أن تهتز رقبتى، وقلت لها : «الرب روح يا كاترينا، فى داخلى وفى داخلك وفى داخل «روبن»».

وردت على ضاحكة: «هذا هراء يا «جيلياد»، كلام حكيم ولكنه هراء، وأنا أعرف ذلك كما تعرفه أنت».

وقلت: «لا، لا أعرف».

الذباب يتخبط فى سقف مطبخ «كاترينا» وعلى الزجاج، فقد استيقظ فى الشتاء ليزحف خارجًا من عتبات النافذة. ووجدتها تقول: «هل الرب موجود داخل هذا الذباب اللعين؟».

لم أستطع إجابتها على سؤالها الساخر، وجلست صامتًا أتناول الطعام.

واستمرت هى فى الكلام بهذه الطريقة وفتحت علبة أخرى من الجعة، أكلت القليل ودفعت الطبق من أمامها، وترفع الطفل من مقعده وتغير له حفاضه، وعندما عادت ظهرت الدهشة على وجهها لأن «جيلياد» كان فى المطبخ.

ضحكت وعيناها محتقنتان وغائرتان فى وجهها، وتساقطت الدموع على خديها، وملت على الطاولة لأمسح دموعها بأطراف أصابعى، وحاولت «كاترينا» أن تبتعد كقطة، ولكنها لم تكن سريعة بما يكفى.

وأخيرًا جاء الوقت الذى استطعت فيه مساعدتها لرعاية الطفل.

سمحت لى «كاترينا» أن أحمله بعد أن وثقت بى، ووضعت أحد كفىّ الكبيرين بحنان ورقة أسفل رأسه والآخر تحت مقعدته، وعيناه الزرقاوان ناعستان ويحاول الاستغراق فى النوم وفمه مبلل باللعاب، ونور ينبعث من وجهه وينعكس على وجهى، وسمعت «كاترينا» تتنهد بعمق حين رأتنا، وأرادت أن تقول شيئا لكنها لم تستطع.

وأتى وقت آخر حيث أمسكت «كاترينا» بمعصمى الذى كان أضخم من أن تتمكن من الإحاطة به، وقادتنى إلى المطبخ وأجلستنى هناك، وقالت بصوت مرتجف: «يمكنك أن تساعدنى يا «جيلياد».

وانحنيت برأسى قريبًا منها، فلا بد أن تعرف «كاترينا» أن أى طلب ستطلبه منى أمر مطاع.

وقالت: «هناك رجل آذانى وأراد أن يؤذى «روبن» ويستحق العقاب».

فقلت لها «أخبرينى فقط باسمه».

كانت «كاترينا» تضع بعض الصور على الطاولة، أغلبها لها وهى تبتسم ومعها رجل له عيون عسلية ووجه مصمت كالصلصال، وشعر داكن ناعم ينسدل على حافة قميصه، وشارب داكن، ومبتسم لكنه لا يبدو مبتسمًا، وذراعه تبدو ثقيلة وهو يلتف حول كتف «كاترينا» الناعم، وفى إحدى الصور كان الرجل وحده ويرتدى نظارة داكنة ويضع سيجارة فى فمه ويطلق سحابة من الدخان ظهرت بلون أزرق شاحب فى الصورة، وعلى التو عرفت أنه والد «روبن» الذى أراد أن يجهضه من رحم أمه. وأرتنى «كاترينا» بضعة جروح غائرة أسفل فكها كأنها غرز فى الجلد، فقد كان قد طرحها أرضًا وانكسر زجاج المائدة واخترق جلد رقبتها.

ولمست أصابع «كاترينا» آثار الجراح على حلقى والعقدة التى كانت ظاهرة عليه.

وانتظرت لتسألنى عمّن فعل بك هذا يا «جيلياد» كما سألت د. «كوتون» التى كانت شغوفة لأن تعرف لتقارن شرًا بآخر، ولكنها حين رأت نظرة عينى لم تسأل.

وقالت : «لقد عانيت أنت أيضًا».

وكتبت لى «كاترينا» اسمه - «مارشال هاجان» وعنوانه الواقع فى مدينة صغيرة تبعد اثنى عشر ميلا يطلق عليها «المدينة الجامعية»، وكان «مارش» يسكن بالقرب من حرم الجامعة حيث يدرس التجارة والأعمال كما عرفت من «كاترينا»؛ وامتلأ قلبى بالحنق على هذا الرجل، وأخذت العنوان والصور التى كان يقف فيها وحيدًا، فقد فكرت أنه إذا حدث خطأ ما فلا أريد لـ «كاترينا» أن تتورط.

وطلبت منى «كاترينا» ألا أفعل شيئًا لا أرغب فى فعله، وأنها لن ترسلنى لأداء مهمة تتناقض مع ما أشعر به فى قلبى، ولكن رغبتى فى الرحيل كانت مكتسحة بالفعل، وأعرف تمامًا ما سأفعله: فلدى الإطار الحديدى ولدى الشاحنة النصف نقل، وسأنجز المطلوب بسرعة وأقفل راجعًا إلى منزلى فى نفس الليلة.

ورافقتنى «كاترينا» حتى مدخل المنزل، وكنت أتنفس بسرعة وقلبى ينبض بسرعة فى صدرى كأنى تلقيت لكمة فى هذا المكان، وضحكت «كاترينا» حين وضعت يدها على صدرى وأحسّت بسرعة نبضات قلبى، ورفعت عينيها لتنظر فى عينى وهى خائفة كفتاة صغيرة، ولكنها ضحكت قائلة: «جيلياد، سأمنحك بركتى»، ووقفت على أطراف أصابعها لتلمس خدى بأطراف أصابعها وبشفتيها.

ملاك الحنق، يتصرف بسرعة وعلى نحو سديد ودون إبداء أية عاطفة. وكما تحمل جاروفًا أو فأسًا لأداء مهمة ضرورية، رفعت الإطار الحديدى بأيدى تلبس قفازات ونزلت به على رأس الرجل وكتفيه ويديه المرفوعتين وذراعيه، ولم يجد رفع ذراعيه نفعًا لوقف هذه الضربات، كان هذا هو الوجه، الذى عرفته وكرهته بالحق الذى منحنى إياه الرب. تحطم الوجه الوسيم على الفور كقشرة بيضة يتدفق منها الدم، وتحطمت الجمجمة والرقبة والعمود الفقرى ورشح الدم من أسفل التى شيرت، الذى يرتديه، وكان «جيلياد» مغطى بطبقة من العرق اللاذع، الذى يتصبب منه، ويتنفس بشدة لكنه لا ينبس ببنت شفة. وصدر عن الرجل الذى تسبب فى أذى «كاترينا جرايدى» وأراد قتل طفلها فى بادئ الأمر صرخة ألم ودهشة وذهول، ولكنه بعدها بقليل انقطعت منه الأصوات إلا بعض الأنات والتأوهات، ولن يسمع جيرانه فى المبنى بسبب صوت التلفاز العالى. سيغادر «جيلياد» من سلالم الباب الخارجى كما يتسلل اللص فى ظلام الليل، وحمل الإطار الحديدى مغلفًا فى أوراق الجرائد، وسيغسله بعناية قبل أن يعود إلى منزله، وقد يحين وقت يحتاج فيه أن يستخدم فيه أداة الحنق مرة أخرى، ويجب على «جيلياد» أن يكون مستعدًا.

لن تتحدث «كاترينا» عن ذلك الحدث ولن تسأله عنه؛ فقد أخذت يدا «جيلياد» الضخمة فى يديها

الصغيرتين المرتجفتين، ونظرت إليه طويلا وهى تعام أنه لن يتحدث أيضًا عما حدث أبدًا ودفن السر عميقًا بيننا كأنسجة الجرح الملتئم.

«لابد أنك تشعر بالبرد يا «جيلياد»، ولا بد أنك تتضور جوعًا».

ولكنى كنت أتساءل، هل ستسمح لى بالمبيت فى فراشها؟ مثلما فعلت، أو حاولت، فتيات ونسوة أخريات؟ لكنى لم أكن أحبهن كما أحب هذه المرأة الآن.

فى ذلك المساء كانت ترضع الطفل النهم، وعروق صدرها زرقاء شاحبة واضحة للعيان، وانفطر لها قلبى حين رأيتها للمرة الأولى، وضحكت «كاترينا» كفتاة صغيرة على البلاهة، التى ارتسمت على وجهى، وطلبت منى أن أجلس مقابل الفراش وألا أقترب منه، وألا أتحرك وألا أتكلم، لذا جلست بلا حراك على مقعد بلا ظهر منحنيًا إلى الأمام وأنا أراقبها. لو سألتنى ماذا فعلت ونفذت من أجل هذه الرؤية فسأحار جوابًا، فقد ذهب كل شىء من عقلى كقطعة ورق تتلقفها الرياح.

تحوم حول رأسى ذبابة مترنحة تطن فى أذنى وتترنح من يقظتها فى شهر ديسمبر، ودفعتها بيدى بعيدًا وأنا لا أعرف ماهيتها.

مــلاك الرحمة

فى مملكة السكتات الدماغية والأورام

فالوصفة هى التداوى بروح الدعابة

(١)

توفـيت مـلاك الـرحـمــة فى شـهــر إبريل من عـام ١٩٨٤، ووجدوا بجوار جثمانها حقنة طبية تحوى آثار مـادة «سَكسـينيلكولـين»(*) الذى يعـمل علـى ارتخـاء العضـلات. وكـان جثمـانهـا ملتفًا على بعضـه وهـادئًا كأنها نائمة.

كـان من المـعـتـاد أن تشـاهـد مـلاك الرحـمـة فى السـاعـات الأولى من الصبـاح، وبالتـحديد فيـمـا بين السـاعـة الرابعـة والسـادسـة صبـاحًا، تقف فى نهـاية المـمـر بالدور الحـادى عـشـر المـضـاء بالنيـون حيـث

(*) Succiny Lcholine.

تتلاشى الحوائط فى الظلال، وتظهر باهتة فى ضباب أفق المدينة خارج المستشفى.

لم يسمع العاملون من الأطباء الجدد بقسم الأمراض النفسية والعصبية عن ملاك الرحمة قط، ولكنهم لمحوها أحيانا كالطيف على هيئة بخار يتدفق عموديًا أو ضباب متكثف رقيق يشبه الزفير، الذى يطلقه تنفس غريب، وتمشى أحيانًا بثبات ولكنها تبدو كأنها تنزلق كالمغشى عليها وهى ترتدى زيها الأبيض على طراز زى الممرضات فى الخمسينيات، وليس البنطال أو الثياب الفضفاضة مثلما نفعل اليوم أيًا كانت أعمارنا أو مكانتنا الاجتماعية، بل كانت ترتدى ثوبًا يضمه حزام وتنورة بسيطة تصل إلى منتصف سمّانة ساقها، وغطاء رأس أبيض اللون منشّى وصغير الحجم مثبت فى شعرها بالدبابيس، كما ترتدى حذاءً طبيًا أبيض اللون نظيفًا ذا نعل مطاطى يساعدها على الحركة بصمت وهدوء أثناء دخولها غرف المرضى، مبتسمة دائمًا ويملؤها الحماس شأنها فى ذلك شأن كل من تخرجن من مدرسة «ماونت سانت جوزيف للتمريض»(*) عام ١٩٥١، وجوربها طويل أبيض شفاف، ولكن احتكاكهما أعلى فخديها الممتلئين يجعلها تبدو أنها تلهث .

كانت ملاك الرحمة تعمل بقسم الأمراض النفسية والعصبية بمستشفى المدينة القديم العريق، الذى

(*) Mount Saint Joseph's Nursing School.

..لل على نهر «ميد وسترن» سيئ السمعة، الذى كانت
..تلقى فيه الملوثات الكيميائية، فى ذلك الزمن البعيد،
مما كان يؤدى إلى اشتعال المكونات الزيتية فيه
لارتفاع قد يصل لمسافة ثلاثين قدمًا.

لقد تحسنت الأمور عن ذى قبل، فقد مضى خمسون عامًا، والناس يسخرون منا بكل تأكيد، ويسخرون من هذه المدينة العتيقة كما يسمونها، كأن سكانها هم المسئولون عما حل بها من ركود؛ إنها لقسوة أن نلوم ضحايا التغير المناخى أو الحروب أو مرض السرطان على الكوارث التى ألمت بهم، واشتعال النهر أمر أصبح فى طى النسيان وقد تحسنت أحوال المستشفى بشكل كبير، وكذلك الروح المعنوية للعاملين فيها خاصة بعد أن أصبحت لنا نقابة. وصحيح أن رواتبنا ضعيفة والبعض يقول إنه يتم استغلالنا، ولكن برغم كل ذلك فقد أصبحت الأمور أفضل عما ذى قبل، وأنا شخصيًا لا أصدق أن ممرضة بعينها اسمها «آجنس» قد ارتكبت كل هذه الأعمال، أو أيًا كان من ارتكبها. كلا، لم أر ملاك الرحمة، فعندما تكون مرهقًا فى مناوبة ليلية فقد تتخيل أشياءً بجوار المصعد أو الخزانة الذى يقال إنها ماتت بجوارها، ولكن مثل هذه التهيؤات لا تعنى أنها موجودة بالفعل، وإنما تعنى أنك مرهق وعرضة لمؤثرات قد تكون غير حقيقية، ولأن فرصة الشفاء فى هذا الدور معدومة، ويحصد الموت حتى صغار السن من المرضى، فيصيبك الاكتئاب وقد تتخيل

أشباحًا. ولكن بالتأكيد أن الأمور تحسنت عما كانت عليه فى الخمسينيات، وقد يكون النهر مازال ملوثًا، لكن رائحته لا تزكم الأنوف مثل الفورمالين، كما أنه لا يشتعل ولن ينفجر فى وجهك إن ألقيت فى النهر سيجارتك المشتعلة. ويقال إن أنواعًا من الأسماك أو الرخويات بدأت تعود إلى مياه النهر، هى على أى الأحوال أنواع من الكائنات البحرية قوية الاحتمال بدأت تعود إلى النهر من مكان ما.

(٢)

قد تعتقد أن المرة الأولى هى الأصعب، أليس كذلك؟ ولكنها لم تكن كذلك، فعندما تم حدوثها كانت كأنك تصفع ناموسة (أدركت ذلك فيما بعد بدهشة شخص أمعن النظر من فوق سطح العالم، فارتسمت فى عينيه نظرة الذعر، التى ارتسمت فى عينى كلب هجين فى لوحة من لوحات الفنان «جويا»(*).

إنه فعل لا إرادى. الشفقة هى نكبة الإنسان.

(٣)

تخرجت الممرضة «ر» بتفوق فى شهر إبريل عام ١٩٩٩ من مدرسة «ماونت سان جوزيف للتمريض»، وهى فتاة شقراء جميلة ترتدى بنطالا أبيض وقميصا

(*) Francisco de Goya (١٧٤٦ ـ ١٨٢٨): رسام إسبانى، من أشهر لوحاته «النزوات» The Caprices (١٧٩٧ ـ ١٧٩٩) (المترجمان).

من نفس الخامة الخفيفة ولونها، وهى خامة تدخل فيها خيوط من النايلون تولد طاقة إستاتيكية عند كوعها وفخذيها، وشعرها منطلق بحرية تحت غطاء الرأس الأبيض، وأسندت إلى «ر» ذلك الصباح مهمة الغسل الرفيق لأجساد مترهلة مصابة بقرح الفراش باستخدام محلول البيروكسيد(*) (يا للرائحة الكريهة!)، وغسل شعر متيبس أو فروة رأس محرشفة، أو - وهذا ما يحزن - شعر يشبه زغب طائر حديث الولادة أزاحته الرياح من عشه، بفعل العلاج بالإشعاع بعد إجراء عملية جراحية فى المخ، وعندما يتأوه المريض ويرتعش كانت «ر» تهمهم له قائلة: «هل الماء ساخن جداً؟ هل هو بارد جدًا؟ هل تؤلمك يدى؟ هل أسبب لك ألمًا؟ هاك، أعتقد أن هذا أفضل» ؛ وعادة ما يكون المريض مثل هذه المريضة، التى كانت أنثى قوقازية فاتنة فى منتصف العمر، فهى الآن تطرف بعينيها ومرتبكة ولا تستطيع تذكر الكلمات، وتفكر معها «ر»: «الكلمات: كيف يمكن شرحها؟»

مستحيل، لا يمكن شرح الكلمات.

وتراقب الممرضات الأكبر سنًا فى «مدينة الهلاك» (وهو الاسم الذى يطلقه العاملون على الدور ١١) الممرضة «ر» بعين الرضا ويذكرنها دائمًا أن تؤدى عملها وتطيع الأوامر ولا تتدخل فى أمور الإدارة، فذلك ليس حقًا لأصغر ممرضة فى الدور.

(*) Peroxide Solution.

يتولى العرش فى «مدينة الهلاك» آلهة السكتات الدماغية والأورام؛ لقد أضحت الآلهة الأبوية شديدة القسوة .

لا يتحكم كثير من المرضى فى عمليات الإخراج (وتتعجب «ر» وتتساءل «هل عكس كلمة «لا يتحكم» هى «يتحكم»؟ ماذا تعنى هذه الكلمات؟») ويخبر الدكتور «س » الممرضة «ر» بأن المرحلة التالية بعد العجز عن الكلام هى توقف وظائف أعضاء الجسم حيث يحدث ضمور لخلايا المخ، فلا يمكن الشفاء من مرض تضمر فيه خلايا المخ مثل مرض «الزهايمر»(*)، حيث تصيب الشيخوخة خلايا المخ وتترسب فيها البروتينيات وتتشابك الألياف العصبية، ولا شىء بعد ذلك يمكن عمله لمساعدة المريض، ولن تساعده الأبحاث على جذع المخ لأن خلاياه لا تتجدد ولكنها تتحول إلى ما يشبه الفتات، ولأنه لا يمكن إعادة عقارب الساعة إلى الوراء، ينسى مريض «الزهايمر» طريقة التحكم فى الإخراج التى تعلمها منذ صغره، وقد ينسى طريقة تناول الطعام أيضا؛ فالنسيان هو أسهل شىء فى هذه الدنيا، والذاكرة معجزة عجيبة.

وأذعنت «ر» للاستماع إليه رغم عدم رغبتها فى ذلك ؛ ويعمل د. «س» طبيبًا مقيمًا للسنة الثانية ويكبر

(*) Alzheimer disease: مرض يصيب كبار السن ويسبب لهم النسيان، واكتشفه طبيب الأعصاب الألمانى «أ. ألزهايمر» Alois Alzheimer (١٨٦٤ ـ ١٩١٥) فى عام ١٩٠٧ (المترجمان).

«ر» بثلاثة أو أربعة أعوام فقط، وانحنى ليخبرها أن مرضى «الزهايمر» يفقدون القدرة على تناول الطعام، وإن وضعت طعامًا فى أفواههم فإنه يظل على ألسنتهم لأنهم نسوا ماذا يفعلون به.

وبالطبع، تعرف «ر» هذه الأمور لأنها ممرضة ولا تحتاج لمن يذكرها بها، ولم تعجبها ملحوظات الدكتور «س» لأنها تعلم أنه يقصد أن يربكها لكى تصبح مستهدفة للتأثير عليها وإغوائها، ومع ذلك ضحكت للدكتور، وبرغم برودة المستشفى فإن وجنتيها كانتا دافئتين، وهى تعتقد أن الدكتور «س» ينجذب إليها دون سعى منها، وأخذت تهمهم : «كيف يمكن للمرء أن ينسى كيف يأكل؟ فتناول الطعام نشاط غريزى يعرفه حتى الطفل، ولا يحتاج إلى ذاكرة، ود. «س» يقول لى إن أبقى فى «مدينة الهلاك» مدة كافية وسأعرف كيف». كانت أنفاس د. «س» أثناء حديثه تشبه رائحة شرائط المطاط تهب على وجهها.

وأقسمت «ر» إنها لن تفعل، ولن تصبح متحجرة القلب وساخرة ومكتئبة كالآخرين.

(٤)

اكتشفت مفكرة التمريض الخاصة بملاك الرحمة «آجنس أودواير» - وهذا هو اسمها - بعد وفاتها، وقد دونت هذه المفكرة بشفرة لم يتمكن المحققون من حل رموزها كاملة.

مارس ١٩٥٩ .

بدأت عامى الثامن من الخدمة.

وأخيرًا عرفت طريقى الذى قدّر لى.

هذه هى العلامة .

أعمال الرحمة مشفرة برموز.

فى مفكرة التمريض خاصتى.

لا أعتقد أن أحدًا سيكتشف ما أقوم به.

ولا أحمل أى خوف من أن تحاكمنى أى محكمة يقتص فيها للعدالة.

ولن يقع علىّ أى لوم.

إنها الرحمة تقترف لضحايا أبرياء وقع عليهم شرٌ آخر.

(«الإ - ه» الذى لا ينطق أحد اسمه الرهيب).

«آ».

(٥)

يمزح د. «س» قائلا: «كثير هم الذين لا يرون، ولكن القليل هو المختار».

فى ذلك الربيع الممطر من عام ٢٠٠١، تمشى منتصبة كالشعلة بين أسرة المرضى فى مملكة السكتة الدماغية والأورام بجوار النهر الملوث، وهى مفعمة بالصحة وروح التمرد والتحدى الذى تؤججه إستاتيكية النايلون وكهربية جاذبيتها الجنسية، ويراقبها آخرون عن كثب غير د. «س» بإعجاب وحسد.

إنها شابة متدفقة الحيوية.

ولكنها لن تظل شابة إلى الأبد.

لقد سمعت روايات عن ملاك الرحمة، وقد تسخر من تلك الحكايات وتعتبرها من أسخف الخرافات، فأنت فتاة مسيحية تحملين بذرة الخير بشكل ما ولا تؤمنين بالخرافات وليس فيك تعصب لشيء، وأنت «ر» الفخورة بعملها، التى يحدق فى وجهها المشرق المصابون بالسكتة الدماغية فى «مدينة الهلاك»، هذا إن كانت أعينهم قادرة على الرؤية، وتسمع دائمًا «صباح الخير!» مرارًا فى «مدينة الهلاك» قد يقولها عجوز يشبه بابا نويل بشعره وشاربه ولحيته التى تدفعك لمداعبتها، وليس مهمًا أن يكون فى الثالثة والتسعين من العمر يشبه مومياء تعانى من نوبات تنفسية، ولابد أن ترفعيه وتقلبيه فى فراشه الذى تنبعث منه رائحة الغائط على امل بلا جدوى بالتخفيف من ألم قرحة الفراش، ودائمًا ما تجدين فى - مدينة الهلاك - سيدة مسنة تذكرك بجدتك التى كنت تعشقينها، مصابة بسرطان المخ تنظر إليك بعينين زائغتين وتتعلق بك باشتياق كأنها تقول: «من أنت؟ هل أنت ابنتى؟ هل ستأخذينى إلى البيت؟» السكتة الدمّاغية والأورام والشيخوخة هم آلهة هذه المملكة.

أصبحت تفزعين أن تستنشقى رائحة الموز الفاسد أو اللبن المتخثر التى تنبعث من المرضى

الميئوس من شفائهم، وتخافين أن تلتصق الرائحة فى جلدك وفروة رأسك وشعرك، فالرائحة تتسبب فيها البكتيريا التى تتكاثر باطراد فى أفواه الرجال والنساء الموشكين على الوفاة.

يلامس جسدك الدافئ أصابع «ب» الباردة، ذلك الشاب الأعمى البالغ من العمر السادسة عشرة ومصاب باضطراب الأعصاب الحركى الحاد(*)، ويتلوى ويثرثر ويرتعش وهو جالس فوق كرسيه المتحرك ويتوسل إليها: «ساعدينى، تبًا لك، ساعدينى»، يقولها واللعاب يسيل من فمه ولا يستطيع الكلام، وتضطرين لإبعاد أصابعه الباردة عن معصمك وأنت تبتسمين ابتسامة تنم عن الأسى الشديد.

وفيما بعد فى الخفاء، تفحصين العلامات الحمراء التى تركتها تلك الأصابع اليائسة عليك، فلونها أحمر وردى تشبه البصمات التى تتركها ممارسة الحب.

تأتى السكتة الدماغية سريعًا وتلقائيًا كالبرق، وهى البرق الذى يصيب المخ، وهى وسيلة غير مؤلمة للموت إذا لم يصاحبها سبب آخر، ولكن يأتى فى أعقابها حبسة الكلام والخرف العقلى والشلل، ويصبح الموت أملا بعيدًا، حتى يأتى وقت ينطفئ فيه نشاط المخ أخيرًا ويموت «المريض»، الموت أخيرًا؟ لا داعى للفزع الذى يغمرك، تجاهل هذا

(*) Severe Chorea.

الإحساس وتحرر من مثل هذه الأفكار كما ينفض الجرو قطرات الماء العالقة بجسده.

وهناك أيضًا الأورام الخبيثة، التى تتكاثر بخبث كالصراصير فى هذا المستشفى القديم بجوار النهر، وإن استأصلتها فإنها عادة تعود وتظهر من جديد كالصراصير التى تنتقل حيثما شاءت، فهو ينتقل من القولون إلى اللحاء الدماغى، ومن البروستاتا إلى الكبد، ومن الثدى إلى الرئتين، وسرطان المرىء وسرطان المخيخ. تجول فى الدور الحادى عشر من المستشفى فى هذه الساعة المبكرة واذهب لترى حالات المرضى المتشنجين ذوى العيون المضطربة، والمصابين بتصلب العضلات الذين يتصببون عرقًا، وضحايا مرض «باركينسون» (*) المشلولين ؛ وأيضًا نماذج لأمخاخ خربة مشقوقة بعناية إلى نصفين، حتى إذا تحركت «ر» وهى مبتسمة بجدية من جانب إلى آخر بين أسرة المرضى، فترى تلك النماذج وتختفى فجأة فى الفراغ. ..

أيتها الممرضة ؟ أيتها الممرضة أين ذهبت ؟

(٦)

كانت ملاك الرحمة «آجنس أودواير» ذات الشعر الأحمر تأتى وتذهب من مثل ذلك الفراغ، ولم تكن

(*) Parkinsonism ويعرف أيضًا باسم Parkinson Syndrome وهو مجموعة من الاضطرابات التى تصيب الجهاز العصبى المركزى وتسبب الاهتزاز اللا إرادى للأطراف وأيضًا تيبس العضلات. (المترجمان).

تأتى فور استدعائها، ولكنها تأتى حين لا يتوقع أحد حضورها.

وإذا رأيت «آجنس» فلن تراها فى اللحظة التالية، وإن لم ترها فقد تراها بعدها بلحظة واحدة

هل من نراهم هم فقط الموجودون؟

(٧)

كان حادث تصادم مروع، وكان بمثابة التراجيديا المسلية حيث تصدرت أخباره صفحات الصحف الرئيسية ونشرات الأخبار التى يبثها التلفاز فى وقت كان أهل كل أنحاء الغرب الأوسط متعطشين لهذا النوع من التراجيديات المسلية؛ وما حدث أن شابا فى التاسعة والعشرين من عمره كان يتسابق فى سيارته «بورش» الرياضية التى تبلغ قيمتها ٧٥٠٠٠ دولار مع سائق شاحنة «دودج داكوتا» على الطريق السريع ليلا، وفقد سيطرته على السيارة وانزلق عن الطريق وارتطم بحائط من الأسمنت المسلح، وأخرجوه من الحطام بجسد لا يخلو من الكسور وجمجمة مكسورة ومخ مصاب، وتم نقله من مكان الحادث إلى المستشفى القديم الواقع بالقرب من النهر فى سيارة إسعاف، خضع بعدها لعملية جراحية فى المخ استغرقت بضع ساعات ثم انتقل إلى غرفة العناية المركزة لعدة أيام، وهو الآن فى الغرفة رقم ١١٠٤ . وجلست « ر» تحدق فى الجسد المسجى بلا حراك على الفراش : لا، لن أشعر بحب أى مريض،

ايس مثل هذا المريض، فعلى الممرضة أن تتحاشى العواطف والتعلق الشخصى. أثنى علىّ كثيرون لكونى ممرضة كما يجب أن تكون.

لن ترضى « ر» بمثل هذا الرجل ولا تقبل أسلوب حياته. فهو ينتمى لطبقة اجتماعية مختلفة يرفض الناس التعامل معها. أما هى فقد كان أبوها عاملاً فى شركة خدمات لمدة ٤٠ عامًا، وعانى من ضعف الأجور ودفع مستحقات النقابة وتجمد معاشه خمس سنوات قبل تقاعده ؛ أبوها الذى تحبه فى منتصف السبعينيات من عمره الآن. وأصيب بمرض «باركينسون» وتضخّم الرئتين(*) الإمفيزيما.

لا. لا يمكن أن توافق «ر».

ومع ذلك كانت ترى صور الرجل فى الصحف، وتردد اسمه كثيرا فى التلفاز، وما قيل عنه إنه كان يقود سيارته «بورش» بسرعة ٩٠ ميلا فى الساعة وسبق سائق الشاحنة «الدودج». عرفت «ر» هذه الحقائق وغيرها عن «ماركوس روبر» قبل أن يصبح تحت رعايتها، وقبل أن يكون هناك أى تصور أنه سيكون مريضًا تحت رعايتها.

«ماركوس روبر». ..

من الواضح بجلاء أنه لن يعود كما كان بعد الآن، فهو جسد لا تستطيع أن تحدد له نوعًا أو جنسًا أو

(*) Emphysema.

عمرًا ملفوف بالشاش والأربطة، وخامد ككومة من ملابس تحتاج للغسيل. لا نفع لساقيه المكسورتين الآن، فقد قدّر لهما أن يضمرا ويصيبهما التيبس إلا إذا عاد إليه الوعى سريعًا، ولكن أين ذلك الوعى! وهناك شائعة تقول إنه تحت أربطة وجهه لم يتبق سوى ثلث وجهه الذى تهشم، وأنه فقد أذنه اليسرى لم يتبق منها إلا شريحة ضئيلة من اللحم، وقد وضعت رأسه فى ضمادات لمدة ٧٢ ساعة بعد عملية جراحية للأعصاب، وعلق فيها أنبوبان، يشبهان قرنى استشعار حشرة كارتونية، متصلان بحاويتين من البلاستيك لتلقى الدم الناضح من الجمجمة، التى شقّت وتمزقت ثم خيطت بعدد من الغرز، وكانت « ر » ملزمة بإزالة ذلك الدم. وبرغم إصاباته الشديدة، فإن بعضًا من وظائفه الحيوية صمدت ولكن بشكل مختلف، فجفون عينيه تهتز وفمه المشوه يلتوى كأنه يستجيب أحيانا للكلمات والمنبهات.

وعادت « ر» إلى الغرفة بعد عدة أيام لتجدها خاوية، فقد نقل المريض إلى غرفة العناية المركزة بعد تعرّضه لعدوى من المستشفى أصابته بالحمى، وارتفعت درجة حرارته إلى أكثر من أربعين درجة مئوية وأوشكت وظائفه الحيوية على التوقف، ولكن قلبه ظل قويًا ولم يتوقف عن النبض.

وعادت «ر» إلى الغرفة ١١٠٤ فى يوم آخر، وكان «روبر» قد عاد إليها. حين سقط عليه ظلّى اهتزت جفون عينيه، ورفع عينيه اللتين لا يرى بهما نحو

وجهى، وسرت فى جسده رعشة كأنه عرفنى كما عرفته فى هذه اللحظة.

(٨)

أغسطس ١٩٦٤

أعمال الرحمة المدونة فى هذه المفكرة.

من ستة أعمال رحمة لم يكتشف أىّ منها.

لأن الممرضة «آجنس» حذرة وتتصرف بدافع من الحب.

فى قداس الموتى أركع وأتلو صلواتى على المسبحة.

وأوجهها للسيدة مارى العذراء، التى كانت ممرضة مثلى.

أطلب منها أن تصلى من أجل روحى.

صلاة لا يسمعها «الإ ـ ه».

«آ»

نوفمبر ١٩٦٧

(تتسرب الأشعة من غرفة الإشعاع).

لذلك تم استدعائى. وقمت بحماية نفسى.

بطبقة مزدوجة من الملابس الداخلية، والجوارب، وقبعة مشغولة من الصوف

تحت غطاء الرأس.

(أعرف أن البعض ممن أعرف يسخر منى ولكنى لا أبالى بهم).

من أجل عيد الشكر فى وقت أعانى فيه من الوحدة.

«آ».

يونيو ١٩٦٩ .

الشفقة هى نكبة الإنسان.

الشفقة تتكاثر كما البكتيريا على الجروح المتقرحة.

فليشتد قلبك أيتها الممرضة «آجنس» ويزداد صلابة.

«الإ - ه» لا يعرف الشفقة.

«آ»

(٩)

«آجنس أودواير» ذات الوجه الشاحب المألوف الذى ينتشر فيه النمش على نمط ما كان سائدًا فى الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين، وكان غالبًا فى النساء عن الرجال. كانت «آجنس» تتمتع بيدين ماهرتين وظهر قوى، وبنظرة غير مدققة لها ستراها كأنثى عجل تقف على قائمتيها الخلفيتين، لذا تصيبك الدهشة من إتقانها للعمل ولطفها، ودائمًا هناك نوع من القبول لفظاظة بعض الإناث العاملات.

ولم يكن صحيحًا ما قيل عن أن «آجنس أودواير» ان أحدًا لم يقبّلها.

ولكنه صحيح أنها ماتت فى سن التاسعة والأربعين ولم تزل عذراء.

كانت «آجنس» فتاة بسيطة كفتيات الكشافة حتى فى أربعينيات عمرها، لم تشكو إلا نادرا وتفضل الصمت، ومع ذلك لم تتجهم أبدا عندما كانت تؤدى أصعب المهام فى عملها كممرضة (كالتغسيل بمحلول البيروكسيد، وتنظيف مكان قرح الفراش والنزيف المفاجئ وحالات القىء المستمر، وتغيير حفاضات المرضى وخلافه) ولم يقدّر لها أن تتزوج أبدا، وكرست حياتها لرعاية والديها المسنين المريضين المتعلقين بها طوال حياتها ولم تشكُ منهما أيضًا؛ ويتساءل البعض: ألم يكن فى استطاعة أخواتها المتزوجات مساعدتها فى المنزل لبعض الوقت؟ وماذا عن أخيها الحاصل على شهادة المحاسبة العامة، الذى انتقل ليستقر فى «سان دييجو»، فهل هذا عدل؟ ولكن «آجنس» تضحك ويحمر وجهها خجلا ثم تنظر بعيدًا نظرة يملؤها الإحراج.

هناك أمور تظل حبيسة فى القلب لا يمكن للمرء أن يتحدث عنها.

فلا توجد كلمات مناسبة ولا تستطيع الكلام.

يمكنك أن تتصرف ولكن لا يمكنك الكلام.

ونالت «آجنس» حب الأطباء الأكبر سنًا، الذين لم يعرفوا سوى اسمها الأول، أما الأطباء الأصغر سنا فقد نسوا اسمها مع مرور السنوات، وكان شعرها الأحمر وجسدها البض محل إعجاب الرجال من موظفى المستشفى حتى تعدت سن الثانية أو الثالثة والثلاثين، إذ من الصعب عندئذ تخيّل «أجنس» ككائن ذى جاذبية حسيّة، فكيف يمكن لرجل الاقتراب من هذا الجسد المترهل وهذا الصدر الضخم وهذا الفك الغليظ ؟ وكيف يمكن تقبيل هذا الفم الخجول الكئيب المفتوح؟

فبراير ١٩٧١ .

أيتها العذراء مارى أريد أن أقوم بعمل خيّر.

أعتقد أنه شيء سهل.

هو أكثر الطرق المباشرة لمنح الراحة.

وهى أن أساعد المرضى.

وأرى ذلك فى عيونهم.

«آ».

(١٠)

«السيد «روبر»؟ «ماركوس».

بدأت عين السيد «روبر» اليسرى تفتح مع مرور الوقت، عين رمادية معرّقة بخيوط دموية، ومع مزيد من الوقت فتحت كلاهما رغم أنها لا تركز على شيء،

وعينه اليسرى تتحرك كأنها فكرة شاردة، وأرادت «ر» أن تلمس الوجه المشوه، واسترجعت ملامح الوجه الوسيم، الذى رأته فى عناوين الأخبار الرئيسية وحاولت أن ترى ذلك الوجه فيما تراه أمامها، الذى بدا كأنه مخيط من مجموعة جلود غير متجانسة، وأنفه تضاءل حجمها مع أن ثقوب أنفه واضحة بما يكفى لإدخال أنبوب التنفس، ولكنه الآن يتنفس بصعوبة ولكن دون مساعدة، وكان نظام تغذيته هو الغذاء السائل من خلال أنبوب، ووضعت لهذا المريض قسطرة لتصريف البول من جسده، وعرفت «ر» من د. «س» أن «روبر» استأصل منه الفص الجدارى فى النصف الأيسر من المخ، إما بعد الحادث أو أثناء العملية بمشرط الطبيب (حضر د. «س» العملية الجراحية التى استغرقت ٦ ساعات و٤٠ دقيقة). كثيرًا ما لاحظت «ر» وجود زَبَد أحمر يخرج من فم المريض كأنه بقايا لغة بدائية.

«ماركوس».

اقتربت «ر» من فراشه ذى الظهر العالى، الذى يشبه الضريح، وأمعنت النظر إلى الجسد الساكن الراقد أمامها، وشعرت شعورًا جارفًا أنها تداخلت فى نوم هذا الرجل وأنها موضع ترحيب.

لم يمت، ولكنه لم يستعد ما يمكن أن يقترب من الوعى المستقر.

وبرغم ذلك كانت وظائفه الحيوية قوية وكذلك قلبه، ولا يزال مخه المصاب محتفظا بنشاطه! بم كان يحلم؟

«صباح الخير!».

وتخيلت «ر» أنها ترى اهتزازًا خفيفًا فى جفن عينه اليسرى. وقتئذ، وبعد أيام عديدة من الألفة، استطاع السيد «روبر» أن يتعرف على صوتها.

ومن الغريب أن «ر» استطاعت أن تنسى بسرعة رفضها لـ «ماركوس روبر»، الفتى الثرى المدلل، الذى كان يتسابق مع فتى آخر على الطريق السريع بسيارته «بورش» وقيمتها ٧٥٠٠٠ دولار معرضًا حياته وحياة الآخرين للخطر، وكان من الممكن أن يموت بسهولة فى الحادث وكذلك الشخص الآخر، ولكنه عنيد ولم يمت، وهو فى «مدينة الهلاك» التى تضم المضطربين والمتصلبين وفاقدى الوعى هو الأكثر وسامة، لأنه ليس من الهالكين، فهو صغير السن، وسيعيش وقد ظنت «ر» فى بادئ الأمر أن «روبر» لن يستعيد عافيته بأى حال من الأحوال ولكنها بدأت تعتقد أنه قد يشفى، وسيشفى، لأن ما أصاب مخه من تلف لم يكن نتيجة مرض، ومن الممكن أن يتعلم الكلام من جديد وقيادة السيارات. ..

احتفظت «ر» بقصاصات الصحف التي نشرت صور «ماركوس روبر» قبل وقوع الحادث، الذى سيظل دائمًا وجهه الحقيقى فى ذاكرتها ليكون عزاء لها عما

ابقى من وجهه الآن، وتخاطبه «ر» كثيرًا بصوت دافئ مشجّع وتقول له: أنا أعرفك وأعرف من تكون يا «ماركوس»، وهى فى ذلك تفعل ما تفعله أى ممرضة تجلس بجوار مريضها النائم. كانت منجذبة للاسم ذى المقاطع الأربعة: «ماركوس روبر» كأن اسمه بيت من الشعر يحمل معنى خاصًا وشخصيًا. فالاسم «ماركوس» اسم غير شائع ويعطى انطباعا أن الشخص أجنبى، وأصبحت تردد الاسم كأنه تعويذة بصوت خفيض يهتز طربًا فقط حين تكون بمفردها مع المريض فى الغرفة ١١٠٤ (وتكون متيقنة إلى حد كبير أن لا أحد - المارة فى الردهة مثلا - قد يسمعها).

لم يستجب السيد «روبر» لصوت «ر» (بعد)، رغم جفنيه اللذين يتحركان حركة خفيفة، ولا بد أن «ر» لا حظت ذلك عن قرب.

أصاب أقارب المريض الإرهاق من طول السهر عليه ومراقبته، ولم يكن ذلك مستغربًا فى «مدينة الهلاك»، ومثل هذا السهر يصبح عادة يقظة للميت الحىّ، أو الحىّ الذى سرعان ما سيموت؛ وأقارب «ماركوس روبر» من ذلك النوع، حيث يجلسون مكتئبين ومرهقين ولا يرفعون أعينهم عن الرجل الفاقد لوعيه بخوف وجزع ورهبة، ولاحظت «ر» حين كانت تضطر للدخول أحيانا على «روبر» المحاصر بأقاربه النائحين أنه يستغرق فى غيبوبته، ويصبح أكثر

ارتياحًا حين يذهبون، ويصبح هو و «ر» معًا بمفردهما.

(١١)

أصلى لأجعل قلبى أكثر صلابة. ولكن كيف؟

اعتقدت ملاك الرحمة «آجنس» أن المرة الأولى هى الأصعب فى التنفيذ ولكنها لم تكن كذلك، فقد تم الأمر كأنها أبعدت حشرة طائرة، أو ناموسة تئز فى أذنها وحول عينها فلا يكون منك إلا أن تضربها وتمسح آثارها بمنديل بالقرب من فمك، وترى حينئذ أنك قتلتها وسحقتها على جلدك.

ولا يمكن لملاك الرحمة تحديد هوية ضحيتها الأولى، «آجنس» فقط هى التى تعرف، وتعرف أيضا الضحية الثانية.. والثالثة، ولكن هل كان عددهم الإجمالى ثمانية عشر، أم ثلاثًا وعشرين كما اعتقد بعض المحققين، أم أكثر؟ بعد وفاتها أطلق عليها اسم «ملاك الرحمة»، ولكن «آجنس» (بالطبع) لم يكن معروفًا عنها أنها ملاك أثناء حياتها، فقط «آجنس أودواير» الممرضة المتمكنة فى عملها.

لم يطلق عليها ذلك الاسم فى حياتها، بل «فور» وفاتها التى مضى عليها ما يقرب من ثلاثين عامًا الآن؛ إن ملاك الرحمة روح كبخار الماء أو كفيروس متوطن فى المستشفى ولكنها ليست شبحًا، هذا إذا كنت تعتقد فى مثل هذه الأمور.

تتذكر الممرضات القدامى «آجنس» دائمًا، ولسان حالهن يقول لا يمكن أن يكون من فعل هذا هي «اجنس أودواير» أو أىّ منّا، أيّا كان من رآها تحمل حقنة طبية؛ لا، ليست «آجنس»، فنحن نعرفها ولن نصدّق أىّ اتهام موجه إليها.

كانت «آجنس» كالفيروس أو العدوى التى تتوطن فى المستشفى، فإذا كان جهاز المناعة ضعيفا فستستنشقه ويتمكن منك.

أثناء الساعات الهادئة، التى تسبق بزوغ الفجر فى وحدة العناية المركزة الخاصة بالأمراض العصبية، رقدت مريضة مسنة مصابة بسكتة دماغية، يخرج من حلقها أنبوب مطاطى ماصّ طويل لشفط الإفرازات المخاطية التى تسد الحنجرة، ومن شدة رائحة التعفن فكرت الممرضة أن تخنق المرأة بنفس ذلك الأنبوب المطاطى رحمة بها؛ ذلك فعل من أعمال الرحمة لن يقدم عليه «الإ ـ ه» ولكنها أقدمت عليه بغير تعمد ودون مسمى، وبعدها أقنعت الممرضة الصغيرة المرتبكة نفسها أنها قامت بعمل لائق فى أول مواجهة مع الموت، وواظبت على الإشارة إليه بالرمز فى مفكرة التمريض خاصتها ؛ ولن تكون تلك هى المرة الأخيرة.

ولم يكتشف أحد ما تفعله ملاك الرحمة لمدة ١٥ عامًا لأنها لم تكن موضع شك، فالمرضى مشرفون على الموت أو يكادون، ودائمًا ما ترتكب هذه الأفعال

مع المرضى الذين تسوء حالتهم فى الليل أو على وشك أن تسوء خلال بضع ساعات؛ وخلال ثلاثة وعشرين عامًا قضتها فى المستشفى المطلّ على النهر، سجّلت «آجنس» العلامة Lعن كل عام، وبالطبع اضطرت أن تضاعف العدد فى بعض الأعوام لأنها بدأت عملها متأخرًا بعد ثمانى سنوات من اشتغالها بالتمريض عام ١٩٥٩؛ إنه شىء يحدث، ومن الخير أن تطرد الشر، وأنا آتى بالرحمة لمن يعانون، أنا الرحمة.

(١٢)

«إنه يوم جميل يا سيد «روبر» أتمنى أن تتمكن من رؤيته، ولكنك سوف تراه قريبًا، فالسماء صافية إلا من بعض السحب البيضاء المتناثرة التى تشبه الزغب»، ولكن ما كانت «ر» تراه حقيقة خارج النافذة المرقشة بالسخام التى يرقد فيها «ماركوس روبر» هو كومة من الضمادات المتسخة، ولم تكن هنالك حاجة لأن يعرف «ماركوس»، وتابعت حديثها: «والرياح تأتى من الجنوب الشرقى قادمة من «تينيسى» حيث الجبال، لم يصبها التلوث»؛ لقد أدت «ر» أخلاقيات عملها بنشاط دون أن تظهر مشاعر واضحة للمريض، وأمسكت بمعصم المريض الأيسر وضغطت بإصبعها السبابة عليه لقياس النبض، الذى لم يكن منتظمًا ولكنه قوى، وكان ظاهرًا على شاشة فى الغرفة ١١٠٤ وأخرى فى مكتب المراقبة الخاص

بالممرضات. كان هذا النبض إشارة بينهما وبيان للألفة غير العادية التى نمت بينهما، وشعرت «ر» بسعادة غامرة لإحساسها بأنها ملكت قلب الرجل فى يديها، ولم يكن أحد ليعرف ذلك سواهما : «ماركوس روبر» و «ر».

لابد الآن من تبديل كيس التغذية الوريدية الفارغ الموصل بأنبوب إلى ذراعه المصاب، وعليها تفريغ الحاوية البلاستيكية أسفل الفراش التى امتلأت ببول السيد «روبر» وفاحت رائحتها وتفريغها فى المرحاض، وهى تقوم بمثل تلك المهام التمريضية باستمتاع وحماس كأن «ماركوس روبر» يراقبها ؛ قد تحدث معجزة، حتى فى «مدينة الهلاك» .

قالت بصوتها الخفيض الدافئ «يجب أن أذهب الآن، ولكنى سأكون هنا فى الدور، وسآتى لفحصك مرة أخرى وغدًا صباحًا أيضًا بالطبع، سأعود دائمًا يا سيد «روبر». تذكر هذا!».

اهتز جفناه، والتوى الجفن الأيسر وبدا كأنه فتح بمقدار بوصة، ولكن ما ظهر داخل العين سائل باهت مستقر فى محجر عينه المصابة.

وغادرت «ر» الغرفة ١١٠٤ فى صمت وهى تمشى بخفة متناهية فى حذائها ذى الكعب المطاطى.

أنا لا أحبه، لا يجوز أن أحب مريضًا، وليس هذا المريض.

وعند مصاعد المستشفى فى الساعة التى تسبق طلوع الشمس، شعرت «ر» بموجات من الهواء البارد ورائحة قريبة من رائحة سائل «لايسول» المطهر، كأنه تكاثر لا مرئى لبكتيريا الموت، واضطرب قلبها ولكنه لا بد أن يستمر فى الخفقان، ما زالت «ر» صغيرة السن فى السادسة والعشرين من العمر ولابد أن تصمد، فهى تسعى أن تكون ممرضة متمكنة فى عملها؛ وأغلقت عينيها وشعرت بدوار من الإرهاق وهى ترفض من داخلها أن ترى الطيف الشفاف، الذى يومض فى نهاية الردهة.

وفتحت باب غرفة الخزين بعد مرور ثمانى وعشرين سنة وخمسة شهور وستة عشر يومًا منذ اكتشاف جثة «آجنس أودواير»، وأرجعت أسباب الوفاة إلى أنها حقنت نفسها بما يوقف وظائف القلب والرئتين.

(١٣)

فى ديسمبر ١٩٦٩، دلفت إلى غرفة منخفضة الإضاءة تعبق بالرائحة المعتادة لأجساد مريضة، دخلت بلا صوت وهى تتنفس بهدوء، وفى يدها حقنة طبية جاهزة تحتوى على مهدئ عضلى من نوع جديد يحمل الاسم التجارى «أنيكتين»(*)، يقال أن آثاره تختفى سريعا فى مجرى الدم ولايظهر له أثر فى تحليل الدم الروتينى ويسبب توقف الرئتين عن

(*) Anectine.

التنفس، وتلك ميتة طبيعية لمثل هؤلاء المرضى، فمن سيرتاب فى الأمر؟ فى هذه الغرفة ثلاثة مرضى، اثنان مصابان بسكتة دماغية والثالث أجرى عملية إزالة ورم فى المخ، اثنان من المسنيّن والثالث فى منتصف العمر؛ ليس مهمًا أن تكون الضحية رجلا أو امرأة فملاك الرحمة لا تفرّق بينهما، وهى فى موسم عيد الميلاد تتملكها الرغبة أن تقدم هدية لأشد المرضى معاناة، ولكنها لن تخاطر بأكثر من واحدة خوفًا من أن يفتضح أمرها، فلا يزال أمامها كثير من العمل الشاق وسنوات من التسلل والحذر فى «مدينة الهلاك».

وابتسمت ملاك الرحمة للمريض الراقد على الفراش فى الناحية البعيدة من الغرفة كأنها تقول أنت من وقع عليه الاختيار، وجهزت الحقنة وبأصابعها المتمكنة حقنت المهدئ "أنيكتين" فى حاوية الجلوكوز الموصولة بساعده المتورم.

هذه هى الرحمة التى نسيها «الإ ـ ه»، فليس لديه وقت كافٍ ليصب رحمته على البشر الذين تعجّ بهم الأرض، رغم أنه هو خالقهم.

(١٤)

من السخف الاعتقاد أن الممرضة «ر» قد تدخل علاقة حب مع مريض فى «مدينة الهلاك»، لأن لها حبيب فعلا هو «د» الذى تقدر انعزاله وتفاهته، كما تقدر فيه حقيقة أنه مثل أغلب الناس لا يعرف الكثير

عن مهنة الطب، وليس لديه أى وعى فعلى بفكرة الفناء على وجه العموم، ناهيك عن فنائه هو شخصيًا. ولم يكن «د» يعرف الكثير عن المستشفى القديم المطل على ضفة النهر الملوث، وكثيرًا ما تباهى أنه لم يدخل مستشفى قط ونادرًا ما يصيبه المرض وإن كانت نزلة برد، وتبتسم «ر» لتفاهة «د»، إذ تعتقد أن تلك التفاهة طبيعية فى أنواع الكائنات الحية، وكانت تناشد «د» بالإشارة أن يمارس معها الحب، لأنها لن تنجو من مصير ينتظرها إن لم يفعل.

من السخف حقًا الاعتقاد أن الممرضة «ر» قد تدخل علاقة حب مع أى مريض فى «مدينة الهلاك».

(١٥)

الغثيان من اللحم.

بدأ ذلك فجأة، ولم تكن مهيأة لذلك، لماذا؟

غسل الأجساد المترهلة، وشفط المجارى التنفسية والدخول إليها من الأفواه التى تفرز زَبَدًا كثيفًا، والتربيت على العضلات الضامرة للوصول بها إلى ملمس الخبز المخبوز جيدًا؛ فجأة أصيبت «ر» بالغثيان وأدركت أن شيئًا ما بداخلها ـ داخلها البيولوجى أو داخلها الفطرى ـ قد تبدّل إلى الأبد.

تحركت شفتاها لتنطق تلك الكلمة القبيحة: «اللحم»، اللحم بأنسجته الليفية اللينة، وهو مكوّن الجسد، ذلك الكيان اللحمى المختلط بالدم، تلك

الرائحة اللزجة للحم (النيئ)؛ لحم فى الفم وقطع من اللحم تستقر بين الأسنان؛ شعرت «ر» بالغثيان وهى تنظر إلى قطعة اللحم الموجودة فى طبق أمامها، ثم نظرت إلى فم «د» الذى يتلمظ وهو يمضغ طعامه.

(١٦)

رأى الجميع أن المريض فى الغرفة ١١٠٤ يحتاج لمعجزة كى يسترد وعيه، وحتى إن استردّه، فيما بعد ذلك هو...

وتسمع «ر» لتلك الآراء ولكنها تلتزم حدودها، فهى ليست مجرد ممرضة متهورة صغيرة السن حتى تختلف فى الرأى مع من يكبرها مقامًا، وتعلمت أن تطيع أوامر الأطباء دون مناقشة، ومع ذلك فقد قالت: «تحدث معجزات أحيانًا إذا ملأ الإيمان قلبك، فالسيد «روبر» ما زال شابًا». قالتها بعتاب واضح جعل الممرضة التى تكبرها تنظر إليها بدهشة.

(١٧)

كانت «ر» شابة في السادسة والعشرين من مواليد شهر يوليو عام ١٩٧٦ .

لقد ولدت «ر» بعد عامين من اكتشاف جثة «آجنس أودواير» الباردة الساكنة وتفترش عددًا من المناشف على أرضية المخزن الموجود فى طابق «مدينة الهلاك».

لا تعرف «ر» شيئًا عن «آجنس أودواير».

ولم تر أية صورة لها من قبل، أو حتى صورة شبيهة بـ «آجنس أودواير».

لقد ضاقت «ر» ذرعًا بالشائعات والقيل والقال والخرافات، ولذلك كانت تستدير مدبرة وهى مستاءة وذاهلة حين يأتى الآخرون على ذكر ملاك الرحمة (هؤلاء الآخرون كانوا من مساعدات الممرضات من أصل جاميكى ذوات الضفائر المجدولة والأعين اللامعة، وكذلك بعض الممرضات الأكبر سنًا... «ر» ناقمة عليهن: أتحسب هؤلاء النسوة وهن الممرضات المعتمدات أنهن عالمات أيضًا ببواطن الأمور؟!).

إن «ر» تشعر بالفخر أنها خريجة مدرسة «ماونت سان جوزيف» للتمريض فى عام ١٩٩٩، تلك المدرسة التى تعدّ من أعرق مدارس التمريض فى الولاية (تخرجت «آجنس أودواير» أيضاً من تلك المدرسة عام ١٩٤٩، ولم يكن الاسم الرهيب «آجنس أودواير» ينطق داخل تلك المدرسة ولو على سبيل الدعابة). تخرجت «ر» بتقدير ممتاز وحازت المرتبة السادسة على فصلها الذى ضم ٦٦ فتاة فقط)، ولم تكن «ر» كاثوليكية (وقد قيل عن «آجنس أودواير» إنها لم تكن كاثوليكية)، ولكن «ر» تعتبر نفسها مسيحية تؤمن بيسوع المسيح وبفكرة التخليص من الذنب، كما آمنت أن الحياة العائلية والولايات المتحدة الأمريكية

والديمقراطية سبب على جانب كبير من الأهمية لإنجاز وظيفتها ومهامها كممرضة ولتحقيق ما يتوقعه الآخرون منها، وكانت تشتعل غضبًا إذا سألها أحمق ما متعمدًا عن سبب تفضيلها لمدرسة التمريض على مدرسة الطب، وما أدراك أنت أيها الجاهل بحياة الممرضات؟

(١٨)

صدمت «ر»، فوالدها الذى تحبه والذى بدأت شمس حياته فى المغيب، صدمت من الرائحة التى تنبعث من جسده، تلك الرائحة التى تعرفها جيدا فى «مدينة الهلاك»؛ لا بد أن أحبه أكثر، لابد أن أحبه لأنقذه .

كان والد «ر» يتميز غضبا من شلل اليدين، ومن نوبات السعال التى تجعل وجهه محمرًا وتصيبه بالاختناق، ولكن الطعام كان يهدئ من روعه، فقد أصبحت شهيته كشهية الأطفال عندما تقدم فى السن وأصبح يحب الحلوى والآيس كريم والكعك المحلّى والخبز المغموس فى المربى، وكذلك اللحم، حيث تقطعه له «ر» قطعًا صغيرة، لأنه والدها الذى تحبه.

قال لها أبوها فجأة «كلى أنت هذه القطع، وضعيها فى طبقك أنت. كلى أنت هذا اللحم، أهذه لعبة جديدة من آلاعيبك؟ طعام نباتى...هراء».

وصدمت «ر» لما أصاب والدها من تغيير، وإدراكه الذى أصبح طفوليًا فجًا، فقد كان دائمًا رجلا قليل

الكلام ويعطى انطباعًا أنه رجل ذو كرامة جريحة، رجل عامل ذو أيدى غليظة، ولكنه الآن يأمر وينهى، ومتيقظ لدرجة مثيرة للأعصاب، ويبدو أنه نسى أن «ر» قد شبّت عن الطوق وأنها ممرضة بوظيفة ممتازة. دفع والدها الطبق نحوها بعنف كأنه أراد أن يسكبه عليها، وحاولت «ر» أن تتصنع الضحك ولكنها لم تحتمل أن تأكل اللحم، فهى تشعر بالغثيان لمرأى الآخرين وهم يأكلونه والدهن يغطى أفواههم وأسنانهم تمضغه كالوحوش.

وانتقدها والدها مرة أخرى قائلا بنبرة ساخرة: «أتعتقدين أنك أفضل منا؟ لا، لست أفضل منّا».

إنه العمر، والمرض. سأفيض عليه من حبّى، وسأظل أحبه كما تعوّد دائمًا .

(١٩)

تومض ملاك الرحمة فى ملابسها البيضاء من خيوط النايلون وتضيق على الصدر والأرداف، وتورم كعباها من سنوات العمل المضنى فى «مدينة الهلاك»، وقد ضحت بشبابها فيها، إنه أمر فى غاية السهولة أن تمنح الراحة، تلك هى ملاك الرحمة التى تنبعث من فمها أنفاس ساخنة متلاحقة لم يرغب رجل واحد أن يقبله لعقد أو يزيد، وتعانى فى بعض الأحيان من صعوبة فى فهم الكلمات، كلمات قد يكتبها الأطباء أو فى الصحف أو فى الكتب (هل فتحت «لآجنس أودواير» كتابا قط؟) وأحيانًا ما كان

لسانها الثقيل يخونها فى بعض الكلمات وتخطئ فى نطقها رغم أنها تعرفها جيدًا، فتوقفت عن معرفة أسماء المرضى وكانت تخلط بين أسماء العاملين فى المستشفى، فتنادى على بعض الممرضات أو بعض أعضاء طاقم الأطباء بأسماء أشخاص تقاعدوا أو لم يعد لهم وجود ؛ ملاك الرحمة كانت تتعثر أحيانًا فى حذائها ذى الكعب المطاطى، وكثيرًا ما كانت تقوم بأفعال خرقاء كإفلات الأشياء من يدها أو وضع الأشياء في غير أماكنها ؛ ولكنها فى الخفاء كانت مجازفة بإتقان وجرأة (تبتسم «آجنس» وتفكر فيمن يستطيع أن يتصور ذلك). كأنها على استعداد (أو تتمنى) أن يفتضح أمرها، فقد اقترفت أعمال الرحمة مع مرضى لم يكن متوقعًا وفاتهم بهذه السرعة أو أن يموتوا أصلا، فلم يكونوا فى حال احتضار ولكنهم كانوا بصحة معقولة إلى حد كبير... أنا الرحمة، لا تقاوم الرحمة؛ تقولها وهى تبتسم لضحيتها.

أتقنت «آجنس» على مدار السنوات تكنيك عملها الرحيم، وأصبحت أداة سحرية تجلب الموت، ومن المحتمل أن تلك الأفعال لم تكن دائماً بدافع الرحمة، فقد تكون يداها هى التى تقوم بإرادتها الخبيثة ؛ فأحياناً ما تحقن المرضى بجرعات مميتة من مهدئ العضلات أو المورفين أو مجرد حقن الهواء فى القلب مباشرة، أما براعتها فقد كمنت فى استخدام الوسادة (لا يعرف الشخص العادى ما تعرفه

الممرضة بأن الوسادة أكثر الوسائل الناجعة بين كل أسلحة القتل، والأصعب اكتشافا).

ونظرت إلى المرآة ورأت وجهًا قبيحًا شاحبًا ومليئًا بالنمش ويشبه ثمرة اللفت التى لم يكن لها جذور فى الأرض، وأظهرت أسنانها فى ابتسامة خائفة: «هل أبدو كشخص قد...؟»، لقد كانت تتخيل من سيتهمها، وتتصور أنهم سيتفرّسون فى وجه «آجنس أودواير» وهى ترتدى زى التمريض الأبيض، ولكنهم لن يروها على الإطلاق .

(٢٠)

السيد «روبر» يستحم فى الغرفة ١١٠٤، ماركوس يستحم.

رغم أن احتمال دخول هذه الغرفة الخاصة ضئيل جدًا هذه الساعة، فإن «ر» أسدلت الستائر حول الفراش؛ وبدأت تغسل الأطراف بلطف، والعجيب أن الجسد كان ذكوريًا ثقيلا، ثم غسلت منطقة الشعر الخشن بين الفخذين وجذر العضو الذكرى والخصيتين، وأحيانًا ما لاحظت «ر» عندما تحمم السيد «روبر» (البالغ من العمر ٢٩ عاما فقط) أن عضوه يتحرك حركة لا إرادية، ويبدو لها تسارع أنفاس أيضًا، كأن يتأوه بعذوبة واشتياق، فتبدأ «ر» بترديد اسمه كالتعويذة: «سيد «روبر»؟ «ماركوس»، وتظل تردده مرارا أثناء استحمامه كأم تغنى لطفلها،

فقد كانت منبهرة باسم «ماركوس روبر» كأنها تشعر أنها ستكتشف ارتباطا ما بين اسميهما.

ومن وقت لآخر ـ وعادة بشكل غير متوقع - يستيقظ هذا المريض من غيبوبته ويظهر بعض الوعى بما حوله، ويتمتم بكلمات غير واضحة ويفتح عينيه ولكن بغير تركيز، (وقد) يحتمل أنه يرى الأضواء أو الوجوه، وتهيم عينه اليسرى يائسة ولكن عينه اليمنى فتحت ذات مرة وبدت فيها «نظرة» ؛ وكانت «ر» محظوظة أنها موجودة أثناء حدوث هذه المعجزة مرتين، ولعديد من المرات كانت مقتنعة أن «ماركوس روبر» يحاول أن يتواصل معها ولكنها لم تخبر أحداً البتة، ولا حتى طبيب «روبر» المعالج خشية أن يخطئ أحد فهمها. «سيد روبر»؟ أنا هنا، أنا ممرضتك، وسأعتنى بك» ثم ترددت مليا وقالت فجأة باستحياء : «أنا أحبك يا «ماركوس».

امتلأ قلب «ر» بالسعادة، هاهى قد قالتها أخيرا!

شمت فى يديها رائحة محلول «البيروكسيد» رغم أنها كانت ترتدى القفازات المطاطية، وهى رائحة معاكسة للروائح المثيرة جنسيا، ولكنها برغم ذلك ستذكّرها بتلك اللحظة القدسية التى كانت بينهما، وستذكرها به .

ومالت «ر» بسعادة بالغة لتقبل ذلك الوجه ذا الندوب الذى يبدو محترقا، والعينين الغائرتين والفم المجروح، تمسّه بشفتيها بنشوة فتاة جريئة، وقالت:

«ماركوس! جسدك بارد، ولكنى أعدك أنه سرعان ما سيعود إليك الدفء، أنا أعدك».

كلما مضى الوقت يقل عدد زائرى «ماركوس روبر»، وكل ما يستطيعون له هو النظر إليه ورؤيته، كما لم يحدث تواصل، إلا فى حدود ضيقة، معه، وقد استرقت «ر» النظر لعائلة روبر ووجوههم الجهمة والمرهقة؛ إنه لأمر ممل أن نبقى على مشارف الموت نتشبث بحياة منقوصة كغريق يتعلق بخشبة من سفينة بالية .

ولكن «ر» لم ولن تمل أبدًا من مريض الغرفة١١٠٤ .

تصاب «ر» بالإرهاق أحيانا ولكنها لم تمل أبدًا، وأرجأت إجازتها الأسبوعية، رغم مرض والدها، وبررت ذلك بأن هذا ليس وقتا للإجازات: «لن أستمتع بوقتى وسأبدو مشغولة البال، أنا هنا لا أتشتت أبدا وأعلم أن هناك احتياجًا لى».

والدها فى المنزل بحاجة إليها، ولكن الاحتياج إليها ملحّ فى «مدينة الهلاك».

أخذت «ر» تغسل عضوه القصير الغليظ المعرق الذى بدا لها كالرخويات البحرية فاقدة الإحساس تقريبا، ويحصل على الدفء من أصابعها فيتحرك حركة خفيفة ويستجيب ليديها رغم أن الرجل فاقد للوعى.

برغم اهتزاز جفنيه بوضوح !

(٢١)

لم تكن «ر» ثملة فقد تناولت بعض الجعة ربما بدافع الجراءة، وترددت على المرحاض عددًا من المرات أكثر من المعتاد ؛ وبعد ذلك فى شقة «د» بدأ فى تقبيلها وشعرت هى بحرارة فى خديها، وعيناها حالمتان ونصف مغلقتين يتراءى لها من خلالهما وجه «ماركوس روبر» قبل وقوع الحادث، وبادلت «د» قبلاته بحرارة واستلقيا سويا على الفراش، وبدأ يخلع لها ملابسها وهى تشعر أن جسدها يزداد ضعفا حين تفكر فى وجه حبها الحقيقي المحطم ووجهه الخفى الفعلى الذى لا يعرفه سواها، واستمرت فى تقبيل «د» وتعض شفته بنوع من العاطفة وشعرت بعضوه المتصلب على بطنها ويحاول اختراق البلل بين ساقيها وتوقف فجأة ورفع رأسه بعيدا عنها كأن فكرة طرأت فى مخيلته، وهمست «ر»: «ما بك؟».

ففى لحظة يمارس معها «د» الحب معها، وفجأة يتملص منها ويبتعد وعلى وجهه علامات نفور، وقال لها : «تلك الرائحة».

«رائحة؟ أية رائحة ؟».

صدمت «ر» ولن تنسى تلك الصدمة وذلك الفزع أبداً، فلقد استحمت جيداً قبل مقابلة «د» هذا المساء، وأرادت أن تعترض وتؤكد أنها تستحم يوميا فور عودتها من المستشفى، أو على الأقل تغتسل

وتغسل شعرها بالشامبو وتفرك جسدها بالصابون السائل ثم ترش على جسدها بودرة التلك، وتهتم برش عطر خفيف وتضع مزيلا لرائحة العرق تحت إبطيها الخاليين من الشعر، واهتمت الليلة بزينة وجهها بشكل يثير الإعجاب، ووضعت أحمر شفاه أحمر ورسمت عينيها بشكل أخّاذ، وابتسمت وغمزت لانعكاس صورتها فى المرآة التى أغرتها بوعود وردية.

أما فى هذه اللحظة فيتضح فى صوتها جرحا وعدم تصديقها : «أية رائحة؟».

(٢٢)

همست «آجنس أودواير» لوسادتها التى تخيلتها حبيبا عدوانيا: يا إلهى، لا أعتقد، أعنى أنى أشكرك أنك طلبتنى للزواج، ولكن عملى فى المستشفى هو كل ما أحتاجه فى الحياة.

سبتمبر ١٩٧٣

أعتقد أن آشعة إكس اخترقت عظامى.

وشعاع الرديوم يضئ فى الليل.

أكاد أراه ولكنى لست خائفة.

فلقد عشت حياة كاملة.

منذ ٢٦ مارس ١٩٥٩ .

لم يتقدم أحد لـ «آ» لأنه ما من أحد سيصدق .

ولا أحد فى المستشفى يريد المشاكل.

(لم أصوت للنقابة ولكنى الآن سعيدة

لوجود نقابة تحمى حقوق الممرضات!)

«آ».

انتاب ملاك الرحمة القلق عندما دخل مرضى معروفون لديها إلى «مدينة الهلاك»، حيث يعرفها بعضهم باسمها وبعضهم الآخر يعرفها ولكنهم لا يذكرون اسمها، وبعضهم تعرفهم هى ولا يعرفونها وهذا شىء مخيف، فكأنك تقف أمام مرآة ترى فيها شخصا لا يعرفك ينظر إليك ؛ فها هى «بيسى إ» وهى صديقة لأم «آجنس» منذ أعوام قليلة مضت من ابرشية «سانت آن» : امرأة ممتلئة ناعمة ذات وجه تملؤه التجاعيد وعيون قلقة كانت تلتقى غالبا بالسيدة «أودواير»، وابنتها «آجنس» أحيانا، فى قداس الساعة الثامنة صباحا وهم يتلون صلواتهم همسا، وكانت اما لثلاث بنات وتعمل فى مصنع تعبئة تعيش مع أبى بناتها الذى أفسدت الخمر عقله، وبات مقتنعا أن «بتسى إ.» خانته مع عديد من الرجال بما فيهم من كان يطلق عليهم الزنوج. لقد عاشت حياة بائسة، ولكن بناتها «عدا واحدة » تحسنت أحوالهن بشكل جيد، فقد كانت «آجنس» تذهب لنفس المدرسة مع هؤلاء البنات ولكنهن هربن منها، واستمررن فى إرسال المال لوالدتهن رغم أنهن لم يزرنها إلا لمامًا، و«بيسى» الآن بلغت سن الثامنة والستين التى لا تعتبر سنا متقدمة ولكنها وهنت وأرهقت وأصبح جلدها

مشدودا على وجهها الذى كان يوما مستديرا ؛ لقد هاجمها مرض سرطان الثدى لعدة سنوات ثم انتشر حتى وصل إلى المخ، والعلاج الكيميائى يرهقها ويكاد يقتلها و «آجنس» تعرف الأعراض بالطبع، وتراقب صديقة أمها بفزع، بوجهها الضئيل وجسدها عديم الملامح ولون ذراعيها وكاحليها وفخذيها الذى تغيّر من كثرة الحقن وأنابيب المحاليل، وأصيبت "آجنس" بالهلع خوفا من أن تتعرف عليها صديقة أمها، ولكن «بيسى» تنطق بإسمها، وفى هذيانها قد تسأل عن والدة «آجنس» (التى توفيت منذ عامين) وقد تخلط أحيانا ما بين «آجنس» ووالدتها الراحلة، وكل هذا كان أعلى من قدرة «آجنس» على الاحتمال، ولابد أن تخلص ـ مدينة الهلاك ـ من مثل هذه الشاهدة وينبغى لها أن تفعل، وبسرعة! ولم تستخدم «آجنس» محقنة هذه المرة، بل كانت أداتها هى الوسادة، وهى دائما وسيلة محفوفة بالأخطار (فقد يلاحظها أحد). أسدلت «آجنس» الستائر حول فراش «بيسى» لوجود مريضين آخرين فى الغرفة كانا مخدّرين ونائمين، ولكنهما مضطربان ويئنان أثناء سباتهما. وبعد منتصف الليل بقليل، ولم يكن الفجر قد بزغ بعد، تحركت ملاك الرحمة بعزم وتصميم، نحن من نسينا «الإ ـ ه»، أحبك يا «بيسى».

انزعجت «آجنس» عندما رفعت الوسادة الثقيلة ووضعتها على وجه «بيسى» ورأسها وتضغط عليها، وشعرت بمقاومة «بيسى» الواهنة وقد ظنّت أنها لن

تلاقى أية مقاومة، أو على الأقل مقاومة لفترة قصيرة. فالمسكينة «بيسى إ.» خسرت ثمانين رطلا من وزنها على الأقل فقد أتى عليها مرض السرطان ؛ وهمست لها «آجنس» : «لا، لا! توقفى»، ثم ضغطت بقوة أكبر على رأس «بيسى» بالوسادة وهى تصر على أسنانها، أسنان كبيرة حادة تظن عند مرآها أنها أسنان وحش، وتغير لونها من فرط احتساء الشاى لعقود، ولم تكن تلك هى الأسنان التى طالما تباهت بها «آجنس» وهى فتاة صغيرة، ولكنها (كما تعتقد) لا تملك ما تزهو به، وأن هذه الحماقة انتهت إلى الأبد. «لا يمكن، لا» كيف لهذه المرأة التى أتى عليها مرض السرطان أن تريد مزيدا من الحياة؟ هناك خطأ ما، هذا شئ كريه؛ و «آجنس» تلهث وتضغط بالوسادة على رأس السيدة العجوز، وقد جحظت عيناها وأدمعت وازداد خفقان قلبها وهى مصممة أن تتم مهمتها، هذه هى الرحمة، وهى مطلوبة الآن.

وتوقف الصراع بعد دقائق كما تنتهى كل الصراعات، وحملت «آجنس» الدليل الوحيد على ما فعلت بعيدا وكان رطبا من لعاب السيدة.

وبعدها ذهبت لتغسل وجهها المتوهج ويديها فى حمام الممرضات، وفى أثناء ذلك دخلت ممرضة صغيرة سمراء وجذابة ونظرت باستغراب إلى «آجنس أودواير» ولم تقل شيئا إلا إلقاء التحية عليها، ثم نظرت «آجنس» فى المرآة التى تناثر عليه قطرات من

الماء ورأت الوجه الشاحب الشبيه بثمرة اللفت، والعينين الصغيرتين الخالية من الرموش، والابتسامة التى تكشف عن أسنانها، وقهقهت كأنها خجلى وقالت: «يا إلهى! أبدو فى غاية التعب بعض الأحيان، ولا أريد أحيانا سوى أن أسقط على الفراش وأنام...».

وبعد وفاة «آجنس» ببضع سنوات، ظلت تلك الممرضة الصغيرة تتذكر تلك الكلمات كأنها نبوءة تستدعى التكرار، وكانت قد ردّت عليها فى حينها: «آآآه! أتعتقدين أنى لا أعرف ما تقصدين».

(٢٣)

إنه وقت الفتور فى علاقة «ر» بأبيها، خلال عام شخصت فيها حالته أنها مرض «باركينسون» (أو الشلل الرعاش) بعد ثلاث سنوات من وفاة أمها، وأصبحت «ر » تنهار بعد كل مرة تتحدث فيها مع والدها خاصة على الهاتف .كان مستعصيا على الاحتمال وأصيب بالصمم ولا يقبل بالسماعة الطبية، غير صبور ويصيح كثيرا، وفى ساعات صمته تقول له ابنته: أنا أحبك يا أبى، لقد تغيرت كثيرًا.

إنه يعانى من تضخم الرئتين ويدخن ثلاث علب من السجائر يوميا منذ ثلاثين عاما، واستمر يدخن بعناد بعد أن تم تحذيره من أخطارها على صحته، ويعانى من مرض «باركينسون» أى مشلول يرتعش، فضلا عن ضغط الدم المرتفع. لم يكن متقدما فى

السن إلى هذا الحد، ولكن حياته لم تكن مستقرة، وقد كره يده المرتعشة التى تخونه وتظهر مرضه لأى عين حصيفة ويضحك ساخرا على البول الأحمر عندما يراه فى المرحاض، وعندما تسأله «ر» عن ذلك، يهز كتفيه بلا مبالاة ويرفض الإجابة، ولا يدعها تصطحبه إلى طبيب شاب متوسط العمر يرفض أبوها التعامل معه.

كانت «ر» متمرسة فى العناية بالمرضى، وتعى تماماً ما يخبئه القدر لهذا المسن الغاضب، ولو لم تكن تحبه بشدة ويحدوها أمل فى قلبها البرئ، يناقض أى منطق، فى شفائه وعودته إليها كما كان منذ سنوات قليلة مضت، لكانت قد قالت له : أبى؟ لماذا تريد أن تحيا؟ لماذا تتعلق بهذه الحياة البائسة؟ كل ساعة فى حياتك أصبحت شكوى وبؤس وألم. أصبحت كفأر فى مصيدة، الزمن هو المصيدة، والتقدم فى السن مصيدة، وأنت لا تستطيع حتى أن تقرض شيئا كالفأر. وقد شارفت الآن على الموت وتنبعث من جسدك رائحة الموت وما زلت تريد أن تحيا، إنك تحشو فمك المدهن وتأكل كالخنزير وتبلل الفراش ـ وأنا أبغضك لهذا. أبى، لماذا تهين نفسك؟ لماذا لا تموت وفى إمكانك ذلك؟ لديك كل هذه الأقراص وأستطيع أن آتيك بالمزيد .

ولكن «ر» تحب والدها، ومن المستحيل أن تتلفظ بمثل هذه الكلمات الموجعة فى مواجهته.

(٢٤)

إبريل ١٩٧٤

يمكنك أن تسألهم، المرضى.

أحبوا «آجنس» ووثقوا فيها، دائما كنت كذلك.

فأنا أحوز على إعجابهم أكثر ولست مثلهم.

الأطباء والمستشفى.

تبقيهم أحياء كالخضراوات من أجل الدولار.

حتى عندما رأوا تلك الممرضة.

وهى تحمل المحقنة وتنحنى عليهم وتبتسم.

حتى عندما رأوا الوسادة الضخمة.

تستقر على وجوههم كسحابة تتدنى لتنزل فوق عقولهم.

كرياح عاصفة فى السماء، وحتى حينذاك.

لا يصدقون.

أن «آجنس أودواير» تريد لهم الأذى

أسترجع حياتى، كل حياتى.

وأقول بكل ثقة أنى فخورة بها

«آ».

فى ذلك اليوم من شهر إبريل الممطر سجلت «آجنس» فى يومياتها العلامة الأخيرة، سريعة

ومتعمدة وبريئة كما كانت فى المرة الأولى عندما كانت فى سن الشباب.

الوسادة، الوسادة هى الأفضل؛ لقد أصبحت تؤمن أن الوسادة هى الوسيلة الأفضل فعلا، فحين يختنق المريض يتوقف الأكسجين عن الوصول إلى المخ، وتتسارع ضربات القلب ثم يندفع إلى الأمام ويبدأ فى التداعى ويفشل ثم يتوقف أخيرا؛ ولكن أين يحدث هذا؟ إنه يحدث فى «مدينة الهلاك»، فالقلوب شاخت وارتشحت وأجهدت، تتوق أن تتوقف، ووسادة عادية فوق الفم والأنف ستلبى ذلك التوق، وسيكون إعلان الوفاة بسبب هبوط فى القلب وبالتالى لن يشك أى طبيب في الأمر، فلم سيشك؟ ولن تشك أى ممرضة غالبًا، إلا أن «آجنس» يجب أن تحترس من زميلاتها الممرضات اللاتى يتربصن بها وينظرن إليها بعين الشك (ولديها أسباب لذلك). لابد أن تتم هذه المرة بسرعة، أحد ثلاثة مرضى خرج ثلاثتهم بعد عملية استئصال ورم فى المخ، حيث تم استئصال نصف المخ تقريباً وتم تقطيعه إلى شرائح كما تقطع ثمرة خوخ إلى نصفين، ولم يعد مهما إن كان رجلا أم امرأة، ولكن للتوثيق كان رجلا فى الثانية والسبعين من عمره ذا وجه نحيف وعينين غائرتين كالبيض المكسور، ووجنتين غائرتين حيث اقتلع طاقم الأسنان الذى لم يكن مناسبا تماما، ولم تتوقع «آجنس» الكثير من العناء أو المقاومة، وعندما دخلت الغرفة تحركت يداها القديرتان بسرعة بدافع من

الشفقة ونفاد الصبر، وأرادت أن تقنع نفسها أن لم يكن مخططا له رغم أنها كانت قلقة ومتوثبة، ورافضة لشئ ما لا تعرفه؛ ذات الحالة التى كانت تستشعرها أثناء انقباضات الدورة الشهرية (التى انقطعت عنها بعد بلوغها الأربعين)، سن اليأس كما يتفكّه الرجال ساخرين بقسوة وفجاجة، كأنهم لا يعانون هم أيضا من أعراض سن اليأس. لقد تعلمت «آجنس» أن تخاف من الشيخوخة والخرف، وتخاف الأعراض المبكرة للجلطات الخفيفة، ومن الجلطات التى لا تعرف أنك تعرضت لها وتذهب دون أن تشعر بها، والعجيب أنها تتركك مبتهجا لم يتغير فيك شئ وغير عابئ بما حل بك. ومن المعروف فى «مدينة الهلاك» بين الممرضات الأكبر سنا أن مثل هذه الأعراض معدية مع مرور الوقت، مثل هواء المدن الصناعية القديمة الملوث الذى يصيب الأطفال حتى قبل ولادتهم؛ على الأقل لن يكون لى أولاد، ليس هذا على الأقل، رغم معرفتها بحزن والدها ووالدتها لأنها لم تتزوج ولم تنجب، وتصحو ليلا أحيانا وقلبها ينبض بعنف فى صمت منزل يقع فى شارع «كاليبر» ومات فيه أبواها ودفنا فى الساحة التى تقع وراء كنيسة «سانت آن»، وبعد كل الأذى والانتقاد الذى تعرضت له، فإنها لا تستطيع أحيانا أن تتذكر اسمها، ولا تتذكر الشهر أو السنة الحالية، وبالتأكيد لا تستطيع أن تتذكر اسم رئيس الولايات المتحدة (وكان هذا هو السؤال المعتاد عند فحص المرضى المصابين

بجلطات متوسطة الشدة). وهنا كان هذا الرجل المسن المقطب لجبينه ينظر إليها بعينيه الواهنتين التى يبدو أنه لا يرى بهما إلا ظلالا، ولكنه بدا أنه يراها ويدينها، وفمه الصغير يتذمر بما قد يكون: «أنت! أنت!»، ورائحة بول وبراز تفوح من الوعاء المخصص للإخراج على الفراش، ورأت "آجنس" يديها المضطربتين تلتقط وسادة من دولاب الأدوات وذهبت بها فى اتجاه الرجل العجوز، وتمتمت شفتا «آجنس» الجافتان: «لا، لست أنا».

لأنه لا يستطيع أن يراها. هل رآها؟

فلا توجد شاشة بالقرب من فراش الرجل المسن ولا وقت لإسدال الستائر رغم وجود مريضين مخدّرين فى أسرّتهم تصل إليهما المحاليل بالأنابيب، ولكن الحدث كان أقوى منها كأنه فورة جنسية عنيفة ولا يمكن الرجوع عنه، وأصاب «آجنس» الاشمئزاز من هذا المخلوق المثير للشفقة، الذى يتمسك بالحياة رغم ضعفه وعدم قدرته، وضغطت بالوسادة على وجهه المقطب بنشوة، وضغطت، وأشرقت عيناها ونفرت عروق جبينها، ولم تكن مستعدة لمقاومة الرجل وكأن حياته تستحق الاستمرار ولو لساعة أخرى، كم كان عنيفًا فى مقاومته! سمعت أنينه من تحت الوسادة، وانتزعت إبرة أنبوب محلول التغذية من ذراعه الواهنة وانقلب إناء الإخراج ومحتوياته المقززة على الفراش، وأمرته «آجنس» أن

«توقف، توقف، توقف «وقد أرهقتها قوة اليأس، ثم جاءتها قوة «الإ ـ ه» التى لم تؤمن بها يومًا لتنقذها، وضعفت مقاومة الرجل بالتدريج واستقرت أصابعه التى كان يحاول بها دفع الوسادة من يدى «آجنس»، ثم همدت تماما.

لقد انتصف الصباح، ولم يكن وقتًا آمنًا فى المستشفى ؛ لم يحدث أن سجلت «آجنس» طوال ١٥ عاما فى ذلك الوقت الخطر، وفكرت أن هذا دليل أن المسألة لم تكن متعمدة، فلن تجرؤ ممرضة على الإقدام على مثل هذه المجازفة .

ورفعت «آجنس» الوسادة بحذر، فقد يكون هذا الصمت المفاجئ خدعة من الرجل المسن، وتحرك أحد المريضين على فراشه بجوار النافذة وتأوه بضعف. وأمعنت «آجنس» النظر فى وجه ضحيتها الذى تغير لونه وسحق أنفه، هل كانت هى من فعل ذلك؟ وغمرتها موجة من الرعب المكتسح، فسيتم اكتشاف ماكان من أمرها وستكون موضع اتهام، والوسادة هى دليل الإدانة.

وتحسست «آجنس» نبض الرجل فأحست به، ولكن تبين لها أنه نبضها هى ودقات قلبها هى شعرت بها فى أطراف أصابعها.

وحملت «آجنس» الوسادة المبللة بلعاب الرجل ومخاطه بحرص إلى الردهة وألقتها بسرعة فى كومة البياضات المتسخة، إذ لا بد أن تتخلص من الدليل

وقد فعلت. ورغم الردهات المزدحمة فى «مدينة الهلاك» هذه الساعة من منتصف النهار، اعتقدت «آجنس» أنها غير مرئية، ففى السنوات الأخيرة أصبحت غير مرئية: ينبغى للممرضة الجيدة أن تكون غير مرئية أثناء تأدية واجبها .فأين يجب أن تكون الآن؟ دخلت «آجنس» الغرفة ١١١٧ ثانية التى كانت تغمرها شمس الصباح من خلال النوافذ الطويلة، التى لم تكن نظيفة تمامًا، وتفقدت الغرفة بعناية: المرضى الثلاثة موجودون بلا حراك، وتحسست نبض الرجل المسن ثانية ووجدت أنه ميت، وملمس جلده كعجين الخبز البارد، ولكن الجسد ما زال فيه بعض الدفء، «يا إلهى، لقد مات!»، قالتها «آجنس» بدهشة وعيناها متسعتان فى براءة كأن أحدًا ما يراها مع علمها بغير ذلك، ثم تركت الغرفة مسرعة وانحرفت نظارتها عن أنفها وتصبب وجهها عرقًا ورأتها ممرضة أخرى : عرفت من نظرتها أن شيئًا ما قد حدث فى تلك الغرفة، وتمتمت «آجنس»: «لقد مات، هنا، توقف نبضه»؛ وفى لحظات تم استدعاء مشرف الدور والطبيب المباشر للحالة والمسئولين عن التغسيل، ولم يكن هناك داعٍ لإجراء التشريح، فأهل الميت لا يريدون ذلك الإجراء، وماذا الذى سيضيفه التشريح لمجرد وفاة بسبب هبوط فى القلب؟

لم يشتبه فيها مرة أخرى، ولن يتم اتهامها وبرغم أنها كانت متعبة جدًا، لكنها اتخذت قرارها وعادت

إلى المستشفى ليلا رغم أنها لم تكن ليلة مناوبتها، وشوهدت فى زيها الأبيض والقبعة المنشاة تغسل وجهها ويديها بهمة فى حوض من أحواض دورة مياه الممرضات ؛ كانت تبدو فى حالتها الطبيعية إلا من بعض مظاهر التعب والإرهاق، ولم تلحظ وجودى، وبعد أن تعدّت الساعة الثالثة صباحاً، عبأت الحقنة بمهدئ قوى هو «سَكسينيلكولين»، ثم أعدت لنفسها فراشًا مريحًا من المناشف والأغطية وركعت ثم حقنت نفسها بالحقنة كاملة فى ذراعها الأيسر، ورقدت بهدوء حتى أسلمت نفسها للرحمة التى طالما وهبتها للآخرين ؛ التاريخ هو ١١ إبريل عام ١٩٧٤، ولم تكتشف جثتها حتى الساعة الخامسة وخمس وعشرين دقيقة فجرًا.

(٢٥)

«سيد روبر! ماركوس».

لقد غيرت «ر» محلول المضادات الحيوية وأفرغت محتويات الإناء الموجود تحت الفراش وتخلصت من محتوياته ذات الرائحة الكريهة، وأعدت الرجل الفاقد لوعيه للاستحمام وهى تتمتم اسمه بلطف وتحدثه عن أحوال الطقس وحالة الجو فى الصباح، رغم أن السماء خارج النافذة كانت ضبابية والنهر الملوث لم يكن ظاهرًا، وهبت كتل من الضباب فى اتجاه زجاج النافذة كأنها أنماط من الحياة، التى لا معنى لها ولا شكل تسعى لدخول الغرفة، ولكن السيد «روبر» التقط

عدوى من المستشفى بعد خضوعه لعملية ثانية فى المخ وأصيب بالحمى، وتملّك «ر» شعور بالظلم: فالعدوى منتشرة فى المستشفى، وخاصة فى قسم الأطفال وقسم الأورام و «مدينة الهلاك».

وقد اعتقدت «ر» بقوة أن «ماركوس روبر»، إذا نحيت الحمى الحالية جانبًا، «يتقدم» فى العلاج، فقد تكرر استرداده لوعيه عما ذى قبل ولفترات أطول، ولكنه لا يستطيع نطق كلمات مفهومة وإن كان يبدو أنه يفهم ما يقال له، ولم يكن أخصائى الأعصاب المشرف على حالته متشائما تماما إلا أنه فى نفس الوقت (بالطبع!) لم يكن متفائلا إلى حد كبير ؛ هذه هى «مدينة الهلاك»، وخجلت «ر» أن تستفسر ولم يكن لها أن تستفسر، ولكنها علمت أنه أصيب إصابة بالغة فى عموده الفقرى، وسيعانى الرجل المسكين (كما تقول الممرضات) من شلل نصفى من خصره حتى قدميه، وسرعان ما سينتقل إلى مكان آخر للرعاية الصحية فى مكان آخر فى الولاية ؛ «ولكن أين؟ ربما أستطيع أن أتقدم للعمل هناك. .. ربما أسعى للنقل»، وقامت «ر» بتغسيل الجسد، الذى تنبعث منه رائحة الخميرة بالإسفنجة، ولم يفتها ضعف تنفس «ماركوس» ووهن جسده وانكماش صدره عند الضلوع وشحوب جلده كأنه رجل عجوز، وذلك اللعاب على أركان فمه المصاب، الذى لا يجف أبدًا ؛ لن يعود وجهه كما كان أبدًا ولن تجديه عمليات التجميل نفعًا، وإذا كانت «ر» قد توقعت غير

ذلك قبلا فإنها الآن أدركت واقع الأمور، وبينما كانت تنظف جسد الرجل شعرت بمدى الظلم في مثل هذا الموقف، فهذا المريض لا يجب أن ينتزع منها، فإذا لم يكن هناك أمل في شفائه فيجب أن يتم تمريضه باستمرار وإلى الأبد، فلماذا يأخذونه منها ؟ وتخيلت أنها تتوسل وتناقش وتحاور، وتخيلت أن طلبها للنقل يمزق إلى قطع صغيرة ويسخر منها، كانت تمسد بيدها على العضو الغليظ الرخو لتعزيه وتعزى نفسها، فقد نجد الراحة في المتعة البسيطة كتمرير اليدين بلطف على الأطفال أثناء استحمامهم، فالطفل جسد وبعض عقل؛ وشعرت «ر» في أطراف أصابعها بتدفق الدم في جسد الرجل. «خذني معك يا «ماركوس»، أريد أن آتي معك»، وأصابها الإحباط لأن الجفن المصاب فشل أن يفتح أو حتى يهتز، لابد أنها الحمى، وهذا الفم المكسور لا يستطيع الكلام. كم كان الوضع مرهقا في ظل الأنفاس الضعيفة والانتفاض المفاجئ والارتعاش، والمحاليل الوريدية المتواصلة في أوردة واهنة، والسوائل التي ينضحها الجسم في الوعاء البلاستيكي تحت الفراش: « أهذه حياتنا؟ لا يمكن أن تكون هذه هي حياتنا»، لابد أن القدر كان يخبئ لنا ما هو أفضل حياة حقيقية وسعادة، كان مقدرًا لها أن تكون ولكن لم يكن مقدرًا لها أن تتحقق، كأن ما حدث كان المجد الأعلى وليس اللعنة، كأنهم كانوا يستودعونها إياه ولا يهزءون بها، وها هم زملاؤها الآن ينتقدونها لأنها أصبحت مشتتة وتنسى

كثيرًا رغم أنها تتبع التعليمات بمنتهى الدقة، ولكن شيئًا ما تغيّر، ما هو؟ «ليس هذا من شأن أحد غير «ماركوس» وأنا»، فقد أصبحت «ر» شديدة الحساسية وهى تفكر فى هذه الانتقادات رغم أنها حقائق عليها أن تواجهها، فهو مثل والدها المسن المريض، فمن قد يريد أن يحيا لفترة أطول وهو فى هذه الحالة؟ لقد أسقمتها الشفقة على هذين الرجلين المحطمين اللذين كانا يومًا رجلين مفعمين بالرجولة، وأسقمها المجهود، الذى تبذله للعناية بهما والحب الذى تقدمه لهما: «أكره التمريض، ولو خيرونى فلم أكن لأختار التمريض ليكون مهنتى»، لقد تسرب اليأس من حالة «ماركوس روبر» إليها مخلفا مرارة فى حلقها، الاستحالة واللا جدوى ؛ فلماذا يصر «ماركوس روبر» على الحياة وتشارك هى الآخرين فى هذه الحماقة؟ وماذا لو وضعت «أنكتين» فى حاوية المحاليل؟ ستختار «أنكتين» المهدئ، لأن آثاره تختفى من مجرى الدم بسرعة ولا يظهر أثره فى التحاليل الروتينية، وسيسبب سكتة قلبية وتنفسية وسبب الوفاة هو الحمى التى أصابته، ولن تطالب عائلته بإجراء تشريح، فقد تحرّت «ر» عن عائلته وعلمت مدى سأمهم من حالته ورغبتهم فى موته، ثم إنه لن يموت فى هذه الغرفة، فسيذهب أولا لغرفة العناية المركزة وهو فى غيبوبة تامة وقد يتم إنعاشه، ولكنه سيموت فى النهاية ولن يصمد قلبه، ولن تصمد أعضاؤه المنهكة الواهنة؛ وارتاحت «ر» من تيقنها أن الوقت المناسب قد حان، وربما كان قد حان قبل الآن.

وأكملت «ر» تغسيل الرجل بالإسفنجة، وأعادت الغطاء إلى الجسد المحموم، ثم ودعته قائلة: «سيد روبر، وداعًا! ».

(٢٦)

كانت تنتظر أمام المصاعد وهى فى غاية الإرهاق من مناوبتها الليلة المتعبة، وتفكر فى أنها لم تعد غضّة على ما تعتقد. كان ذلك فى أواخر صيف عام ٢٠٠٢ أو الخريف أو بدايات الشتاء وسرعان ما سيأتى انقلاب الشمس الشتوى والعام الجديد ؛ فى مملكة السكتات الدماغية والأورام فالوصفة هى التداوى بروح الدعابة، وابتسمت وهى موافقة بأن الأمر كذلك حقًا، فأنت لا تريد أن تدرك الأمر فى البداية، خاصة عندما تكون الممرضة الأصغر فى «مدينة الهلاك».

وبدأت تحتفظ بمفكرة لتسجيل يومياتها، وتدون فيها نشاطاتها بقلم حبر بالرموز والاختصارات والعلامات النجمية والحروف الأولى، وذلك فور الوفاة الأولى رغم أن المريض لم يمت فى قسم الأمراض العصبية والنفسية بل مات فى العناية المركزة وتحت إشراف ممرضاتها، ولم تر «ماركوس روبر» ثانية بعد آخر استحمام له، وجاء مكانه فى الغرفة ١١٠٤ مريض أجريت له عملية استئصال ورم فى المخ، وهو رجل فى منتصف العمر قد يحدث فى حالته» تقدم «إيجابى بسيط» كما ذكر الجرّاح.

شعرت «ر» أنها كالحقنة الفارغة بعد مناوبتها الليلية وهى تتخيل مستقبلا من الخدمة ليس فيه منفعة شخصية، ولم تر شكلا آخر للحياة متاحًا لها، وترى أيضًا أنها يمكن أن تعيش وحدها قريبًا، فستفجع فى والدها ولكنها يجب أن تكون واقعية وتضحى به، فهو رجل مسن وستتوقف رئتاه وقلبه الذى أجهده سنوات طويلة من التدخين، وسيوقف مرض «باركينسون» عقله وإدراكه وقريبًا سيرقد طريح الفراش، فى عناية ابنته الممرضة!.

ولم تعد «ر» تقابل «د» أو أى رجل آخر، وحدث لها تحول مفاجئ تجاه فكرة الزواج والنوم بجوار شخص آخر فى فراش واحد. لقد عرفت الآن الكثير من حقائق الحياة ولم يعد هناك مزيد من العواطف الجسدية، فكل هذا أصبح ذكرى من الماضى تزدريها.

ولكن الأمر لا يخلو من بعض لحظات البهجة فى حياة «ر»، عاشت لأجلها ولم تخذلها حتى فى «مدينة الهلاك»، فقد أدركت أنها لن تطلب نقلها أبدًا إلى قسم آخر، ولن تتقدم بطلب وظيفة فى مستشفى آخر: هذا هو مكانى، وأنا أنتمى إليه؛ لقد كانت تشعر أحيانا أنها كانت ممرضة فى «مدينة الهلاك» فى حياة سابقة، وتسترجعها هى كأنها كانت حلمًا. نالت مفكرتها الخاصة بالتمريض كثيرًا من اهتمامها، فهى سجل لأسرار أكثر واقعية من حياتها نفسها، فقد

دونت فى هذه المفكرة لحظات السعادة والنشوة كما دونت لحظات الأسف والتساؤل بل ولحظات الرعب والفزع، فمثلا الوعد بإدخال نوعيات جديدة من الحالات فى هذا الدور، حالات يظهر عليها «تقدم ملحوظ»: فقد دخلت «ر» الغرفة ١١٠٤ وهى تحمل الإفطار لمريض مستيقظ ينتظر عصير البرتقال وإفطاره المخصوص، الذى يتناوله بماصّة، ورغم الجمجمة المعطوبة وفروة الرأس الموصولة ببعضها والرضوض المضحكة فى عينيه، فإنه ابتسم فى وجه «ر» وبدا عليه أنه كان جائعًا بضراوة.

إنه لأمر يثير التساؤل دائمًا: فأولئك، الذين يمكن أن يأكلوا فى أى توقيت، يأكلون بشهية!

وبينما كانت تنتظر المصعد لتصعد للدور الحادى عشر، شعرت «ر» التى كانت تظن أنها بمفردها بوجود شخص بالقرب من كوعها، وجود أحسته كثيرًا، وظنت أنها إن استدارت فلن تجد أحدًا، إلا أنها استدارت، ورأت مريضًا قعيدًا يحدق فيها بابتسامة وقحة، كان هذا «إ»، شاب فى التاسعة عشرة من عمره أجريت له جراحة استئصال ورم فى المخ، وفقد شعره كاملا، ويرتدى نظارة طبية سميكة مثبتة بشريط مطاطى حول رباط رأسه، الذى يشبه البيضة؛ وخلطت «ر» فى البداية بينه وبين «ب» الذى غادر «مدينة الهلاك»، ولكن «إ» كان شخصًا متميزًا وعدوانيًا؛ وتجرأ وأمسك بكوع «ر» وسألها بصوت أجش له صفير: «ممرضة؟ هل أنت الممرضة؟ ممرضتى؟ممرضة؟».

الفهرس

مقدمة.. ٩

الأشباح.. ٢٣

الناعقة.. ٤٥

فليساعدنى الرب.. ٦٥

مهرجة فى شارع ماديسون.................................... ١١٩

قولى إنك قد صفحتى عنى.................................... ١٤٧

دول رومانسية المسيسبى...................................... ٢١١

جوع.. ٢٥١

ملاك الحنق... ٣٢٥

ملاك الرحمة.. ٣٦١

ينعم الإنسان بشعور الألفة بينه وبين المجتمع الذي يحياه ويحيا فيه، حين يفتح أفقاً أمام الحاضر والمستقبل، باستيعابه المعلوم، وإدراكه المجهول، وحين يقرأ نفسه، ويقرأ الآخرين، فكل قراءة تجدد المعرفة تحررنا من العجز أمام المشكلات، وتمنحنا طاقة الإمكان على تحسين الحياة، بأن نوظف معارفنا لكل ما هو نافع ومفيد، فالمعرفة أهم وأغنى وأقوى ما يمكن أن نمتلكه في الحياة، ففي ظلها يزدهر عقل الإنسان، ووعيه المتجدد الحضور، فتتعدد لديه الإبداعات والإنجازات، وينتج الموارد والثروة، ويصنع القوة، وتتسع أمامه كل المجالات. إن من يحسن القراءة يحسن ممارسة الحياة. لذا، كانت وستظل دعوتي أن نقرأ للحاضر.. أن نقرأ للمستقبل.. أن نقرأ للحياة

سوزان مبارك

القراءة للجميع
2008 - 2009

ISBN# 9789774206774

٢٠٠٨

٤ جنيهات